

في الموهبة الشعبية المصرة

تأسيس نظري وتطبيقات عملية

دكتور محمد عمران

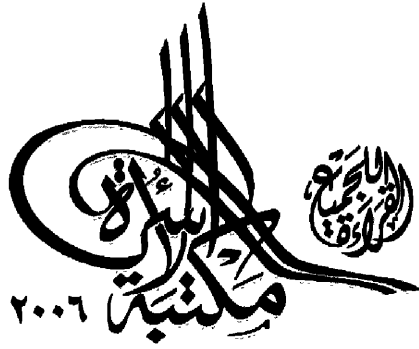




ستظل القراءة هي المظلة الرئيسية
للبناء الروحي والفكري والوجداني
للإنسان، والثقافة هي بكل المقاييس
أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل
و«ثقافة السلام» هي الضمان الأكيد
لإرساء دعائم الأمن والسلام الاجتماعي،
والتسامح ومكافحة العنف، ونشر العلم
والمحبة والإخاء والديمقراطية،
والتواصل مع الحضارات الأخرى.

سوزانه مبارك

في الموسيقى الشعبية المصرية
تأسيس نظري وتطبيقات عملية



برعاية السيدة
وزراء مباركة



الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

المشرف العام

د. ناصر الأنصاري

تصميم الغلاف

د. مدحت متولى

الإشراف الطباعي

محمود عبد المجيد

الإشراف الفني

علي أبو الخير

ماجدة عبد العليم

صبرى عبد الواحد

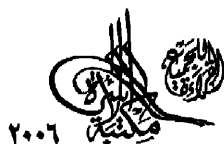
التحقيق

الهيئة المصرية العامة للكتاب

في الموسيقى الشعبية المصرية

تأسيس نظري وتطبيقات عملية

دكتور محمد عمران



لوحة الغلاف للفنان رفعت أحمد
عرائس المولد - زيت على سيلوتكس - ٧٤ × ٢٥٢ سم.

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل
كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف
المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن
موضوع الكتاب.
وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون
التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث
على هذا التعاون.

عمران ، محمد
دراسات فى الموسيقى الشعبية المصرية ..
تأسيس نظرى وتطبيقات عملية
تأليف محمد عمران . - ط ١ . القاهرة: الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦ .
٢٠٨ ص ٢٤: سم . - (سلسلة مجموعة قصصية)
تملك ٠٠-٢٥٤-٤١٩-٩٧٧ .
١- الموسيقى الشعبية المصرية
أ - العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٤٤٥ / ٢٠٠٦

I.S.B.N 977-419-254-0

ديوى ٧٨٠، ٤٢

توطئة

انطلاقاً من شعار «مكتبة الأسرة» هذا العام: الثقافة لغة السلام، والذي طرحته السيدة الفاضلة سوزان مبارك، انتقلت مكتبة الأسرة حوالى ٣٠٠ عنوان، حاولت أن تقترب من الأجواء الفكرية والثقافية والإبداعية لمفهوم قيمة ثقافة السلام ودعم التسامح، وتعميق قيمة المواطنة والانتماء والمشاركة والمسؤولية المدنية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، وترسيخ قيمة دور المرأة وتعزيز قيمة التجدد الثقافى، والتفكير النقدى، والحوار، والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى. وأخيراً إبراز تواصل الإبداع المصرى عبر أجياله المختلفة وتياراته المتنوعة.

إن مكتبة الأسرة من خلال سلاسلها المتنوعة تحاول استيعاب المشهد الثقافى والفكرى والإبداعى فى مصر عاماً بعد عام. وفى هذا العام تطرح أعمالاً جديدة، وتقدم أسماء لم تنشر من قبل فى هذا المشروع الرائد، وتقتحم مجالات فكرية وثقافية وأصوات إبداعية جديدة.

وسوف تدور عناوين مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ فى فلك سلاسل الأدب، والفكر، والعلوم الاجتماعية، والعلوم والتكنولوجيا، والفنون، والمثويات التى تحتفى هذا العام مع العالم كله بمرور ستمائة عام على رحيل المفكر العربى الكبير عبدالرحمن بن خلدون، الذى يعد واحداً من بُناة الحضارة العربية الإسلامية فى أوج عظمتها وازدهارها، ولأن هذه الحضارة كانت الأساس الذى قامت عليه

الحضارة الأوروبية الحديثة، فابن خلدون يعتبر نموذجًا واضحًا لأهمية حوار الحضارات وطريقة تواصلها.

سيظل هدف مكتبة الأسرة فتح نوافذ جديدة للقارئ المصرى للاطلاع على منابع الثقافة العربية والعالمية وتكوين ثقافته ومعرفته بأيسر السبل، والوقوف أمام ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والثقافى والعلمى والفكرى المستتير، حتى يستطيع القارئ مواجهة العنف والأصولية، والفخر بإسهامات أسلافه العرب فى تشكيل مسيرة الحضارة الإنسانية.

مكتبة الأسرة

تقديم

للموسيقى فرادتها بين غيرها من الأجناس الفنية الأخرى، حتى أن البعض يعتبرونها لغة عالمية، لأن مادتها الأولية هي الأصوات المجردة، وهو ما يجعلها فناً متجاوزاً للحدود الثقافية.

وبالرغم من ذلك، فإن الموسيقى تحمل في طياتها ملامحاً مميزة للثقافة التي تنتمي إليها، خاصة في حالة اقترانها بالكلمة، فلكل شعب من شعوب العالم موسيقاه وأغانيه التي تفرق إيقاعاتها في وجدانه الجمعي، لتمنحه خصوصيته الثقافية، مما يكفل له القدرة على الإسهام في بناء التراث الإنساني.

وحول هذه القضية يقدم الدكتور محمد عمران كتابه «في الموسيقى الشعبية المصرية» ليوضح كيف خطت الموسيقى خطوات واسعة نحو ترسيخ مفهوم الشخصية المصرية، ثقافياً ووجدانياً، بدرجة لا تقل عما أنجزته العمارة والآداب والعلوم في هذا الصدد.

وعبر فصول الكتاب الثلاثة يستعرض المؤلف مفهوم الموسيقى الشعبية المصرية، ويحلل اتجاهاتها المختلفة، والتي ترتبط في أغلب الأحيان بالمناسبات الاجتماعية، كالسبوع، والزواج، والوفاة، والعمل، والأعياد الدينية، وغيرها.

ولكل مناسبة طبيعتها الخاصة، وهو ما يتسحب على طبيعة الموسيقى التي تصاحبها، فيجعل اتجاهات الموسيقى الشعبية في مصر، تتباين فيما بينها،

ويوضح المؤلف أن هذا التباين لا يتأتى من المعنى الذى تحمله الكلمة/ الأغنية فحسب، بل يمتد ليشمل البنية الموسيقية كذلك، من حيث نوع المقام والإيقاع والآلات المستخدمة وطريقة الأداء.

ولا يتوقف الكاتب عند الجانب النظرى، بل يسعى إلى تناول نماذج تطبيقية، يدعم بها دراسته النظرية، كما يستعرض الدراسات العلمية التى تناولت الموسيقى الشعبية المصرية من منطلقات مختلفة، سواء الدراسات التى كتبت بأقلام مصرية، أو التى كتبت بأقلام أجنبية، وهو ما يمنح الكتاب نظرة بانورامية حول الإشكالية التى يتناولها.

وقد صدرت الطبعة الأولى للكتاب عام ٢٠٠٥ وفى هذا العام يسعد مكتبة الأسرة أن تعيد نشره، باعتباره إسهامًا علميًا جادًا فى حقل الموسيقى.

مكتبة الأسرة ٢٠٠٦

الفهرس

١١	مقدمة
----	-------------

الفصل الأول

١٥	حركة الاهتمام بالموسيقا التقليدية عند العرب
١٥	علم الموسيقا المقارن
١٧	علم الاثنوموزيكولوجى
٢٠	المدخل الموسيقى الفولكلورى
٢٣	أهمية درس الموسيقا الشعبية (ماهية الموسيقا وميدانها)
٣٣	مصطلحات عامة
٣٤	الموسيقا الشعبية والغناء
٣٥	الأغنية الشعبية
٣٥	مفهوم الأداء الغنائي عند الجمهور

الفصل الثانى

٤١	حركة الاهتمام بالموسيقا الشعبية فى مصر
٤٣	جهود المؤرخين والرحالة والمستشرقين
٥١	عمليات الجمع الميدانى والأرشفة
٥٤	تصنيف الموسيقا الشعبية المصرية
٧٢	البحوث والدراسات الموسيقية المصرية وأدواتها
٧٥	الموسيقا الشعبية المصرية فى مجال الاستلهام والتوظيف
٧٧	قضية الصون والحماية

الفصل الثالث

٨١	تطبيقات عملية «الدراسات»
٨٥	أولاً : الدراسات المصرية
٨٥	الإرشاد الدينى عند المنشد الصييت (مصادر الرواية وفنية الأداء)
١١٠	الفناء البلدى ومقومات الشكل
١٣٢	ظاهر الاحتراف الموسيقى عند غجر مصر (الشعراء والمداحون)
١٣٨	شاعر السيرة وآلة الربابة
١٤١	التغير وآلياته

ثانياً: الدراسات الأجنبية

١٧٩	المجموعة الأولى : (الدراسات الوصفية والتحليلية)
	ديتر كريستنسين صناعة الموسيقى فى صحار
	هانز برانديس - الموسيقى والرقص عند جماعات الأقليات فى جزيرة منداو
	آرين ماركوف : مدخل إلى الموسيقى الصوفية فى تركيا
	مايكل فيكشوف : أداء اللغة كطريقة للوصول إلى الهدف
	(دراسة للطرق الصوفية فى مصر)
	مانتيل هود: بصمات صوت الموسيقى التقليدية
	هامورى فريد: أصول الموسيقى المجرية
	المجموعة الثانية:
١٨٣	(الدراسات فى مجال الأرشفة والتصنيف وتقنيات الجمع والتوثيق)
	آرتور سيمون : أهداف وتوثيق الموسيقى التقليدية
	نيرثوس كريستينيسين : أرشيف الموسيقى التقليدية ودوره فى البحث العلمى
٢٠١	المراجع
٢٠٦	المصادر

مقدمة

منذ ما يزيد عن عشر سنوات وكتابة مدخل لدراسة الموسيقى الشعبية المصرية من الموضوعات التي كانت تشغل أولويات اهتمامي . وخلال تلك الفترة، شرعت في عمل واحدة من الخطوات المهمة في هذا السبيل ، تمثلت في إعداد كتاب «الدراسة العلمية للموسيقا الشعبية» ضمن سلسلة دليل العمل الميداني لجامعي التراث الشعبي . وكنت أظن أن هذا الدليل يمكن أن يفى بالغرض، أو يغنى عن كتابة مدخل تأسيسى لفهم الأطر النظرية والتطبيقية المتصلة بموضوع الموسيقى الشعبية المصرية . على أن فائدة هذا الدليل (رغم ما تضمنه من أفكار تأسيسية) ظلت في إطار الغرض الذى تسعى سائر الأدلة إلى تحقيقه . ومع مرور الوقت تزايدت الحاجة لتخصيص عمل مستقل يفى -وعلى نحو مفصل- بالنواحي التأسيسية النظرية والتطبيقية معاً . ومن ثم شرعت في إعداد هذا الكتاب عله يفى بالغرض في دائرة الدارسين والباحثين من جهة، وفي دائرة المهتمين بالموسيقا الشعبية المصرية بصورة عامة من جهة أخرى .

أما فكرة هذا الكتاب فقد جاءت عن دراسة كنت قد أعدتها سلفاً بعنوان: «أحدث الأسس النظرية والمنهجية في دراسة الموسيقى الشعبية» وتقع في حوالى خمسين صفحة، تم تطوير ما جاء بها من أفكار وموضوعات، فاشتملت على عرض لبدائيات الاهتمام بالموسيقا التقليدية عند الشعوب متضمناً معالجة لأهم الأفكار النظرية والمنهجية التى واكبت هذا الاهتمام . ويعقب هذا العرض، عرض آخر يعالج حركة الاهتمام بالموسيقا الشعبية في مصر منذ نشأة هذه الحركة وإلى اليوم . وبجانب ذلك خصص جانب من الكتاب لعدد من الدراسات، كأمثلة تطبيقية للأفكار والمفاهيم الواردة به، وتشمل هذه الأمثلة بعض الدراسات التى سبق إعدادها في سنوات سابقة في معالجة بعض الجوانب المهمة في الموسيقى الشعبية المصرية، مع إبراز المواضع التى تم تعديلها وفق ما لحق من تطور وتعديل في الأفكار وفي وجهات النظر. وفي

هذا السياق -وحرصاً على زيادة الإفادة- خصصنا جانباً من الكتاب لتقديم تلخيصاً لعدد من الدراسات الأجنبية لما رأيناه فيها من أهمية فكرية يمكن محاككتها بالرؤية المنهجية وبالأفكار الواردة في هذا الكتاب. وآمل فيما قدمته أن أكون قد لمست لب القضايا التي من شأنها إضاءة الطريق أمام الباحثين في هذا الفرع من الثقافة، علماً ومادة.

المؤلف

أغسطس ٢٠٠٣

الفصل الأول

حركة الاهتمام بالموسيقا التقليدية عند الشعوب

ليس غريباً أن تظل الموسيقى الشعبية «التقليدية» موضع عناية كبيرة في الدراسات التي تنصدي للثقافات التقليدية عند الشعوب، ليس فقط لأن هذه الموسيقى تحمل قيماً فنية وجمالية خالصة، أو تحمل أبعداً فلسفية عريضة، وإنما لأنها تؤكد بوجودها الدائم، الدور الذي تلعبه في المجتمع باعتبارها عنصراً متكاملًا ووظيفيًا يتفاعل مع عناصر الثقافة من ناحية، وباعتبارها نشاطاً كاشفاً للدور الذي يلعبه الأفراد والجماعات في المجتمع التقليدي من عمليات تفاعل واتصال واستجابة من ناحية أخرى.

ومن شأن تتبع تاريخ العناية بالموسيقى الشعبية أن ينحوبنا إلى الإشارة إلى الجهود الأولى التي وضع الأوروبيون بذورها (والتي واكبت حركات الاستشراق والاستعمار وما نحو ذلك) والتي تمثلت في اصطلاح فرقاء منهم برصد النشاط الموسيقي في المجتمعات التقليدية ورصد كل ما يرتبط بها من أدوات وآلات وعادات تصور طبائع الناس. هذه العناية كانت تستند إلى وضعية شائعة في زمانها اتسقت مع أهداف المهتمين الأوروبيين وتوجهاتهم الفكرية برصد ظواهر الحياة عند الشعوب، إذ لم يك هذا الاهتمام (حتى نهاية القرن الثامن عشر على وجه التقريب) يرمى إلى أبعد من استيفاء مقتضيات عمليات الوصف والتسجيل وإجراء المقارنات في بعض الحالات (وفي أضيق الحدود) ولم تكن -في ذلك الزمن- تنحو تجاه معالجة أى رصد أو تسجيل للموسيقى حسب المفاهيم والاتجاهات النظرية التي ظهرت فيما بعد.

علم الموسيقى المقارن

في عام ١٨٨٥ توصل العالم الألماني الكسندر أليس A. Ellis إلى نتائج علمية مهمة أدت إلى إمكانية تحديد نظام القياس الرياضى للأبعاد المنظمة للسلالم الموسيقية، وهو نظام يقسم الديوان الموسيقي (غير الغربي) إلى ١٢٠٠ بعداً صغيراً يقدر بالسنت sent وتقدر نسبة كل صوت كامل بـ: ٢٠٠ سنت، وهذا التقسيم ضرورياً من الناحية العملية حيث عدّ من أهم المقومات التي نشأ عليها علم الموسيقى المقارن

Comparative Musicology وهو علم تفرع عن علم الموسيقى العام الذى يعنى بدراسة الموسيقى العامة من الناحية التاريخية والتحليلية وغيرها أى دراسة الموسيقى خارج دائرة الإبداع والأداء. أما علم الموسيقى المقارن فقد عنى بدراسة الموسيقى التقليدية عند الشعوب غير الأوروبية. وقد تبلورت أفكار هذا العلم وبدء العمل به مع مطلع القرن العشرين وخاصة بعد ظهور أبحاث كل من كارل ستومف Carl Stumpf وهورنبوستل Hornbostel التى أضافت نهجاً جديداً فى دراسة الموسيقى غير الأوروبية.

وتشير العديد من الكتابات التى عرضت لبدایات نشوء هذا العلم، أنه عند تطبيقه فى المراحل الأولى فى برلين عام ١٩٠٠ - كان مكملاً لعلم النفس وهو الذى يفترض وحدة العقل البشرى ويتجه بالنظر إلى مظاهرها المختلفة ومنها الموسيقى باعتبارها منهاجاً ارتقائياً أو تطويرياً لهذا العقل^(١)، وخلال سنوات قليلة وبحلول عام ١٩٠٦ خطا علم الموسيقى المقارن - فى برلين - خطوة مهمة تمثلت فى الانتقال من علم النفس إلى التاريخ الحضارى العالمى، وذلك فى محاولة لرصد التطور الحضارى للجنس البشرى فى مجال الموسيقى منذ نشأتها وحتى أواخر الإنجازات التى تم التوصل إليها فى عصرنا هذا...، لكن وبعد مرور كل هذه السنين فإن الهدف لم يتحقق بعد، ذلك أن النظريات والأساليب التى كانت سائدة عام ١٩٠٦ مثل نظرية المناطق الثقافية Klturkreislehre وما تضمنته من أفكار الارتقائية أحادية الخطوط، قد أثبتت أنها غير مثالية، وهو الأمر الذى كان مدركاً طوال فترة العمل بهذا العلم، لذلك كانت هناك مساعى عديدة تبذل لتعديل مساره وتقويم مناهجه وقواعده النظرية التى ينطلق منها، فوجد أنه لا بد من توسيع دائرة هذا العلم وتجنب ما فيه من قصور بحيث لا يقتصر على دراسة موسيقى الشعوب فى حضارات شرقية عالية، خاصة وأن هذا المسعى كان يتجه ناحية إضافة أية معلومات لعلم الانثروبولوجى Anthropology فى محاولة لاستقراء شواهد تدل

(١) نظرية عرقية بطل تداولها مع بدايات القرن العشرين. انظر المدرسة الانثروبولوجية لـ: تاييلور Taylor وأندرو لانج A. Lang. محمد الجوهري: علم الفولكلور - الجزء الأول، الأسس النظرية والمنهجية - الطبعة الرابعة، دار المعارف، عام ١٩٨١ من ص ٢١٧ .

على نشأة الموسيقى وتطورها .

غير أن هذه الاجتهادات لم تصمد كثيراً أمام النقد، وعلى الرغم من أن علم الموسيقى المقارن قد خلف لنا الكثير من الفهم العميق في مجال الموسيقى (باعتبارها بناء structure وسلوكاً وأداة اتصال أو تواصل، بل وأمدنا بمعرفة واسعة عن كيفية تناقل الأفراد في بعض المجتمعات لهذا المجال من التعبيرات الاجتماعية وبالأشكال التي تتخذها في مجتمعهم) فإننا إذا ما تساءلنا عن كيفية تطور هذه الموسيقى منذ البدايات الأولى إلى هذا النوع الذي نجده اليوم، وكيف ولماذا أصبحت جزءاً رئيسياً من الوجود الاجتماعي للإنسان؟ فإننا ووفق مقولات بعض الباحثين لا نعرف عن كل هذا أكثر مما كان يعرفه أجدادنا الأقدمون^(١).

في هذا السياق - الذي راح يشير إلى ملاحظات نقدية إلى علم الموسيقى المقارن- يمكن التعرف على الهدف الرئيسي لهذا العلم والذي تمثل بوضوح في التركيز على دراسة الموسيقى التقليدية البسيطة عند الشعوب غير الأوروبية والتي لم يحدث لها تطور ملحوظ وذلك بغرض كسب معلومات تصور بداية الموسيقى الأوروبية من الناحية العملية والتي لا يمكن للأوروبيين التعرف عليها الآن حتى من خلال المدونات المتاحة لديهم والتي يصعب معها التوصل إلى الناحية العملية مثل الإحياء الموسيقى أو مقاييس السلم الموسيقى وأساليب الأداء وما نحو ذلك.

علم الاثنوميوزيكولوجي

وفي استطراد لنتبع هذه الملاحظات النقدية يذكر الباحثون: أنه قد تبين أن الدراسة المقارنة -وفق ما جاء في علم الموسيقى المقارن- لها مساوئها، فهي تقصر البحث على جوانب بعينها من العملية الموسيقية، مع إهمال الصلة التي تربط هذه الموسيقى بالسياق الثقافي التي نشأت فيه .

(١) ديتير كريستينسن Dieter Christensen . عمان، دراسات موسيقا الشعوب وتاريخ الموسيقى / الوثائق الكاملة للندوة الدولية لموسيقا عمان التقليدية (١٦:٦ أكتوبر ١٩٨٥) الجزء الأول مطبوعات مركز عمان للموسيقا التقليدية سنة ١٩٩٤، ص ٧٣.

وثمة مشكلة أخرى واجهت تطبيقات هذا العلم، وهى أن استخدامه لا يتلاءم مع توجهات ومنطلقات الباحثين الوطنيين (المحليين) فهؤلاء لن يتوجهوا بطبيعة الحال بدرس الموسيقى إلى الوجهة نفسها التى يتجه إليها الباحثون الأوروبيون عندما يدرسون هذه الموسيقى ذاتها، وخاصة فيما يتصل بموضوع المقارنة الذى يعتمد على النظريات القديمة، ومن هنا -وربما أيضاً لتعذر عقد المقارنات بين أنواع مختلفة من الموسيقى هى فى حد ذاتها غير معروفة معرفة وافية من قبل الباحثين بحيث تسمح بعقد المقارنات- ربما لهذا السبب لم يكن لعلم الموسيقى المقارن أن يصمد أو يستمر إلى منتصف القرن العشرين، ولذلك ما لبث هذا العلم حتى تحول إلى علم آخر هو علم الاثنوموزيكولوجى Ethnomusicology أو علم دراسة موسيقا الشعوب أو موسيقا الأجناس. وهو العلم الذى يهدف إلى اكتشاف الأساليب التى من خلالها تطورت وارتقت قدرات وعادات الإنسان فيما يتعلق بإدراك الصوت (الموسيقا). ولتحقيق ذلك تسلح العلم بترسانة كاملة من المقومات الفكرية والتقنية التى تساعد على مواصلة السعى من أجل التوصل إلى نظرة عميقة فى مجال العادات والمعتقدات أو قدرات التكيف الاجتماعى المتبادل التى تسمى بالموسيقا فى مختلف الحضارات وفى كل مكان فى العالم.

وفى هذا السياق عملت منظمة اليونسكو على تحقيق مشروع كتابة التاريخ العالمى للموسيقا بصورة لا تتسم بالعرقية المركزية ويطلق عليها اسم «الموسيقا فى حياة الإنسان، تاريخ عالمى». ويسعى هذا المشروع إلى التغلب على أوجه القصور التى شابت ما سبق من كتابات عن التواريخ العالمية^(١). ويفهم من ذلك أن المشروع يقدم الحضارات الموسيقية بعدالة ويبعد بقدر الإمكان عن التحيز، وهذا العمل لم يخطط له على أساس تقديم الحضارات الموسيقية فى كل بلد على حدة، أى أنه -فى العديد من الحالات- نجد أن الحدود السياسية ليس لها سوى مغزى محدود فى المجال الموسيقى، إذ أنها لا تفصل بين الحضارات الموسيقية وبعضها البعض. ومن هنا فإن هذا المشروع

(١) الإشارة هنا إلى الدراسات السابقة التى قامت علي نظريات عرقية مثل دراسة كورت زاكس Sachs عام ١٩٢٩ التى كتب فيها تاريخاً شاملاً للآلات الموسيقية معتمداً علي أفكار نظرية المناطق الثقافية Kulturkreis وكذلك محاولاته سنة ١٩٣٢ التى تمثلت في كتاباته «النوازع الشاملة للرقص»، ومثل دراسات فالتر فيورا سنة ١٩٦٣ Wiora Welter التى صور فيها كل الموسيقات في كتابه «عصور الموسيقى الأربعة». Wiora Walter: The Four Ages of Music Translated by M. D. Herter Norton New York. Norton. 1965.

(مشروع الموسيقى فى حياة الإنسان ..) يسعى إلى تقديم بعض الخصائص والعموميات التى توجد بين مناطق كثيرة، وهو لا يهدف إلى شرح أصول الموسيقى من وجهة نظر أوروبية لكنه يأمل فى إعطاء صورة للموسيقا وصناعة الموسيقى فى المجتمعات الحالية فى مختلف أنحاء العالم، كما يأمل -فى الوقت نفسه- فى تقديم الجوانب المتصلة بالجدور التاريخية للموسيقا وتطلعاتها ومنجزاتها فى كل مكان.

على أن الدراسات التى تمت فى كنف علم الاثنوموزيكولوجى أثبتت العديد منها أن هذا العلم بمناهجه التقليدية ليس كافياً لتحقيق الدرس العادل والدقيق للموسيقا التقليدية عند الشعوب المختلفة، وعلى الرغم من أن موضوعات دراسة موسيقا الشعوب (الاثنوموزيكولوجى) مليئة بالحياة، حيث تصدر أصواتاً موسيقية، مما يضيف بعداً أكمل لدراسات أكثر عمقاً مثل دراسة الأسلوب الموسيقى، وهو أكبر مما يمكن الحصول عليه من دراسة المخطوطة الموسيقية الصامته؛ فإن هناك مع ذلك- انتقادات وسمت هذا العلم -فى بعض جوانبه- بالقصور والتقليدية فى معالجة موضوعات الموسيقى، وأنه ينطوى -فى كثير من إنجازاته- على موقف ثقافى متحيز يعتمد على مقارنة تاريخية موروثة عن القرن التاسع عشر^(١).

هذا التوجه النقدى لابد أن يؤخذ بعين الاعتبار، لا سيما وأنه يأتى لمحاكاة إنجازات علم الاثنوموزيكولوجى بالإنجازات التى تبنتها الاتجاهات المستحدثة فى مجال التحليل الموسيقى وخاصة ما يتعلق منها بتحليل الأسلوب والذى يعد -وفق ما ذكره الباحثون- أخطر جوانب التحليل وأقلها حظاً فى البحث، ويأتى هذا رغم تعالى الأصوات التى تبنت وجهة النظر القائلة بأن هذا البعد فى التحليل يجب أن يكمل الطريقة التقليدية للتحليل الميلودى والهارمونى والإيقاعى، والتى كانت تعتبر أساس البحث الموزيكولوجى فى كل مكان، ومقوماً من المقومات الرئيسية التى توارثها علم الاثنوموزيكولوجى وما زال يعمل بها فى الدراسات المعاصرة.

(١) الإشارة هنا إلى الملاحظات النقدية التى وجهها مانتييل هود Mantle Hood: للطرق التقليدية المعمول بها فى علم الاثنوموزيكولوجى (انظر: مانتييل هود "بصمات صوت الموسيقى التقليدية العمانية" الوثائق الكاملة للندوة الدولية لموسيقا عمان التقليدية - الجزء الأول).

المدخل الموسيقى المتكامل

وعلى الرغم من تعدد الاتجاهات النظرية والمنهجية تبرز حقيقة مؤكدة، وهي أن هذه الاتجاهات باختلافاتها واتفاقاتها راحت تلقى بظلالها على النتائج المستخلصة من درس الموسيقى التقليدية عند الشعوب، وهو الأمر الذى بات يلح على ضرورة البحث عن مدخل متكامل لدرس هذه الموسيقى أى مدخل فولكلورى لا يشوبه أى من الثغرات المنهجية أو النظرية التى تعرضت لها المداخل التقليدية المتمثلة فى علمى الموسيقى المقارن والاثنوموزيكولوجى، مع الاعتراف -فى الوقت نفسه- بأهمية وضرورة الإفادة من المعطيات الإيجابية التى جاء بها هذان العلمان. وما نعنيه بالمدخل الموسيقى «المتكامل» أو المدخل الفولكلورى هو التركيز على معالجة الموسيقى التقليدية باعتبارها فرعاً من فروع الثقافة الشعبية (الفولكلور). وهو المدخل الذى يتوفر على إمكانية الاستقلال عن تبعية ما خلفته التوجهات النظرية القديمة، لأنه يستمد دعائمه النظرية والمنهجية من علم الفولكلور. ففى هذا العلم لا ينظر إلى الموسيقى على أنها صيغ ومكونات -لحنية وعناصر ومفردات صوتية، وإنما على أنها نشاط اجتماعى يتفاعل مع كافة عناصر الثقافة الشعبية، وهى النظرة التى تتسق مع معطيات الثقافة الموسيقية فى مصر، لا سيما وأن أغلب موضوعات -هذه الموسيقى تتخلق من أحداث اجتماعية بعينها، حتى إذا ما غاب الحدث، غاب الفعل الموسيقى بدوره. وهذه الرابطة لا تنسحب على حضور أو غياب الفعل الموسيقى فحسب، وإنما تنسحب على بنيته فى تشكيل اللحن والإيقاع وفى طرق الأداء والأسلوب أيضاً. ومن هنا يمكن القول: إن الأهمية التى يؤكد عليها المدخل الموسيقى المتكامل (المدخل الفولكلورى) تكمن فى السعى إلى فهم المبدأ الذى تقوم عليه العمليات الموسيقية الشعبية فى صياغة أشكالها وموضوعاتها المختلفة، كما أنه لا يغفل أهمية القيم الفنية والجمالية التى تتضمنها هذه الموسيقى، لكنه لا يضعها هدفاً فى ذاتها، لأنه -وقبل كل ذلك- يعالج هذه الموسيقى على أنها نشاط يتفاعل مع العناصر الثقافية الأخرى (الفنية وغير الفنية) وأن احتواء هذه الموسيقى على أية مقومات فنية أو على أى نوع من القيم، لا بد وأن يتأثر بنوعية هذا التفاعل وبدرجته، وهو الأمر الذى يزيد بدوره من التأكيد على أن البحث فى هذه الموسيقى لا يقتصر على قياسات السلالم والأجناس

والمقامات والقوالب وما نحو ذلك، كما أنه لا يقتصر أيضاً على درس الأداء الذى يستوعب عناصر موسيقية متعددة أو التى يلجأ فيها المؤدون إلى الإكثار من الألحان أو التى تظهر فيها براعات وطرق أداء متقنة، وإنما تشمل -بجانب ذلك- كل طرق الأداء الموسيقى بمختلف مستوياتها سواء التى تعتمد على تكوينات موسيقية بسيطة أو التى تعتمد على تكوينات مركبة، كما تشمل أيضاً، كل صور وأشكال العناصر والمفردات الصوتية، وسائر المكونات الموسيقية مجتمعة كانت أو مفردة، ذلك أن الأثر الذى يحدثه الفعل الموسيقى الشعبى ليس مرهوناً دائماً بعدد النغمات أو بكثرة المفردات الإيقاعية، وليس مرهوناً -فى كل الحالات- بفنية الأداء وحكمة الصنعة، فهناك مستويات فى الأداء الموسيقى لا يتعدى فيها عدد النغمات النغمتين أو الثلاث نغمات وأحياناً تكون نغمة واحدة مفردة ممدودة أو مسحوبة قليلاً جهة الحدة أو جهة الغلط، لكن وقع هذا الأداء البسيط -فى سياق تتوافر له مقومات التواصل والمشاركة العملية والوجدانية بين المؤدين وبعضهم البعض- يلعب دوراً فنياً ونفسياً لا يقل أهمية عن الدور الذى تلعبه التكوينات اللحنية الثرية ذات الطابع الغنائى المثير والمشوق.

تلك هى مقومات -المدخل الموسيقى المتكامل- (المدخل الفولكلورى) التى يمكن أن تضع الباحث على الطريق الملائم لدراسة الموسيقى الشعبية فى مصر وهى الموسيقى التى ثبت بالتجربة العملية أن درسها لا يستقيم إلا فى إطار علاقتها ببقية المقومات الثقافية الأخرى وهى المقومات نفسها التى لا ينبغى تجاهلها بحال عندما ينبغى الوقوف على تفسير مقنع للكيفية التى يتشكل بها الأداء، أو بالأحرى فهم المبدأ الذى تقوم عليه العملية الموسيقية ذاتها.

إذا ما تحقق الأخذ بهذا المدخل تنشأ لدينا قاعدة من المعرفة الواقعية المدعمة بالمعلومات والشروحات المفصلة عن وضعية الموسيقى الشعبية فى بلادنا، وهى المعرفة التى قد تنقلنا إلى مرحلة أخرى من الدرس التفصيلى لمحتوى هذه الموسيقى، وهو ما يعرف بالتحليل الداخلى للموسيقا والذى يهدف إلى تحديد الأسلوب، ومن ثم إظهار التميزات التى اختصت بها الأنماط الغنائية المتشابهة فى الشكل والى يحددها اختلاف المناطق واختلاف فئات المؤدين، مثال ذلك اختلاف أسلوب أداء الموال فى صعيد مصر عنه فى دلتا الوادى.

وتحديد الأسلوب إجراء معملى يقتضى توافر أجهزة خاصة لضمان سلامة النتائج التى يصبو إليها البحث، وهو إجراء يقوم على تحليل وحدات المجال الجزئى للأصوات التوافقية^(١). ومن خلال تحليل مجموعة متصلة من هذه الوحدات يمكن التعرف على ما يسمى «البصمة» الصوتية لسياق متصل من الأصوات التوافقية، وهذا السياق يظهر ما يمكن تسميته بالأسلوب فى الأداء الموسيقى. ومعرفة الأسلوب تعنى معرفة العناصر التركيبية التى يتكون منها الفعل الموسيقى أياً كان شكل هذا الفعل أو معناه أو دلالاته الثقافية. فالأسلوب هو التعرف على الأفعال الموسيقية من الداخل وهى الأفعال التى تنتج الأنماط اللحنية وتنظمها فى أشكال متعددة ومتباينة. وتختلف هذه المعرفة عن المعرفة التى تنتج عن البحث والتحليل الخارجى (تحليل الشكل عن طريق الوصف الذى يقتصر على العناصر الموسيقية الواضحة كالإيقاع والمقامية والهارمونية والسرعات والأقسام وما نحو ذلك).

أما علاقة الأسلوب بالشكل (القالب) فخمة صلة تربط بينهما، فتحليل الأسلوب (التحليل الداخلى) من شأنه تفسير الشكل من الخارج ذلك أن الأول يعتمد على تحليل الأجزاء الصغيرة ومعرفة الكيفية التى يجرى بها أداء العناصر الصوتية المختلفة، ومن تجمع هذه العناصر على نحو معين تتجلى صورة الشكل الموسيقى الكلى لعملية أداء كاملة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يمكن من خلال معرفة الأسلوب، معرفة الكيفية التى تتم بها عملية الربط بين أسلوب أداء معين وشكل معين (قالب).

إن الغاية التى يصبون إليها تحديد الأسلوب لا تقف عند تمييز الأنماط الفردية التى يتيحها مجال الإبداع الفردى، فالغاية ليست الوقوف على البصمات/ الأساليب التى تفصل أو تميز بين أداء الأفراد وبعضهم البعض (رغم أهمية هذه الناحية فى حالات معينة من الدرس)^(٢) لكن الغاية المرجوة هى الوقوف على خصائص

(١) المجال الجزئى هو أصغر وحدة صوتية يمكن أن نتعرف عليها الأذن البشرية خلال ثانية إلى ثانيتين (انظر مقال مانثيل هود المشار إليه سلفاً).

(٢) ثمة محاولة فى هذا الاتجاه للذكورة سمح الخولى تحت مسمى لون الصوت الغنائى tempero جاءت فى سياق عرضها للإمكانات الصوتية للسيدة أم كلثوم (فى ذكرها رؤية جديدة لظاهرة فنية فريدة «أم كلثوم»، مقال، مجلة آفاق، دورية تصدر عن لجنة الموسيقى والأوبرا والباليه، المجلس الأعلى للثقافة، العدد الثانى، ١٩٨٨-١٩٩٩ من ص ٦٥ وما بعدها).

الأسلوب التي تميز بين قطاعات ثقافية ثبت أنها متباينة في التقاليد ولم يصل البحث العلمي بعد إلى الوقوف على المقومات الجزئية والتفصيلية التي تقف وراء هذا التباين، ونذكر مرة أخرى بمثال «الموال» حيث يختلف أسلوب أدائه من منطقة إلى منطقة أخرى، وينسحب ذلك على سائر الأنماط الموسيقية التي تنتشر عبر وادي النيل في مصر من أقصاه إلى أقصاه، كأغاني العمل والعرس والتهنين والبكائيات وغيرها، وكل من هذه الأنماط يحتفظ بأساليب أداء تختلف باختلاف المناطق والفئات.

مثل هذه المعرفة قد تفتح آفاقاً رحبة تمكن من الكشف عن أشكال الترابط الجزئي والكلّي بين الفعل الموسيقي والتراكيمات الثقافية والحالات البيولوجية والعنصرية بالإضافة إلى الوظائف والتأثيرات المقصودة من كافة الأنشطة الموسيقية، وهو الأمر الذي قد تتكامل فيه النظرة القادرة على تحديد أدق الخصائص التي تقوم عليها عمليات الأداء والإبداع الموسيقيتين من ناحية، وتحديد طبيعة إجمالي النشاط الموسيقي التقليدي من ناحية أخرى. وبالإضافة إلى ذلك قد تفتح هذه المعرفة مجالاً أرحب تحل فيه مشاكل التصنيف الموسيقي، وذلك إذا ما قام هذا التصنيف على معيار واحد بعينه هو «الأسلوب»^(١) فالتصنيف القائم والمعمول به إلى اليوم، يقوم على معيار «الشكل» (ال قالب مجازاً) وهو معيار ثبت أنه غير دقيق بسبب تعدد الأشكال الموسيقية المتشابهة من ناحية الخصائص الخارجية (الإيقاع والهارمونية والمقامية وتقسيم الأجزاء.. الخ) مما يخل بمنطق المعيار الضابط الذي تقوم عليه محاولات التصنيف الحالية.

أهمية درس الموسيقى الشعبية

ومع كل هذه الجهود والبحث عن الطريقة الصحيحة أو الملائمة لدرس هذه

(١) التصنيف حسب معيار «الشكل» واحد من بين عدة معايير أخرى يجري عليها التصنيف منها التصنيف حسب الاسم الشائع للشكل الغنائي: مثل: موال، تهنين، تحنين، عديد، نعيم وغيرها. والتصنيف حسب صفة المؤدى مثل: أغاني الشحاذين وأغاني الأراجوز، وأغاني الأطفال، وأغاني العوالم وغيرها. والتصنيف حسب المناسبة مثل أغاني العرس وأغاني العمل وأغاني الحج وغيرها.

الموسيقا لابد من التساؤل: ما هي هذه الموسيقا وما هي أشكالها، أو بالأحرى الصورة الاثنوجرافية العامة لموضوعاتها، وما هو الميدان الذى تنتج وتستهلك فيه، ثم لماذا نوليها كل هذه العناية ونسجل لها بكافة مقومات البحث والتحصيل؟

إن البحث فى الموسيقا الشعبية المصرية يعنى البحث فى موسيقا ذات خصائص معينة تنتمى إلى قطاع معين من الثقافة (هو قطاع الثقافة الشعبية) بكل ما تمثله هذه الثقافة من جوانب مادية وروحية، ووفق هذا المعنى يتعين علينا أن نضع حدوداً لمواطن هذه الموسيقا ولإطارها الثقافى، كما نضع حدوداً لموضوعاتها وأشكالها المختلفة.

أما عن مواطن هذه الموسيقا «الشعبية»، أو بالأحرى الإطار الثقافى الذى يضمها، فيمكن تعريفه بأنه الإطار الذى تنتج وتتداول فيه هذه الموسيقا، وعلى ذلك تنوعت الميادين فى مصر ما بين الريف بامتداده الحضرى والواحات والسواحل والبادى. هذا التنوع لا يقف عند هذا التعدد البسيط للميادين وإنما انسحب إلى كل ميدان على حدة حيث تتباين تقاليد الحياة فى الريف (بامتداده الحضرى) ما بين الصعيد الأعلى والصعيد الأوسط ودلتا الوادى، وحيث تتباين أيضاً التقاليد فى الواحات وفق تراميتها فى الصحراء وابتعاذها عن بعضها البعض، وحيث تتباين كذلك التقاليد فى البادية ما بين الصحراء فى الشرق والصحراء فى غرب البلاد، وحيث تتباين تقاليد الحياة لدى سكان السواحل وفق تنوعها واختلاف مواقعها فى مصر. ولا ينتهى الأمر عند هذا الحد، فقد عمدت التوجهات النظرية والفكرية الحديثة إلى توسيع ميدان الثقافة الشعبية التقليدى ليشمل المدن بمختلف أحجامها ومواقعها فظهر مصطلح «فولكلور المدينة» وظهر تبعاً لذلك العديد من الدراسات التى تمت فى هذا الميدان.

لدينا إذن عدة ميادين لما يسمى بالموسيقا الشعبية المصرية، ولدينا فروع وتنوعات للتقاليد التى صاغت أنماط الحياة - فى هذه الميادين - وانعكست على موسيقاها، وهذا التعدد - وعلى هذا النحو - لا يعنى فى الوقت نفسه أن هناك حدوداً فاصلة بين كل ميدان وآخر، بل وعلى العكس من ذلك هناك العديد من مواضيع التماس ومواقع التداخل أيضاً امتزجت معها العديد من العناصر الثقافية المميزة لهذه الميادين ببعضها البعض.

مع هذا التعدد والتداخل يشير واقع الحال - كما يشير العديد من الدراسات

الفولكلورية- إلى أن ميدان الموسيقى الشعبية (أو إظهارها الثقافي) الأكثر تميزاً هو ذلك الذى يضم ثقافة الريف (الفلاحين) وأن هذا الميدان -ولضرورة تاريخية- كان وما يزال متميزاً عن سائر الميادين الأخرى حيث تنتمى إليه القاعدة الجماهيرية الكبرى ويتسع ليشمل وادى النيل -فى مصر- من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه.

أما عن تحديد موضوعات هذه الموسيقى، فقد تبين أن أية عملية حصر أو ترتيب لموضوعاتها دائماً ما يفضى إلى إظهارها فى قسمين كبيرين: أحدهما يشتمل على موضوعات تنتمى -من حيث الإنتاج والاستهلاك إلى عامة الناس وترتبط بشئون حياتهم فى العمل وفى المنزل وفى سائر المناسبات. والآخر يشتمل على موضوعات تنتمى -من حيث الإنتاج والترويج- إلى مؤدين موسيقيين محترفين. وهذا التقسيم لا يستند -فى واقع الأمر- إلى اتجاه نظرى بعينه، اللهم إلا هذا الاتجاه الذى يتخذ من شواهد ومعطيات الواقع الميدانى مصدراً ومنطلقاً أساسياً لفهم هذه الموسيقى والوقوف على كنهها، وهى الشواهد التى طالما أكدت أمرين: أولهما أن الإبداع الشعبى فى مجال الموسيقى أنشأ منها صنفين أحدهما ينتمى إلى عامة الناس ويدور أغلبه فى دائرة الصيغ الغنائية بوجه عام، والآخر ينتمى إلى موسيقيين محترفين: يدور فى دائرة الصيغ الغنائية والمعزوفات الآلية البحتة. وأن لكل من هذين الصنفين وضعه الخاص المتميز فى الحياة الشعبية من حيث فنية الأداء وأدواته ومن حيث العوامل والأسباب التى تهيئ لحدوث هذا الأداء وتحدد نوع مؤديه ومكانتهم الاجتماعية.

ثانيهما: أن الإبداع الموسيقى الشعبى بصنفيه (ومع تعدد روايته وتعدد موضوعاته وأشكاله وأساليبه ومع تعدد مجالات ومناسبات أدائه) يصب جميعه فى دائرة استهلاك واحدة هى دائرة جمهور الثقافة الشعبية.

أما الإنتاج الموسيقى الذى ينتمى (من حيث الإنتاج والاستهلاك) إلى عامة الناس، فإنه يقوم على اتصال وثيق بالعديد من شئون حياة الأفراد بمراحلها المختلفة، وبصفة عامة فإن عملية الأداء الموسيقى -فى هذا القسم- لا تتطلب تأهيلاً فنياً خاصاً يوقفها على أفراد بعينهم أو على فئة دون فئة أخرى. والقاعدة التى يقوم عليها هذه الحق أن الموسيقى التى ينتجها عامة الناس، لا تخضع غالباً لشروط توافر المقومات الموسيقية بالمعايير الفنية المعتمدة فى العمل الموسيقى المتقن، يضاف إلى ذلك أن الناس (فى مجتمع الثقافة الشعبية) لديهم إلمامة عامة بالأنماط الموسيقية

السائدة في مجتمعهم (شعراً ولحناً) لا سيما الأنماط التي تقتضى الضرورة التوصل بها في مناسبات ومناشط اجتماعية بعينها.

والأداء الموسيقي الذي يعرفه الناس (في هذا القسم) ينحو، في عمومته، تجاه ما يعزف بالأداء الجماعي (الذي يقوم على توافر شكلاً من أشكال الاستجابة الجماعية للموسيقا، والتي يلتقى عليها الأفراد في مناسبة ما. والجماعية -هنا- لا تعنى أن الأداء يقتصر دوماً على المجموعة في آن، إذ يجوز التفرد به أو توزيعه على الأفراد بالتناوب أو بالتداخل أو بالرد والتجاوب، نزوعاً إلى تلبية الرغبة الطبيعية في المشاركة (وهي الرغبة التي تثري الأداء وتنحوبه تجاه التنوع والتجديد) شريطة أن تظل هذه المشاركة متنسقة والمناسبة التي نشأت لها وأن تدور في إطار رغبة الجماعة وقدرتها على استيعابها والتفاعل معها.

وثمة صورة أخرى للأداء الفردي تتواجد -عند العامة- في نطاق محدود نسبياً، وهي تلك التي يأتي فيها الأداء دون أية مصاحبة أو مشاركة. والأداء -في هذه الحالة- لا ينشأ عادة بغرض توجيه الخطاب لمستمع بعينه جالس للاستماع لا سيما وأن هذا الأداء يحدث كثيراً أثناء تواجد الفرد (المؤدى) بمفرده دون صحبة أحد، وقد يتحول الأداء -في هذه الحالة- إلى شكل من أشكال الترنم.

أما تشكيل موضوعات هذه الموسيقا، فقد راح ينشأ وفق الضرورة التي اقتضاها واقع الحال في الحياة الشعبية، وهي الضرورة التي تعكسها الصورة الاثنوجرافية العامة للنشاط الموسيقي عند الناس حيث تظهره متشابكاً مع العديد من الأنشطة الحياتية اليومية، دالاً على جنس مبدعيه (رجالاً كانوا أم نساء)، مشيراً -في أغلب الأحوال- إلى منزلتهم الاجتماعية وإلى مراحل أعمارهم.

في هذا التشابك، تتخذ «فنية» الموسيقا وجهة خاصة، هي تلك التي تنهياً معها لعمليات اجتماعية متنوعة، حيث يتسدعى الأداء الموسيقي في حالات تهنين الأطفال، وفي وقائع طقسي كل من السبوع والختان، وفي مراحل العرس، ومقتضيات الجناز، وفي مجالس العزاء عند السيدات، وأثناء أداء الأعمال اليومية التقليدية (كنخل الحبوب بالغربال، وطحنها بالرحا، ومثل تببيض الأرز وحرث الأرض، وأعمال الري وحفر الآبار، وأعمال الجر وصيد الأسماك...)،

هذه الأمثلة (وغيرها كثير) تبين -من ناحية- أن «فنية» الموسيقا (عند عامة

الناس) محكومة بسياق أحداث ووقائع اجتماعية معينة، منها ما يؤخذ فيها الأداء الموسيقي مأخذ الإلزام (مثل السبوع والأعراس وحضرات الذكر ومجالس العزاء) ومنها ما يترك فيها الأداء الموسيقي لمقتضى الحال (مثل تنويم الأطفال وتهنيتهم، ومثل بعض الأعمال اليومية، كالخبيز، ونخل الجبوب وطحنها ومثل أعمال الحرث والرّى وما شابه). ومن ناحية أخرى، تبين هذه الأمثلة، أن تفسير طبيعة هذه «الفنية» مرهون دوماً بدرجة ومدى ما يمكن تسميته «بالتفاعل القائم بين المكونات الموسيقية وبين العديد من العناصر الثقافية الأخرى (غير الموسيقية)، وبحسب نوع العمل ومدى علاقته بالأداء الموسيقي.

هذا التشابك (بما ينطوى عليه من عمليات تفاعل -بين العناصر الثقافية وبعضها البعض، وبانعكاسه المباشر والآني على «فنية» هذا الصنف من الموسيقى)، يمكن اعتباره «تشابكاً بنائياً» أنشأ أشكالاً موسيقية معينة، وبدونه ما نشأت تلك الظواهر الثقافية التي تجمع بين عمل معين أو حدث معين وفعل موسيقي معين، ومن ثم يكشف هذا التشابك عن مبادئ أساسية في العملية الموسيقية التي تخص عامة الناس، ويكشف أيضاً عن طبيعة الآلية التي تتكون بها أشكالهم الموسيقية بتنوعاتها المختلفة.

على أن تفسير ماهية النشاط الموسيقي الشعبى وفق مقوماته الثقافية ووفق تداخله الوطيد مع أنشطة الحياة اليومية، لا ينفى بحال أن من بين موضوعات هذا النشاط الموسيقي، موضوعات تقوم على أسس وقواعد فنية (بالمعيار الموسيقي الفنى)، قادرة على صياغة أشكال مختلفة من المزاج الموسيقي، وتستدعيه وقت الحاجة بأساليب متعددة. وهذا يعنى أن التوسل بالتنعيم والتوقيع (لمصاحبة الأحداث التي تجرى في الحياة الشعبية) يمكن أن يكون مطلباً في ذاته يحقق المتعة الفنية، ولا يتعارض -هذا المطلب- مع المطالب والأسباب الأخرى (غير الفنية) التي تستدعي الفعل الموسيقي بغرض التعبير به عن جوهر الحدث الاجتماعى وخاصة الحدث الذى لا يتم التفاعل معه إلا بالأداء الموسيقي. ويسرى هذا على العديد من العمليات الموسيقية، سواء كانت تلك التي تتحوّج الفعل الموسيقي الصريح، أو تلك التي تبدو -في ظاهرها- أنها لا تنطوى على هذه الميزة.

لكننا -مع ذلك- لا نستطيع أن نسلم بأن هذه الميزات (التي ينطوى عليها

النشاط الموسيقى عند العامة) تساعد وحدها على صياغة تفسير مقبول لماهية هذه الموسيقى، فثمة عامل مهم لابد أن يوضع في الحسبان، وهو التصور السائد لدى الناس حول ما ينتجونه من موسيقا، والمفاهيم التي ترسخت في حياتهم حول الأفعال الموسيقية التي تصدر عنهم في مواقف ومجالات حياتية متنوعة، وعن وجهات هذه الأفعال الموسيقية وأغراضها المختلفة.

فالتوسل بالتنغيم والتوقيع -في الثقافة الشعبية- يضم أشكالاً مختلفة من العمليات، تتراوح فيها الدرجة الفنية للفعل الموسيقى بين البساطة المفرطة، والتركيب والتعقيد (أحناً وشعراً)، (وهو ما سنتعرض له بالأمثلة في هذا الكتاب)، ولذلك فإن هذه الأشكال ليس جميعها فناً في القول واللحن والأداء، وليس كلها صخباً أو نداء أو عويلاً وولولات، وإنما تشتمل على كل هذا. ويبقى أن انتظام كل شكل من أشكال التوسل بالتنغيم والتوقيع يظل كما سبق ذكره مرهوناً بطبيعة مجال الأداء الذي اقترن به، ومرهوناً بتقاليد بعينها تبيحه لأفراد ولا تبيحه لآخرين. فأداء «منظومات العديد» لا يستقيم في غير مناسبتها، ولا يقبل أدائه من غير النساء. ولا يتغير المثل إلى هذا المبدأ أو يستثنى، في حالة الأداء أثناء العمل، وفي الزواج، وعند تهنين الأطفال، وغيرها من صنوف الأداء التي تشير إلى نواحي الاختصاص والملاءمة، سواء فيما يتعلق بنوع المناسبة، أو فيما يتعلق بهوية المؤدين ونوع جنسهم وأعمارهم.

وفق هذه المعايير يقيم الناس كل مسلك في حياتهم يتوسلون فيه بالنغم والإيقاع، فلا يسوون بين كل من الغناء في الحزن، والغناء في التهنين، والغناء في العرس والعمل، وبين بعضه البعض. ولا يضعون الابهتالات والأناشيد الدينية موضع الموسيقى التي يبدعها المحترفون من الشعراء والمداحين ومنشدو القصائد والمواويل، رغم أنها جميعاً ضرب موسيقى صريح، منه ما يثير ويشجى.

هذا المفهوم لا يعنى -في الوقت نفسه- أن النشاط الموسيقى الذي يجرى -أو كان- في الحياة اليومية الشعبية لا يتسع لمجال الإبداع الفردي أو أنه يضع حدوداً لنزوع الأفراد تجاه الخلق الفني وإظهار القدرات والمهارات فاستمرار هذه الموسيقى -أو بعضها- في الحياة الشعبية لا يعزى برمته إلى ارتباطها الوطيد بنواح مهمة في حياة الناس، وإنما يعزى كذلك إلى وجود عمليات فنية تنحو بطبيعتها تجاه الخلق الفني الجديد مستفيدة من تمثل المأثور العام الشائع. فالإبداع والخلق الفني المتجدد، مقوم

أساسى من مقومات بقاء العديد من أشكال هذه الموسيقى، وهو -فى الوقت ذاته- عامل من جملة العوامل المهمة التى ربطت هذه الموسيقى بسياقها، وحمت العديد من عناصرها (الموسيقية وغير الموسيقية) من التفكك، ومن ثم الانحسار. وهذا ما يطالعا به النشاط الموسيقى دائماً، حينما يظهر من بين جملة الناس (رجال ونساء) أفراد يتصدرون ذويهم، ليس فقط فى الميزات الطبيعية، كحسن الصوت، أو سلامة الأداء، أو فى مقدار ما يحفظونه فى ذواكرهم من مآثور غنائى؛ وإنما فى حضور البديهة الفنية، والقدرة على ابتداع النظم والألحان فى آن. هؤلاء الأفراد عرفوا -بين أهليهم- بأنهم أصحاب ميزات فى هذه الناحية أو تلك، وأولئك هم الرواة المبدعون المجيدون الذين لم تخلو من وجودهم قرية أو عزية أو نجع، يتصدرون مجالس الأداء فى المناسبات الاجتماعية المختلفة فى إطار ما يعرف «بأداء الواجب أو رد الجميل»، فيرددون ما يحفظون ويتفاعلون مع ذويهم فيتوالى الإبداع ما بين التنوع والتغيير والتجديد.

وإذا كانت الموسيقى التى تنتمى إلى عامة الناس، ظلت (من حيث الإنتاج والاستهلاك) رهينة التقاليد فى أغلب الأحوال فإن هذه التقاليد لم توفر للإبداع الموسيقى (عند العامة) مجالاً للتفرغ، ولم تضعه قط موضع حرفة أو مهنة يتعيش الأفراد من ورائها ويرتقون.

وإذا كانت هذه التقاليد أفضت إلى ترك احتراف العمل الموسيقى لأهله فلأن هذه التقاليد راحت -فى الوقت نفسه- تصيغ وضعاً خاصاً لظاهرة التخصص واحتراف الأعمال الدارجة، سواء تلك الأعمال التى كانت -وما تزال- تدور فى فلك نمط الإنتاج الاقتصادى السائد فى مجتمع الثقافة الشعبية التقليدى، أو الأعمال التى كانت وما تزال تدور على هامشه. وهو الوضع الذى لا يستقيم له تفسير إن هو عزل عن سياقه التاريخى ببعديه الاجتماعى والاقتصادى. لكننا نترك الخوض فى عرض تفاصيل هذه الضرورة التاريخية لنعاود التركيز على الوضع الأكثر خصوصية، وهو ذاك الذى يمثل ظاهرة احتراف العمل الموسيقى الشعبى وما ينطوى عليها من خصائص وما يقترن بها من مفاهيم.

والمحترفون الموسيقيون هم المؤدون الذين تفرغوا للعمل الموسيقى ويتعيشون من وراء مزاولته فى مناسبات ومجالات أداء بعينها. ومن مميزاتهم أن لديهم إمكانات

وقدرات فنية حظيت -في نطاق تقاليد الاحتراف- برعاية خاصة، لا سيما تلك الرعاية التي هيأت للأفراد فرص التدريب واكتساب الخبرات.

وفي إطار تمثل المحترفين لهذه الميزات الفنية، ولأنهم حريصون على رواج عملهم؛ فإنهم حينما يغنون أو يعزفون على آلاتهم الموسيقية أمام الجمهور، يؤدون بإتقان، ويستخدمون لذلك مختلف الأساليب الفنية التي لا تتوافر عادة خارج نطاق الاحتراف.

وعند المحترفين ينحو الإبداع الموسيقى عادة تجاه دقة الصياغة (شعراً ولحناً)، لكنه في كل الأحوال يتفرد بمزايا الإبداع «المستقل»، أي الإبداع الذي يقوم على احتشاد العناصر الفنية وحدها (شعراً ولحناً وعزفاً...) دون ربطها بأية مجالات عمل أخرى اللهم إلا مجالات الأداء التي تساعد على تخلق أشكال مختلفة من التواصل والتفاعل بين المؤدى وجمهوره من المستمعين جذبتهم المتعة والإثارة فتوقفوا أو جلسوا لهما.

والشكل الموسيقي -عند المحترفين- لابد أن يقوم على عناصر فنية «بنائية» وهي العناصر التي تقوم عليها العمليات الموسيقية الشعبية المتقنة (من الوجهة الحرفية)، ولا يستثنى -من تكوين الشكل الموسيقي عند المحترفين- عوامل بنائية أخرى، مثل تلك التي تنشأ بتأثير التفاعل والتجاوب بين المؤدى وجمهوره ومثل التي تنشأ بفعل خصائص العملية الفنية ذاتها، كالإفادة من الإمكانيات التي يتيحها الشعر بموضوعه وإيقاعه وقوافيه، والإفادة من الإمكانيات التي يتيحها استخدام الآلات والأدوات الموسيقية المختلفة، والإفادة من الإمكانيات التي تتيحها أشكال المصاحبة والمساندة الصوتية البشرية، كالردود والتجاوبات والتداخلات وما شابه.

على أن النظرة العامة لظاهرة الاحتراف والمحترفين، لم يكن لها أن تنصرف -فحسب- إلى تقدير الخصوصية الفنية التي تنشأ عليها الموضوعات الموسيقية عند محترفي هذه الموسيقى، أو تقدير الجانب التقني المميز الذي يقوم عليه الأداء عندهم، وإنما راحت تنصرف أيضاً إلى معالجة المفهوم السائد لدى عامة الناس حول هذه الظاهرة في حياتهم، ولا سيما المفهوم المتعلق باتخاذ الإبداع الموسيقى وسيلة للتعيش والارتزاق، وهو المفهوم نفسه الذي رسم (عند العامة) صورة خاصة للموسيقيين التقليديين المحترفين ولهويتهم، ولما يدور في عالمهم.

هذا المفهوم يمثل أحد جوانب المعرفة التي تشكلت لدينا حول الاحتراف الموسيقى وإطاره في الحياة الشعبية. أما الجانب الآخر، فيتمثل فيما شاع من مفاهيم لدى الموسيقيين المحترفين أنفسهم حول هويتهم، وحول عالمهم الفني والاجتماعي من ناحية، وحول إدراكهم لما يشيع بشأنهم من مفاهيم وموقف هؤلاء المحترفين منها من ناحية أخرى. وفي هذا الخصوص نشير إلى أن العمل الموسيقي في إطار الاحتراف- لا يقوم على عاتق فئة واحدة من الموسيقيين ينتمون إلى نشأة فنية واجتماعية واحدة؛ وإنما ساهم في صنعه فئات مختلفة من الموسيقيين المحترفين، لكل منها مرجعيتها الفنية الخاصة. وهو الأمر الذي أدى إلى ظهور ما يمكن اعتباره مجالات اختصاص في العمل الموسيقي الاحترافي. وهي المجالات التي عكست هذا التنوع المشهود في الأشكال والموضوعات الموسيقية التي عرفتتها الحياة الفنية الشعبية.

هذا التنوع- في الاختصاص- دائماً ما يكشف عن اختلافات وتنوع في المفاهيم السائدة لدى جمهور الثقافة الشعبية عن الموسيقيين المحترفين، كل بحسب تخصصه. كما يكشف في الوقت ذاته- عن اختلافات وتنوع في المفاهيم الشائعة لدى الموسيقيين المحترفين أنفسهم حول طبيعة عملهم الموسيقي، وحول ما يشيع بشأنهم من مفاهيم لدى العامة من الناس، وبحسب نوع الاختصاص في العمل الموسيقي تتدرج هذه الاختلافات وتنوع.

هذا التنوع- في الاختصاص- أمكن تصنيفه وفق التسميات الشائعة التي اقترنت بمؤدين تقليديين. وهي التسميات التي تشير- على نحو صريح- إلى الفئة التي تنتمي إليها كل تسمية على حدة، بكل ما تنطوي عليه هذه الإشارة من مفاهيم ودلالات. ومن هذه الفئات شاعت أربعة أصناف وتربت على قائمة الموسيقيين المحترفين: شعراء السيرة، المداحون، المنشدون الدينيون (الصيثة)، المغنون البلديون (مغنون الفن الصعيدي). وسوف نورد مواقع هؤلاء المحترفين بصورة مفصلة في قائمة مقترحة في هذا الكتاب.

أما لماذا ندرس الموسيقى الشعبية ونوليها كل هذه العناية، فذلك لأن هذه الموسيقى فرع من فروع الثقافة الشعبية المصرية التي تنتمي إلى قطاع عريض من الشعب، وقد أسفر العديد من الدراسات في مجال العلوم الإنسانية والتطبيقية أيضاً أن العناية بدراس

هذه الثقافة بات من الأمور الحتمية لكل أمة، فهذه الثقافة لا تشكل جانباً من حياة الناس وإنما هي نظام كامل للحياة والتعرف على هذا النظام (قديمه وحديثه) لا يقل أهمية عن دراسة التاريخ العام للأمة، بل إن كلاهما يكمل الآخر، فدراسة التاريخ غالباً ما تقتصر على معرفة شئون الحكام وتواريخ توليهم زمام الحكم، وأحوال السياسة والحروب والاقتصاد والممالك المادية والحضارية وما نحو ذلك. ودراسة الثقافة الشعبية تعنى معرفة تاريخ عامة الناس (القطاع الأكبر من الشعب) والوقوف على الكيفية التي صاغوا بها نظام حياتهم في كل تفاصيلها المادية والروحية، ومن ثم معرفة التراكمات الحضارية والثقافية التي امتدت عبر الأجيال حاملة معها سمات العصور المتعاقبة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الثقافة الشعبية حية وتتجدد دوماً وتتابع مسيرتها بالأخذ والعطاء من مجمل الثقافات والتيارات الفكرية والمادية المعاصرة. والوقوف على هذه الناحية يتطلب نهجاً سليماً في الدرس والتحصيل وخاصة إذا كان الهدف من هذا الدرس يرمى إلى المعرفة الصحيحة لطبيعة هذه الثقافة والإفادة منها من جهة وتنمية أحوال منتجها من جهة أخرى.

وإذا كان درس الموسيقى الشعبية المصرية لا ينفصل عن درس المجمل الثقافي (الفولكلور) الذي تنتمي إليه هذه الموسيقى، فإن ثمة خصوصية - في طبيعة الدرس وأهدافه ونتائجه، تبرز من التميز النوعي لهذا الفرع من الثقافة (الموسيقا)، من ذلك: ١- أن دراسة الموسيقى لا تهدف إلى معرفة المقومات الفنية التي تعتمد عليها في بناء أشكالها وموضوعاتها المختلفة فحسب، وإنما تهدف إلى الكشف عن طبيعة النشاط الاجتماعي الذي تتخلق عنه هذه الموسيقى، لاسيما وأن العديد من أشكالها لم يكن له أن يتخلق أو يتواجد في الحياة الفنية التقليدية إلا من خلال ممارسات وأحداث اجتماعية بعينها. وإذا ما أخذ هذا في الحسبان تبين لنا أن الموسيقى لا تأتي لكي تصور لنا الطبيعة الفنية للجانب الصوتي الذي تمثله في تلك الأحداث والممارسات الاجتماعية فحسب، وإنما تأتي لتساعدنا على التوصل إلى نظرة عميقة في مجال العادات والمعتقدات وفي سائر مجالات الاتصال والتكيف الاجتماعي المتبادل.

٢- إن هذه الموسيقى تنطوي على إمكانيات فنية تفسح المجال لعمل دراسات مقارنة بين خصائصها وخصائص الموسيقى الشرق عربية (في مصر) بهدف الوقوف

على الخصائص المتشابهة والمختلفة، ومن ثم توسيع دائرة الاستفادة من مجمل القيم الفنية التي يتضمنها النشاط الموسيقي القومي.

٣- إن تتبع المبادئ الموسيقية «الأولية» التي ما تزال تنطوي عليها هذه الموسيقى تتبعاً تاريخياً ووفق منطلقات منهجية ملائمة، يسهم في إمكانية كتابة تاريخ للحضارة الموسيقية المصرية، وبطبيعة الحال سوف يتجاوز هذا الأمر الحدود الإقليمية (السياسية) سعياً إلى تقديم الخصائص والعموميات التي تتميز بها هذه الموسيقى في مصر وبلدان الوطن العربي.

٤- إن هذه الموسيقى (الشعبية) ولأنها -وكما أثبتت الدراسات- تقوم على مواضع خاصة تظهر العديد من القيم الفنية ذات السمات المحلية المميزة، وهي الناحية التي تكفل للملحنين المستلهمين المعاصرين مصدراً مهماً لتأصيل إنتاجهم الموسيقي القومي.

٥- إن دراسة هذه الموسيقى من شأنها الكشف عن مدى الصلة القائمة بينها وبقية العلوم الأخرى، ذلك أن هذه الدراسة قد لا تقف عند استخدام مناهج وأدوات التخصص الموسيقي (كعلم) فحسب، وإنما تتجاوز ذلك إلى حيث تتبادل الاستفادة مع سائر العلوم الأخرى، سواء فيما يتصل بالقواعد المنهجية، أو فيما يتصل بالتزود بالمعلومات وما نحو ذلك، ومن هذه العلوم، علم الموسيقى العام، وعلوم: الاجتماع والتاريخ والجغرافيا والنفس والأنثروبولوجي.

مفاهيم ومصطلحات عامة

وفيما يتعلق بالمفاهيم والمصطلحات، فما يزال هذا الفرع من الدراسات في حاجة ماسة إلى توضيح العديد منها سعياً إلى تحديد موضوعاتها تحديداً دقيقاً، على أننا عند التصدي للمشكلات المتعلقة بالمفاهيم والمصطلحات، لا نزعم أن في إمكاننا تقديم معالجة وافية لهذه المشكلات في هذا المقام^(١)، ومن ثم سنقصر عرضنا على

(١) سبق للكاتب معالجة ما يقرب من سبعمئة مصطلح خاص بالموسيقى الشعبية المصرية، انظر قاموس مصطلحات الموسيقى الشعبية، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٠.

وعند معالجة مفهوم الأداء الغنائي من هذه الزاوية، لابد من الوقوف على أمرين، أولهما: أن هذه المعالجة - وإن كانت تتخذ من عناصر الأداء ومن القواعد الفنية التي تنظمها مادة أساسية لها؛ فإنها تستند بالضرورة إلى طبيعة المقومات الثقافية التي يقوم عليها الغناء الشعبي بصيغه وطرق أدائه المختلفة والتي شكلت - في الوقت نفسه - نظرة الأفراد إليه وصاغت معاييرهم التقييمية لكل شكل ولكل طريقة أداء. ثانيهما: مراعاة أن هذه المقومات الثقافية وإن كانت تمثل القاعدة الأساسية التي صبغت الأداء الشعبي بطبائع مزاجية متجانسة - فإنها مع ذلك راحت تشكل هذا الأداء في خطين رئيسيين يبرز كل منهما وضعية خاصة من حيث فنية الأداء وأدواته، ومن حيث العوامل والأسباب التي تهيئ لحدوثه أو تجعله ضرورة ملحة في مناسبة ما دون مناسبة أخرى أو تجعل أدائه منوطاً بأفراد دون أفراد آخرين وهذان الخطان هما: الأداء الغنائي عند المحترفين، والأداء الغنائي عند غير المحترفين.

والمعروف أن الأداء الغنائي يقوم على قاعدة فنية عامة، هي تلك التي توازن بين الشعر والألحان (الموسيقا) توازناً إيقاعياً (عروضياً) وتوازناً نغمياً^(١)، على أن هذه القاعدة لا تبدو - في ظاهرها - على هذا التوازن فيما لو نظرنا إلى مقدار الأولوية التي تعطى لكل من عنصرى الغناء، حيث يبدو أن الشعر يتميز في هذه الناحية حينما يعتمد عليه ممثلاً رئيسياً لخط التواصل المباشر بين المغنى ومستمعيه، وهو الحال الذى يظهر فى الأداء الغنائى الممتد كالغناء القصصى (المواويل القصصية وقصص المدائح والسير) حيث تظهر جلسات الاستماع أن الشعر محور الأداء يلتف حوله الناس لما يقدمه من صور وأفكار وأحداث ومواقف وشخصيات. وإذا كان الشعر فى هذه الأشكال الغنائية له هذه المكانة^(٢)، فهل تنحصر قيمة

(١) يميل الأداء الموسيقى للنصوص الشعرية لأن يكون ذا حدود مشتركة مع الوحدات الشعرية العروضية فى حين أن محيط الألحان وإيقاعها يأخذان فى الاعتبار محيط تلغيم النصوص الشعرية وإيقاعها الموضوع لها، وهى الخاصية التى تتيح للنصوص الأغاني أن تعدل وفق الحاجة وحتى تتلاءم مع أى أوضاع جديدة.

(٢) يركز درايوت رينولدز فى معالجة الأداء عند شعراء السيرة فى الباكاتوش (محافطة كفر الشيخ) على الصيغ الشعرية بمستوياتها المختلفة ويجعلها مدخلاً لدراسة آلية الأداء، وهى نظرة نتجها نحو تفسير علاقات بنائية فى عملية الأداء، وهذه النظرة بطبيعتها تلك لا تقدم تفسيراً لمفهوم عملية الأداء الغنائي عند المتلقي خاصة.

٢. «الأغنية الشعبية»

ارتبط ذبوع مصطلح «الأغنية الشعبية»^(١) (منذ أواخر الستينيات) بدراسة الشعر الشعبى الذى يؤدى بالألحان دراسة أدبية، على أن ثمة آراء ظلت تنتقد استخدام هذا المصطلح فى إطار الدراسات الأدبية، وراحت حدة هذه الآراء تتزايد مع كثرة الاختلافات حول دلالة المصطلح ومقصده (خاصة فى دائرة الباحثين المعنيين بما يسمى بالنظم الجديدة فى عمل التصنيفات والكشافات والمكانز المبرمجة بالحاسب الآلى وما نحو ذلك، ومن ثم أثيرت تساؤلات من نوع: هل هذا المصطلح خاص بالأدب أم بالموسيقا؟ ونتيجة لهذا نحاول فى هذا السياق معالجة الأمر وفق التعريف الموسيقى وهى الناحية التى تعنينا فى هذا المقام. فمصطلح «الأغنية الشعبية» يدل على شكل معين من الأشكال الغنائية الذى يجنح غالباً تجاه شكل الطقطوقة أو الأغنية ذات المذهب والكورليها (شعراً ولحناً) وأن صيغة المصطلح -على هذا النحو- تحدد صنف المعالجة أو التناول، وهى المعالجة أو التناول الموسيقى وليس الأدبى.

أما الصيغة الاصطلاحية البديلة التى تتناسب -فى رأينا- مع المعالجة الأدبية فهى: «الأشكال الشعرية الغنائية»، وثمة مثال متداول دائماً ما نقىس عليه وهو: «القصص الغنائى، والغناء القصصى» فالصيغة الأولى تتوافق مع المعالجة الأدبية، بينما تتوافق الصيغة الثانية والمعالجة الموسيقية.

٣. مفهوم الأداء الغنائى عند الجمهور

لمعالجة هذا المفهوم نركز على زاوية بعينها هى تلك التى يمكن أن تفسر ما تتطوى عليه نظرة المتلقى لعملية الأداء من الناحية الفنية وهى النظرة التى غالباً ما تظهر لنا فى شكلين، الأول: شكل الاستجابة الآنية عند المتلقى، والثانى: الاصطلاحات والتعابير الضمنية التى تصبغ مفهوم المتلقى لعملية الأداء الغنائى، والتى تظهر مدى وعيه أو إلمامه بالعناصر الفنية وغير الفنية التى تقوم عليها عملية الغناء أو التى ترتبط بها ارتباطاً مباشراً.

(١) ينسب هذا المصطلح إلى جيل النادرين الذين اعتمدوا -فى بداية الأمر- على دراسة الشعر الشعبى -والأدب الشعبى- من خلال المدونات المطبوعة فقط، وربما -لهذا السبب- يصطدم مصطلح الأغنية الشعبية مع معطيات الواقع الذى تقدمه المصادر الميدانية ويصطدم كذلك مع تطور الأفكار فى مجال الدراسات الفولكلورية.

معالجة المفاهيم المتعلقة «بالصينغ الاصطلاحية» وخاصة تلك التي ما تزال تشهد اختلافاً في الرأي (من قبل الباحثين) حول المقصد والدلالة لم يتم حسمه بعد.

١- «الموسيقا الشعبية والغناء»

سوف نلاحظ في بعض قوائم الحصر والترتيب (التصنيف) الواردة في الفصل الثاني، تكرار عبارة «الموسيقا الشعبية والغناء» والمقصود هنا هو التفريق بين المعزوفات الآلية البحتة (أو ما يسمى بالصينغ والقوالب الموسيقية البحتة) من ناحية، والغناء (أو أداء النصوص الشعرية بالألحان) من ناحية أخرى، والحقيقة أن صياغة هذه العبارة على هذا النحو اكتنفها بعض اللبس في المعنى والدلالة ما يزال قائماً مع استمرار استخدام هذه الصيغة الاصطلاحية إلى اليوم. ولعل أول ما يرد من معنى في تركيب هذه الصيغة أنها تفصل بين الغناء والموسيقا وهو أمر لا يتوافق والمفهوم الموسيقي العام الذي يُستخدم فيه مصطلح «الموسيقا» ليدل ليس فقط - على المعزوفات الآلية البحتة، وإنما على كل أشكال الأداء الموسيقي المرتبطة بالنظم الشعرى (سواء صاحب هذا الأداء آلات موسيقية أم لم يصاحبه) وكذلك الأداء الموسيقي المرتبط بمصاحبة الحركة الجسدية (الرقص بأشكاله المختلفة) وسائر فنون العرض.

وفق هذا التفسير تمثل الآلات الموسيقية - من الناحية المادية - (الفيزيائية) فرعاً من فروع هذه الموسيقا فتبرز تقاليد صناعة الآلات وكل ما يرتبط بها من أفكار ومفاهيم وتبرز أيضاً تقاليد التدريب وتكوين مجاميع العزف (الفرق الموسيقية)، وعلى هذا النحو يمكن صياغة هذا التفسير في الشكل التالي:

أ - الموسيقا المصاحبة للنصوص الأدبية المنظومة وغير المنظومة (الغناء بكافة أشكاله).

ب - الموسيقا المصاحبة للرقص بأشكاله المختلفة.

ج - الموسيقا المصاحبة لعروض الفرجة (الأراجوز، والحواة، وأصحاب الألعاب الدهلوانية وما شابه).

د - المعزوفات الآلية البحتة (للإعلان وفي الزفات والدورات والمواكب وما شابه).

الأداء الغنائي في إطار الدور (القيمة) الذي يلعبه الشعر؟

من الجائز الحكم على الغناء غير الشعبي بأن أحد عنصره (شعراً كان أم موسيقياً) يمكن أن يتصدر المكانة الأولى في عملية الغناء دون الآخر، أو أن كلا منهما يتبادل مع الآخر هذه المكانة لأسباب، إن لم تكن فنية، فإنها في كل الحالات تتصل بطبيعة الثقافة الموسيقية المغايرة التي ينتمي إليها هذا الغناء غير الشعبي كما تتصل أيضاً بطبيعة الغرض الفني الخاص الذي ينشئ صيغاً غنائية بعينها قد يبرز فيها أحد العنصرين أويتقدم على الآخر. على أن الأمر مختلف في حالة الغناء الشعبي، فإذا كان الشعر فيه يصور الأحداث والمواقف ويجسد الشخصيات.. الخ، فهذا لا يعنى أن الأداء الغنائي يلعب دوراً ثانوياً، فالغناء لدى المحترفين خاصة لا يتشكل من مجرد تواجد لحن ما مع نص شعري دون أن تكون هناك مراعاة (ملزمة في كثير من الأحيان) لكيفية تواجد هذا اللحن مع ذلك الشعر وفق كل نمط غنائي ووفق الدور الذي يلعبه هذا النمط أو ذاك، بالموال -على سبيل المثال- (وهو شكل شعري في المقام الأول، ويجتذب الناس بما يقدمه من حكم وعبر وصور لمواقف مختلفة من الحياة) -يأتى أحياناً في صيغ قصيرة ويعدد قليل من الشطرات، وفي حالة الأداء الغنائي يسترسل المغنى ويظهر مهارات في الأداء الموسيقي تأثير وتشجى، ويطول الأداء ليصل في زمنه أضعاف الزمن الذي يستغرق في حالة إذا اكتفى بسرد هذه الشطرات الشعرية (القصيرة) أى أدائها بدون ألحان (الأداء بطريقة العد). وفي الغناء القصصى والسيرة، تكثر الشطرات الشعرية وتكثر مع مقاطعها الصور والأحداث والمواقف المختلفة، لكن الألحان التي تصاحبها تبدو قليلة وقصيرة، تتكرر وتمتد في سعى لاستيعاب هذا الشعر الغزير المتلاحق. وعلى الرغم من أن الجانب الموسيقي في المثال الأول (الموال) كان واضحاً في احتوائه عنصر الزمن الذي استغرقه الأداء الغنائي وكان بارزاً ومتقدماً؛ فإنه ليس زعماً صحيحاً القول بأن الموسيقي كانت أكثر أهمية من النص الشعري، وليس صحيحاً القول بأن الموسيقي أقل أهمية من الشعر لأنها توارت وراء شطراته الكثيرة كما في المثال الثاني (الغناء القصصى). إن الكثرة والقلة التي يتواجد عليها أى من العنصرين (الشعر أو الموسيقي) ليست دليلاً على أن هناك أهمية «فنية» خاصة متممة تعطى -من قبل المؤدى وجمهوره- لعنصر دون عنصر آخر في الأداء الغنائي، وينطبق الحال نفسه إذا تصدر أى من العنصرين الأداء وتوارى خلفه العنصر الآخر، فمهما كانت المساحة التي

يشغلها أى من العنصرين فى الأداء، وكذلك مهما كانت القيمة الفنية التى يأتیان بها أو عليها فى الأداء، فإن لكل منهما دوراً أساسياً فى رسم مسار الغناء وفى تحديد الشكل من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن هذه العلاقة -ولأنها تصاغ بآلية معينة- كفيلة بوضع كل نمط غنائى على مرتبة الدور الذى يتعين عليه أن يلعبه.

ومع تحديد علاقة الشعر بالأداء الغنائى من هذه الزوايا وعلى هذا النحو يبقى أن للأداء الغنائى هدف مقصود وهو: وضع المتلقى على حالة مزاجية معينة، وهى الخاصية التى تسمح للأداء الغنائى أن يتخذ أشكالاً وأساليباً متعددة تتناسب وكافة المناسبات والأحداث الاجتماعية، المبهج منها والحزين، والجاد والهزل.

ومع تمتع الأداء الغنائى بالقدره على صياغة المزاج الموسيقى السائد واستحضاره وقت الحاجة بأشكال وأساليب أداء مختلفة؛ فإن المتعة الفنية عامل مهم ومميز فى صياغة هذا المزاج الموسيقى، حتى فى أشكال الأداء التى تبدو فى ظاهرها أنها لا تنطوى على هذه الميزة^(١). على أن ردود الفعل عند المتلقى لا تظهر بوضوح ما يمكن اعتباره استجابة خاصة للناحية الموسيقية أو ما يبدو أنه متعة فنية حققها هذا الأداء الغنائى، أكثر مما تظهر أنه انفعال مباشر مع الصور التى يقدمها الشعر لحظة الأداء، وهى الملاحظة التى طالما أوحى بالتفسير غير الدقيق نفسه الذى يتعارض مع طبيعة العلاقة التى تربط بين عنصرى الأداء الغنائى. صحيح أن الشعر هنا هو المحتوى الظاهر فى الأداء الموسيقى لكن يبقى مع ذلك أن المتلقى وهو يتجاوز تقنية الأداء الموسيقى وهى تحول لغة الكلام الشعرى إلى جرس صوتى متعدد النبرات، له مدات ووقفات وسرعات وتمهلات إلى آخره، لا يكون فى مبادئ عن تأثير هذه العمليات الموسيقية التى يأتى عليها الشعر. ولا بد أن يقدر هذا التأثير لا

(١) هناك تقاليد تربط بين الشعر والأداء الموسيقى من أجل تأدية وظائف مباشرة ومحددة وتأتى فى ذلك: الأغانى التى تؤدى لتفوييم الأطفال وأثناء العمل وفى الزار والذكر وفى المآتم. لكنها جميعاً لا تخلو تماماً من الميزة التى تثير المتعة الفنية ولو بدرجات متفاوتة. وقد تكتسبت هذه الملاحظة مزيداً من الوضوح إذا نظرنا إليها فى إطار الفكرة العامة التى تعنى: أن من طبيعة الأداء الموسيقى أن يضفى روحاً على الأصوات التى تنظم فى إطار علاقات نغمية محددة، حيث يرتفع التعبير (بانظام هذه النغمات) إلى مستوى لا يمكن بلوغه إلا فى نطاق متعة فنية (ارنست فيشر/ ضرورة الفن/ ترجمة أسعد حليم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٦، ص٢٣٨).

سيما وأنه يتجه عادة ناحية الإمتاع الفني (الموسيقى). لكن هذا التقدير لا يأتي برد فعل واضح ومباشر يشير إلى هذه الناحية على وجه الخصوص لأن مظاهر الشعور بهذه المتعة الفنية تتوارى عادة وراء ردود أفعال عامة تبدو في ظاهرها أنها بفعل التواصل مع الشعر دون بقية العناصر الأخرى التي يقوم عليها الأداء الغنائي، وهي ردود الأفعال التقليدية التي لا تقف بطبيعتها عند حركة أو تصرف إبداعى معين في الأداء الموسيقى، وهي سمة المستمع التقليدى الذى يتجاوب ويستوعب ويتأثر بحركة النغمات وبأساليب الأداء الغنائي، لكنه لا يمتلك القدرة على تفسير جزئيات الأداء الغنائي أو تعيين مواطن الإثارة والإبداع فيه.

أما الأداء الغنائي لدى غير المحترفين فإنه - وإن كان يخضع فى عموميه لهذه المواضع الثقافية - فإن بعض أشكاله لا تعطى النص الشعري الأهمية نفسها التي تعارف عليها فى الغناء لدى المحترفين، ذلك أن الشئوية والغنيوة عند البدو وكذلك اللقطة أو القلقة فى واحات مصر تتحول فيها كلمات النص إلى مجرد صوت يحمل نبرات الألفاظ، ولكنها ألفاظ مدغمة، تارة وممدودة تارة أخرى وتجرى فى سياق الأداء الغنائي، ويبقى أن التمسك بأداء هذه الأشكال يبدو وكأنه تعامل مع النص الشعري (الكلمات) فى إطار المعنى العام للنص الذى يبدو أيضاً أنه توارث على هذا النحو، ويزداد التمسك بأداء هذه الأشكال لأنها لا بذيل عنها فى تمثيل الجانب الصوتي (الموسيقى) للموقف أو الحدث الاجتماعي، ويبدو أن التقاليد التي أبقت على هذه الأشكال مرتبطة بمناسباتها، أنشأت مبدأ يمكن معه معالجة النواقص والفراغات التي تعترى الكثير من منظومات الأغاني إما بفعل تقادم النصوص وإما بفعل ضعف الذاكرة الذي غالباً ما يؤدي إلى تكسر النص، ولذلك قد يصادف وجود مقاطع أو ألفاظ لا دلالة لها فى النص وذلك لمجرد الحفاظ على سلامة الوزن، ويأتى هذا كله دون الإخلال بالدور الأساسى الذى يلعبه الغناء فى مناسباته الطبيعية ودون الإخلال أيضاً بطبيعة الحالة المزاجية التي تنشأ عن الأداء أو المشاركة فيه.

وإذا استقام تفسير مفهوم الأداء الغنائي على هذا النحو أمكن الوقوف على الأسباب التي باعدت بين الأفراد وإمكانية استخدامهم التعبيرات والمصطلحات التي تشير إلى الناحية الموسيقية، أو التي تشير إلى عناصر أو عمليات موسيقية فنية بعينها، وهي الأسباب نفسها التي حملتهم على تبني العديد من التعبيرات البديلة ذات الدلالة الضمنية

التي تستوعب في آن واحد الشعر ومضمونه والأداء ومناسبته والمؤدين وصفتهم^(١)، بل وتتجاوز هذه المقومات وتتجاوز البناء الفني نفسه لتستدعي إلى الذهن المكان والزمان وكل الصور والدلالات التي تتصل بعملية الأداء أو تحيط بها^(٢). فعلى سبيل المثال حينما يأتي ذكر لفظ عديد أو تعديد وهو مصطلح شعبي دارج (معناه في اللغة لا يشير إلى شكل شعري بعينه ولا يشير أيضاً إلى ارتباطه بالغناء على نحو صريح)^(٣)، فإنه إشارة إلى المقاطع الشعرية التي تجرى على ألسنة السيدات في مجالس العزاء وهن يرتدين السواد، وقد يلطمن الخدود، وهو في الوقت نفسه إشارة إلى تلك الطريقة في الأداء التي يتحول فيها القول الشعري إلى جرس صوتي حزين النبرات يتداخل مع نحيب النسوة ومع عويلهن، وذلك كله لا يعهده المرء إلا في المآتم وفي أوقات الحزن. وكذلك عندما تتردد عبارة قصة أبو زيد الهلالي سلامة وهي أيضاً صيغة اصطلاحية ضمنية تشير إلى منظومة العناصر التي تتصل بعالم السيرة الهلالية في الثقافة الشعبية، أي السيرة في أحداثها وشخصياتها، وتشير إلى قطف السيرة وأمثالها وأقوالها المأثورة التي تتردد في مجالس الأجداد والآباء وتجري على ألسنة العامة، وإشارة أيضاً إلى الأداء الغنائي ومجالات الاستماع إلى الشعراء والمغنيين.

(١) من هذه التعبيرات: التحنين، التهنين، العديد أو التعديد، الموال، الضمة، الشتيوة، شد اللهجة، الحدو، المديح، النميم/ والمداح والمواري والشاعر وغيرهم. ولا تعرف كلمة غناء وأغنية في الثقافة الشعبية ولكن المعنى الموسيقي العام يعرف الغناء بأنها عملية الأداء الغنائي نفسها، ويعرف الأغنية بأنها شكل غنائي بعينه يأتي في قالب الطقطوقة أو الأغنية التي تأتي على شكل مذهب وكويليات.

(٢) ينطبق هذا التفسير على المفهوم السائد لسائر أنماط الغناء في الثقافة الشعبية (انظر على سبيل المثال موقف النساء من الأغاني التي يرددنها: عبد الحميد حواس النوع الجنسي والنوع القلي الموقف من المرأة في الأغاني الشعبية النسوية، بحث تم إلقائه في ندوة المرأة العربية في مواجهة العصر بالقاهرة في الفترة من ١٧-٢٠ نوفمبر سنة ١٩٩٥: دورية نور الخاصة بالندوة، ص ٢٢).

(٣) عديد من الفعل عدد، وعدد الشيء أحصاه، ويقال عددت النائحة، ذكرت مناقب الميت (المعجم الوسيط/ ص ٦٠٨) ويدخل فيه التذنب، ومنه التذبة (في النحو) أي النداء برا مثل وا معصماه.

الفصل الثاني

حركة الاهتمام بالموسيقى التقليدية في مصر

في تتبع لحركة الاهتمام بالموسيقا التقليدية/ الشعبية في مصر حرصنا بقدر الإمكان على عدم تخطي كافة أشكال الاهتمام بهذه الموسيقا، فضمننا هذا العرض كافة الجهود التي بذلت بدءاً من الاهتمامات التي شهدتها أنشطة الرحالة والمستشرقين منذ أواخر القرن الثامن عشر ثم الجهود التي بذلت فيما بعد في إطار تأسيس حقل الدراسات الموسيقية الشعبية وفق المفاهيم الحديثة، ثم تقديم عرض لحركة الاستلهام والنهل من هذه الموسيقا. وكذلك الجهود التي بذلت في إطار ما يسمى بحماية المآثر الشعبى وصونه أو إعادة بث الحياة في بعض أشكاله وموضوعاته وما نحو ذلك^(١)..

المنحى الأول: جهود المؤرخين والرحالة والمستشرقين:

وفي تتبع لحركة الاهتمام بالموسيقا التقليدية (الشعبية) المصرية نذكر بمرحلة البدايات التي وضعت بذور الاهتمام برصد الموسيقا في هذا البلد والتي جاءت في إطار حركات الرصد العامة التي عنت بتسجيل العادات والتقاليد التي تصور طبائع الناس، من ذلك أن ثمة إشارات عديدة وردت في كتابات الرواد الأوائل الذين عنيوا بهذا الجانب وعلى رأسهم ابن خلدون والأصفهاني وابن القيسراني والقلقشندي وابن إياس والمقرئ وغيرهم. على أننا لا نبغي - في هذا المقام - الاسترسال في ما جاء من تلك الإشارات التاريخية ونكتفي بالبداية بما حددناه سلفاً، أى بالمرحلة التاريخية التي أمدتنا بالأدلة الموثقة وبالتدوينات التي تسهل الوقوف على طبيعة النشاط الموسيقي في مصر، ونقصد بذلك تلك الصورة الشائعة لعملية الرصد والتوثيق التي تمت خلال القرن الثامن عشر وكانت معالمها في مدونات «فيوتو» (أحد علماء الحملة الفرنسية على

(١) يأتي هذا العرض تطويراً لفكرة مقال سبق نشره بمجلة الفنون الشعبية، العدد ٦٤/٦٥ (يوليه - مارس)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٢-٢٠٠٣.

مصر^(١) والذي لجأ فيها إلى تبويب الموسيقى التقليدية (الشعبية) ضمن الموسيقى العامة، ولم يغفل - في مدوناته - وصف الآلات الموسيقية المرتبطة بهذه الموسيقى، كما لم يغفل تدوين العديد من الألحان والتراكيب النغمية بطريقة النوطة الموسيقية.

وفي تتابع لهذا النهج عمد المستشرق الإنجليزي وليام إدوارد لين W. E. Lane عام ١٨٠٦، إلى تقديم وصف دقيق للعديد من الظواهر الاجتماعية التي تتجلى في سياقها أنشطة موسيقية متنوعة، هذا فضلاً عن سيره على نهج سلفه الفرنسيين في تخصيص جانب من كتاباته لوصف الآلات الموسيقية التي كان المصريون يستخدمونها وتقديم صور لها، وقد أضاف إلى ذلك عدداً من المدونات الموسيقية لبعض الألحان على غرار ما اتبعه سلفه الفرنسيون في هذا الصدد^(٢).

والواقع أن جل الجهود التي عنيت برصد أو وصف وتسجيل النشاط الموسيقي في مصر (بما فيه النشاط الدائر في حياة العامة ولدى الموسيقيين الجوالين ومن لف لفهم.. إلخ)، كانت - في بداياتها - تتركز إلى وضعية شائعة في زمانها وهي: رصد ظواهر الحياة عند الشعوب، ولم تكن تلك الوضعية (حتى نهاية القرن الثامن عشر على وجه التقريب) ترمى إلى أبعد من مقتضيات عمليات الوصف والتسجيل وإجراء المقارنات في بعض الحالات، ولم تكن - في ذلك الزمن - تنحوتجاه معالجة أي رصد للموسيقا (أو لغيرها من ظواهر الحياة الاجتماعية) حسب المفاهيم التي ظهرت فيما بعد، وهي المفاهيم التي تأسست (في مجال الموسيقا) بنشوء علم الموسيقا المقارن،

(١) فيوتو: وصف مصر، الأجزاء ٧، ٨، ٩، ترجمة زهير الشايب، نشر مكتبة الخانجي ١٩٨١.

(٢) وليام إدوارد لين: المصريون المحدثون، عاداتهم وشمائلهم، ترجمة عدلي طاهر نور - ط٢ دار النشر للجامعات المصرية، ١٩٧٥.

- (Comparative Musicology - ثم الأنثوموزيكولوجى Ethnomusicology) .

بعد كتابات وإليم لين (عام ١٨٠٦) ظلت مناسط الحياة التقليدية فى مصر تداعب هوى نفر من الأوربيين الذين تحمسوا لرصد العديد من جوانبها، غير أن التركيز على الموسيقى لم يكن - فى ذلك الزمن - يتساوى مع كثرة الاهتمام بالأنشطة الاجتماعية الأخرى. ومع ذلك ظهرت (فى بدايات القرن العشرين) عدة اجتهادات راحت تعنى بوصف الموسيقى الشعبية المصرية وتضع لها التصنيفات وتعالجها بالشرح والتحليل. من هذه الاجتهادات كتابات عالم الآثار الفرنسى جاستون ماسبيرو الذى نشر كتابه (الأغاني الشعبية فى صعيد مصر) عام ١٩١٤ ضم فيه ما يقرب من مائة أغنية من قرى ومدن أسيوط وسوهاج والأقصر وجعلها فى ثلاثة أقسام، أولها: أغاني الزواج والختان، والثانى: فى بكائيات الجنائز، والثالث: فى أغاني العمل والحج، ودون النصوص بالعربية ثم صور نطقها بالأحرف اللاتينية وترجمتها إلى الفرنسية، وأضاف إلى ذلك شرحاً لمفرداتها وتراكيبها^(١).

وفى عام ١٩٣٢ أصدر الطبيب مافرس اليونانى كتاباً بعنوان إضافة إلى دراسة الأغنية المصرية جمع فيه ما يقرب من خمسين أغنية للمناسبات العائلية والمتعلقة بالمعتقدات، وقد قصر جمعة على الأغنيات مجهولة المؤلف الذائعة بالرواية الشفهية، وقد ترجم مافرس نصوص هذه الأغنيات إلى الفرنسية ترجمة دقيقة تظهر معرفته بالحياة الريفية المصرية التى خبرها بوصفه طبيباً كان يتنقل بين القرى^(٢).

بعد ما يقرب من سنتين على دراسة مافرس اليونانى تمخضت هذه الآونة عن إنجازين علميين يعدان أكثر الإنجازات إثارة فى تلك الفترة، أولهما النتائج التى خلصت إليها أعمال لجنة الموسيقى الشعبية (إحدى اللجان المنبثقة عن المؤتمر الأول للموسيقى العربية الذى انعقد فى القاهرة عام ١٩٣٢) وأهم هذه النتائج -والتي سوف نعرض لبعضها بالتفصيل فى سياق هذا الفصل- كان التقرير المفصل الذى تضمن

(١) أحمد رشدي صالح: فنون الأدب الشعبي، منشورات مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، ص ٣٢. (وقد ترجم كتاب ماسبيرو إلى العربية تحت عنوان الأغاني الشعبية فى صعيد مصر إعداد محمود الهندي وأحمد مرسي، نشر مكتبة الأسرة / الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠، وقد وردت الترجمة دون مدونات موسيقية).

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٣.

مجموعة من الأسس المهمة التي تم عن طريقها (وللمرة الأولى في تاريخ التسجيل الصوتي في مصر) تسجيل مجموعة متنوعة من الأشكال الموسيقية الشعبية، ومما يزيد من أهمية هذا التقرير -في رأينا- أنه أكد على اتباع أسلوب خاص في طريقة التعرف على هذه الموسيقى وجمعها متضمناً خطة عمل تفصيلية تركزت على البحث في كل ما يتصل بالنشاط الموسيقي الشعبي في مصر.

أما الإنجاز الثاني فهو ثمرة جهد صامت دؤوب راح يبحث في أغوار مجتمع نائي (في غرب صحراء مصر) ليس فقط في الموسيقى، وإنما في كل ما يتصل بها وفي كل ما من شأنه إضاءة ما خفى في جوانبها المتعددة (من ألحان وتراكيب وإيقاعات وطرق أداء.. الخ) هذا الجهد تمثل فيما قدمته الباحثة الألمانية «بريجيت شيفر» عام ١٩٣٦ (١). ولا تعجب من أن يتحالف النجاح مع جهود هذه الباحثة فمنهاجها ومنطلقاتها النظرية لم تكن في معزل عن التيار العلمي الذي كانت تشهده هذه المرحلة من تاريخ دراسة الموسيقى التقليدية عند الشعوب (غير الأوروبية) فقد كانت شيفر واحدة من تلاميذ أساتذة ساهموا مساهمة أساسية في وضع دعائم علم الوسيقا المقارن (في أدواته ومقوماته الفكرية والإجرائية) وربما لهذه الأسباب يمكن القول إنها تنتمي إلى جيل الرواد في دراسات الموسيقى التقليدية (غير الأوروبية) كما أنها -وبدراستها الموسيقا في

(١) بريجيت شيفر: واحة سيوة وموسيقاها، ترجمة جمال عبد الرحيم، مراجعة وتقديم سمحة الخولي. المشروع القومي للترجمة /المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦ . (عاشت شيفر في مصر منذ عام ١٩٢٣ حتي أوائل الستينات وعينت عميداً لمعهد معلمات الموسيقى "حالياً كلية التربية الموسيقية جامعة حلوان" وقامت في نهاية الخمسينات بالتدريس في معهد الكونسرفتوار بأكاديمية الفنون. وتعد رسالتها "واحة سيوة وموسيقاها" - والتي حصلت بها علي درجة الدكتوراة من جامعة برلين - الأولى من نوعها التي تمثلت منهج ونظريات علم الموسيقى المقارن، كما أنها تعد، في الوقت نفسه، نموذجاً مبكراً للدراسات الأنثوموزيكولوجية لحضارات غير غربية، حيث عالجت - في فصول رسالتها - النشاط الموسيقي في واحة سيوة (بمصر) بكل أبعاد هذا النشاط من مناسبات وأسابيل أداء، كما ناقشت شكل الصيغ الغنائية متوسلة البحث في صميم الموسيقى وخاصة فيما يتصل بالألحان والصلالام وأبعادها والآلات وأشكالها، مع تقديم ترجمات عامة لنصوص الأغاني تيسيراً لمتابعة معانيها وملابسات أدائها، وتضمن الدراسة تقريراً أنثولوجياً يعرض للإطار الاجتماعي والديني للواحة مع التركيز علي المعتقدات والتقاليد والتركييب الاجتماعي والعرفي والديني والأساطير واللغة والعمارة والملابس، وكذلك زودت الدراسة بتدوينات موسيقية جاءت في إطار الدرس والتحليل).

واحة سيوة (وكما تشير الإجراءات التي اتبعتها في الدراسة) أفادت كثيراً من معاصرتها المآخذ والملاحظات النقدية التي كان قد بدأ يتعرض لها علم الموسيقى المقارن في تلك الفترة وذلك رغم أية ملاحظات نقدية قد توجه للطريقة الواقعية التي اتبعتها شيفر في تحقيق الإجراءات العلمية التي استندت إليها.

لكن لماذا حظيت فترة الثلاثينيات ببروز العديد من الإنجازات في مجال الموسيقى الشعبية أو «التقليدية»؟

هناك بلا شك أسباب تقف وراء هذه الظاهرة، ليست ظاهرة الاهتمام بالموسيقى فحسب، وإنما الاهتمام بنواحي أخرى من مظاهر الثقافة التقليدية على مستوى العالم. لكن -وفي كل الأحوال- يأتي التركيز على فترة الثلاثينيات وكأنه أمر حتمي، فهي الفترة التي كانت قد بدأت تشهد تحولاً في المفاهيم الخاصة بدراسة مظاهر الثقافة التقليدية عند الشعوب، حيث بدأت الانتقادات توجه إلى بعض النظريات الأوروبية، مثال ذلك الانتقادات التي وجهت للمدرسة الأنثروبولوجية لتايلور Taylor وأندرو لانج A. Lang وهي الفترة نفسها تقريباً التي شهدت انتقادات للمفاهيم والأفكار التي تأسس عليها علم الموسيقى المقارن وشهدت أيضاً بداية التحول والتخلي عن أساليب المعالجة الموسيقية التي تقوم على المقارنات الأوروبية التقليدية والتي تأسس عليها -فيما بعد- ظهور شكل من أشكال التحول بالعلم تجاه تجنب الأخطاء والنظريات القديمة ومن ثم الاقتراب تدريجياً من مبادئ العلم الجديد «الأنثوموزيكولوجي» الذي كان قد بدأ يرسى مبادئه في ذلك الوقت. ومن وجهة أخرى ربما تأتي إنجازات مؤتمر الموسيقى العربية الأول عام ١٩٣٢ وإنجازات شيفر كمثالين مبكرين في تطبيقات مبادئ هذا العلم الجديد، لا سيما وأن هذين المثالين ارتبطا بأسماء علماء لهم شأنهم في هذا الحقل، وخاصة العلماء الذين ارتبطت أسماؤهم بالجهود التي تمخضت عنها توصيات لجنة الموسيقى الشعبية عام ١٩٣٢. كما كان من بين هؤلاء العلماء من كانت تربطهم صلة الأستاذية بالباحثة شيفر (*) وهو الأمر الذي انعكس بلا شك على جهودها في مجال

(*) راجع ما جاء في الفصل الثالث من دراسة شيفر (واحة سيوة وموسيقاها) وكذلك ص ٤٩، ٥٠ من الدراسة نفسها للوقوف على ما جاء ذكره عن تأثير شيفر العلمي بكل من إريش فون هورينوستل E. Von Hornbostel وكورت زاكس Curt Sachs وكذلك صلاتها العلمية بكل من بيلا بارتوك Bartok Bela وهندمت Hendmet وهانس هيكمان H. Hickmann.

البحث في موضوع من موضوعات الموسيقى التقليدية (في واحة سيوة) . وإذا ما أوصلنا هذه الخيوط ببعضها البعض، وضحت أهمية النظر بعين الاعتبار لما قامت به لجنة الفنون الشعبية عام ١٩٣٢ كشكل من أشكال التخطيط، وكذلك النظر بعين الاعتبار للدراسة التي أعدتها شيفر في واحة سيوة كشكل من أشكال التطبيق، ووضح -في الوقت نفسه- جانباً من الإنجاز الذي يضع فترة الثلاثينات موضعاً خاصاً.

وفي كل الأحوال تأتي إنجازات المؤتمر الأول للموسيقا العربية عام ١٩٣٢ (وما حققته من جهد في مجال التسجيل الصوتي لموضوعات من الموسيقا الشعبية المصرية والعربية^(١)) تأتي ممثلاً متميزاً لحركة الاهتمام بهذه الموسيقا ونقله جوهرياً من مرحلة الركود والاجتهادات الفردية القليلة إلى مرحلة الاهتمام القومي بالمأثور الموسيقي الشعبي، حيث وضعت ولأول مرة في مصر رؤية منهجية لحصر وجمع كل مادة هذا المأثور وفق خطة تبحث في كل موضوعاته وفي كل البيانات وتشمل هذه الخطة^(٢).

أ - إن البحث عن الموسيقا الشعبية لا يقتصر على الأرياف وبين القبائل فقط، وإنما يفضل البحث عنها في الطبقات السفلى للمدن.

ب - التنبيه إلى أهمية الضروب والتراكيب الإيقاعية المستخدمة في هذه الموسيقا.

ج - التركيز على العلاقة التي يجب أن تراعى بين الجامع والمؤدى وطريقة التسجيل، وفيما يتعلق بالمادة نفسها؛ يسجل مختلف أنواع الموسيقا التي يصادفها الجامع، ويفضل تسجيل كل شيء وتدوينه.

د - أهمية تدوين كشف (قائمة) بأنواع الأغاني على أن يسمح هذا الكشف بتوجيه من يغني إلى مختلف الأنواع. وقد زود هذا الكشف المذكور ملحفاً بالتقرير متضمناً البيانات التالية:

١ - أغاني العمل

الزراعة: البذور والحراث وغير ذلك.

١ - كتاب: مؤتمر الموسيقا العربية، المملكة المصرية، مرجع سابق، من ص ٥٢ : ٦٣.

٢ - يلاحظ أن الأسلوب المطروح في طريقة التعرف علي هذه المادة هو الأسلوب نفسه الذي اعتمدت عليه بريجيت شيفر في عملها في واحة سيوة (راجع الفصل الثالث من دراستها المشار إليها سلفاً).

- أغاني الطرق: الحفر ورفع الأثقال وأعمال الصناعات والأغاني المسجوعة
وأغاني السرور بعد انقضاء العمل.
- ٢ - أغاني الحب.
- ٣ - أغاني الرقص.
- ٤ - أغاني الحرب.
- ٥ - أغاني الصيد.
- ٦ - أغاني السير: مرشدو القوافل والسير البطيء والسريع والجمالون والجمالون وغيرهم.
- ٧ - أغاني الحركة فوق الماء: المجدفون والملاحون.
- ٨ - أغاني أرجوحات الأطفال.
- ٩ - أغاني ألعاب الأطفال.
- ١٠ - نواح الجنائز: الشكوى ساعة الموت وترنيم الجنائز وأناشيد ذكرى الموتى.
- ١١ - الأغاني الشافية من الأمراض والطاردة للشياطين.
- ١٢ - أغاني السحرة وأغاني الاستسقاء.
- ١٣ - الأغاني الدينية: الحفلات الدينية والآذان وتلاوة الكتب المقدسة وأغاني التضحية وغير ذلك (وفي هذه الطوائف الأخيرة، من رقم عشرة إلى ثلاثة عشرة، إذا أُريد تجنب الفضل التام الذي يمكن أن يعوق الاستمرار في العمل، يحسن ألا يشرع فيها إلا بعد الانتهاء من جمع الأنواع الأخرى، ويجب ألا تطلب إلا بعد ثقة واطمئنان).
- ١٤ - أغاني الحنين إلى الأوطان: التأسف على الوطن.
- ١٥ - الأغاني الملكية: الملك والرئيس، الحفلات الخاصة بهما (عند الخروج والتشريفات وغير ذلك).
- ١٦ - الأغاني التي تمثل واقعة تاريخية.
- ١٧ - أغاني المضحكين (وفي هذا يجب أن يتحقق من حزف الأجزاء المخلة بالآداب)^(١).

(١) كذا.

- ١٨ - أغاني التجار.
 ١٩ - أغاني الشحاذين.
 ٢٠ - أغاني القمر التي تؤدي ليلة تمه.
 ٢١ - أغاني الختان.
 ٢٢ - نداءات الرعاة والجبلين ومحاكاة الأصوات وصياح الصيد وصياح الطرق^(١).

...، ويجب على جامع المادة الحصول على الأغاني ممثلة لممارسة الإنسان لشئون الحياة من المهد إلى اللحد: ميلاد وطفولة وختان وواجبات دينية وسياحية وعمل وصيد وحرب وزواج وولادة وأمراض وجنائز، لأن هذه الحوادث تهئ المناسبة لأداء مختلف الأغاني^(٢).

وإذا كان مؤتمر الموسيقى العربية (عام ١٩٣٢) لفت الانتباه - من خلال إحدى لجانه - إلى العناية بالموسيقا الشعبية، فإن هذه الموسيقا لم تحظ بالقدر نفسه من العناية في المؤتمر الثاني للموسيقا العربية الذي انعقد بالقاهرة أيضاً عام ١٩٦٩، فعلى الرغم مما ذكر عن أن اللجنة التحضيرية للمؤتمر عيّنت بالناحية الشعبية عناية خاصة، وكونت ما يعرف بلجنة التاريخ والتراث والفنون الشعبية، فإن نتائج هذا المؤتمر لم تسفر إلا عن توصيات تدعو إلى أهمية دراسة الموسيقا الشعبية وتقسيمها على ضوء الطوائف والمجموعات الاجتماعية التي تمارسها، وتضمنت هذه التوصيات تحديد أفضل سجلات ووسائل تصنيف الموسيقا الشعبية، وانتهت إلى ضرورة اتباع أسلوبين في التصنيف هما:

- ١ - التصنيف الجغرافي، أي تبعاً للمناطق التي جمعت منها المادة.
- ٢ - التصنيف الموضوعي، أي على أساس الموضوعات التي تشملها هذه الموسيقا كأغاني العمل وأغاني الزواج وأغاني الحج.. الخ

(١) قام الكاتب بتقديم عرض واف وتحليل لما جاء في هذه القائمة (انظر للكاتب: الجزء السادس من دليل العمل الميداني لجامعي التراث الشعبي، الدراسة العلمية للموسيقا الشعبية. دار المعرفة الجامعية / الإسكندرية ١٩٩٧ - ص ٣٦).

(٢) كتاب: مؤتمر الموسيقى العربية، مرجع سابق، ص ٦٥.

المنحى الثانى: عمليات الجمع الميدانى والأرشفة.

مركز دراسات الفنون الشعبية:

قبل بداية النصف الثانى من القرن العشرين لم يكن - فى مصر - مؤسسة أو هيئة تعنى بعمليات الجمع الميدانى المنظم لمادة الموسيقى الشعبية أو لجمع أية مادة شعبية وفق مفهوم فولكلورى^(١). ولم تتحقق هذه العناية على مستوى قومى إلا بعد إنشاء مركز دراسات الفنون الشعبية فى أواخر عام ١٩٥٧. والمركز هو المؤسسة المصرية الوحيدة التى استهدف تأسيسها الاضطلاع بمهمة جمع وتصنيف وأرشفة مادة المآثورات الشعبية المصرية (الفولكلور) فى كل فروعها واثاحتها للباحثين وللفنانين المستلهمين.

يتكون مركز دراسات الفنون الشعبية (بالقاهرة) من عدة أقسام هى قسم الأدب الشعبى، والعادات والتقاليد والمعتقدات والمعارف الشعبية والثقافة المادية والفنون التشكيلية والرقص والموسيقا. وبالمركز متحف يضم العديد من المقتنيات المادية (ملابس ومصاغ ومنسوجات وأدوات زينة وآلات وأدوات موسيقية) فضلاً عن وجود مكتبة (أرشيف) صوتية تضم كمأ هائلاً من التسجيلات الصوتية التى تم جمعها من بيئاتها الأصلية.

وتحتوى هذه التسجيلات الصوتية على مادة تمثل كل فروع الثقافة الشعبية (الموسيقا والحكايات والسير والشعر والأقوال المأثورة بالإضافة إلى التسجيلات التى تخص البيانات والمعلومات التوثيقية لشتى موضوعات الفولكلور) كما يشتمل المركز -بجانب ذلك- على أرشيف للصور الفوتوغرافية وعدد من الأفلام السينمائية التسجيلية، بالإضافة إلى المادة المسجلة على شرائط الفيديو كاسيت لموضوعات

(١) تحتفظ الجمعية الجغرافية (فى متحفها) بكمية من الأزياء والمنسوجات والحلي وبعض المقتنيات الأخرى التى جمعت من بعض أقاليم مصر، وهذه المواد مصنفة وفق أهداف وفلسفة الجمعية، وقد جمعت بواسطة بعض الجغرافيين من المهتمين وبعض هذه المواد مهدى إلى الجمعية من قبل هؤلاء الجغرافيين. وبجانب ذلك توجد مجموعة أخرى من المقتنيات الشعبية محفوظة ومعروضة فى متحف وزارة الزراعة وأغلب هذه المقتنيات مصنفة على نحو يخدم طبيعة اهتمام وأهداف وزارة الزراعة ومن ثم فأغلب المقتنيات المجموعة وكذلك المصنوعة، تعرض فى إطار فلسفة الوزارة فى إبراز المواد التى تمثل نمط الحياة الزراعية فى مختلف أقاليم مصر.

فولكلورية مختلفة تتضمن جانباً من المأثور الموسيقى بأشكاله الغنائية والمعزوفات الآلية. وبجانب ذلك يشتمل المركز على مكتبة متخصصة تضم العديد من الكتب والدوريات والرسائل العلمية التي تتصل اتصالاً مباشراً بالعلم ونظرياته، بالإضافة إلى المصادر من المطبوعات والبحوث التي تعالج العلم ومادته في الموضوعات المختلفة. ومن خلال حصر المادة الأرشيفية والمتحفية المحفوظة بالمركز؛ لوحظ أن نصيب المادة الموسيقية يحظى بتميز واضح لاسيما من حيث الكم (بالقياس إلى مجمل المادة الصوتية المحفوظة بالأرشفيف)^(١)، ومما يجدر الإشارة إليه، أن كمّاً كبيراً من المادة الموسيقية (التي تم جمعها عن طريق بعثات عمل ميداني إلى مختلف أقاليم مصر منذ أوائل الستينات) بات بعضها يمثل وثيقة صوتية نادرة، وهي -في الوقت نفسه- شاهد على ما حدث من تغير سواء في الأشكال الموسيقية أو في الآلات والأدوات.

يضاف إلى ذلك أن متحف المركز يضم ضمن مقتنياته العديد من الآلات والأدوات الموسيقية التي تم اقتناؤها من العازفين والمؤددين الشعبيين، ففي المركز توجد مجموعة كاملة لآلات النفخ الموسيقية (المزمار بأحجامه المختلفة وآلات النفخ المصنوعة من قصب الغاب السلامية والأرغول وفصيلته) كما يضم مجموعة من آلات النقر والتوقيع بأنواعها وأحجامها المختلفة (الطبول والدفوف والصنوج). كما يضم المجموعة الكاملة للآلات الوترية الشعبية (مجموعة من آلة الربابة، ومجموعة من آلة الطنبورة والسسمية)، وكلها ما تزال إلى اليوم محفوظة (ومخزنة) بالمركز

(١) ترجح كثرة المادة الموسيقية المحفوظة بأرشفيف المركز (إذا ما قيس ذلك بمجمل المادة الصوتية الفولكلورية المحفوظة بالمركز) إلى سببين، أولهما: أن النشاط الموسيقي الشعبي -في مواطنه الأصلية- ظاهرة تتخلل الكثير من مناشط الحياة التقليدية، وهو نشاط بارز يعلن دائماً عن وجوده، ومن ثم يجتذب الجامعين الميدانيين ويمكن جمعه عن طريق التسجيل الصوتي، دون بذل الجهد نفسه الذي يقتضيه جمع الظواهر الفولكلورية الأخرى كالمعتقدات مثلاً، أو جمع المعلومات والبيانات التوثيقية التي تتصل بموضوع ما في الفولكلور، ويسري هذا أيضاً على المعلومات الخاصة بتوثيق الموسيقى نفسها، وهو أمر كان يواجه -في بداياته- بعقبات أبرزها أن الخبرة بالعمل الميداني كانت ما تزال في بدايتها فضلاً عن عدم اعتياد الناس -في ذلك الوقت- على الإدلاء بالمعلومات أو الأحاديث مقارنة بدرجة اعتيادهم -وقتها- على إمكانية الغناء والموافقة على تسجيله. ثانيهما: أن جامعي الأدب الشعبي ينظرون إلى النشاط الموسيقي (وخاصة الجانب الغنائي منه) على أنه مصدر مباشر لأنواع الشعر ولكثير من موضوعات الأدب القصصي الغنائي والسير، بكل ما تتضمنه هذه الأنواع والأجناس من قيم ودلالات.

على نحو لا يتوافر لها فيه الحد الأدنى من أساليب الصون والحفظ الصحيحة شأنها في ذلك شأن سائر المقتنيات المتحفية والأرشيفية المحفوظة بالمركز والتي تم جمعها واقتناؤها خلال الخمسين عاماً الماضية^(١).

مشروع أطلس الفولكلور المصري

منذ ما يزيد عن عشر سنوات تبنت الهيئة العامة لقصور الثقافة مشروع أطلس الفولكلور المصري، وبدأ العمل به مع مطلع التسعينات، وهو المشروع الذي يعنى بجمع كل عناصر الثقافة الشعبية (في كل فروعها) وتمثيلها على خرائط خاصة توضح مناطق وجودها ومدى انتشارها في أقاليم مصر مع تقديم البيانات والمعلومات المساعدة التي تلقى بالضوء على وضعية هذه العناصر في الثقافة الشعبية المصرية^(٢). ويستخدم مشروع أطلس عدداً من الجامعيين الميدانيين (من موظفي الهيئة) والذين تم تأهيلهم بحصولهم على إتمام مرحلة دبلوم الدراسات العليا بالمعهد العالي للفنون الشعبية بالقاهرة، وهم منتشرون في كثير من المواقع التي تغطي العديد من أقاليم مصر. ويضطلع هؤلاء الجامعيين بمهمة جمع المادة الفولكلورية عن طريق التسجيل الصوتي والتصوير بمختلف وسائله فضلاً عن اعتمادهم على بطاقات خاصة لتسجيل وتدوين

(١) يطمئن الباحث لصحة هذه البيانات بحكم صلته الوثيقة بمركز دراسات الفنون الشعبية، فقد كان واحداً من العاملين فيه من عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٨٣ - وما يزال (بحكم عمله بالمعهد العالي للفنون الشعبية) على صلة دائمة بمجريات العمل بالمركز.

(٢) تمخض مشروع أطلس الفولكلور المصري عن عدة أفكار يعود بعضها إلي منتصف الثلاثينات من القرن العشرين، من بينها الأفكار التي طرحها فينكلر Winkler عن مشروع الأطلس والتي قدم لها أمثلة بالخرائط تؤكد إمكانية تطبيق المشروع في مصر. ومما كان يعزز من ذلك أن أفكاراً أخرى كانت شائعة حول عمل أطلس لعدة موضوعات منها علي سبيل المثال أطلس اللغة العربية. وعلي كل الأحوال فإن فكرة أطلس الفولكلور المصري قد تبلورت فيما بعد وفق إمكانات تحقيقها في أواخر الستينات علي يدي محمد الجوهري وعبد الحميد حواس وعلياء شكري إبان إعدادهم دليل عادات دورة الحياة (الدراسة العلمية للمعتقدات والمعارف الشعبية، القسم الأول من عادات دورة الحياة. مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٩). وقد أسفرت تلك الفكرة عن إعداد محمد الجوهري مشروعاً ذو ثلاث شعب، الأولي: تهدف إلي استكمال سلسلة الدليل، والثانية: عمل ببلوجرافيا للفولكلور، والثالثة: عمل خطة عامة لأطلس الفولكلور المصري، وقدم هذا المشروع إلي المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ونشر بالمجلة الاجتماعية القومية/ المجلد العاشر، العدد الثالث، عام ١٩٧٢.

البيانات والمعلومات المتصلة بتوثيق المادة المجموعة. ونتيجة لجهود هؤلاء الجامعيين أصبح أرشيف المشروع يضم اليوم كما كبيراً من التسجيلات الصوتية والمرئية للعديد من الظواهر الفولكلورية التي أدرجت ضمن خطة الجمع في هذا المشروع. وفيما يتعلق بالجهد المبذول في جمع مادة الموسيقى الشعبية؛ فقد خصص المشروع مرحلة من الجمع انصببت على العناية بجمع آلات وأدوات الموسيقى الشعبية من مختلف أقاليم مصر، قد أعد لهذه المهمة دليلاً خاصاً، وجارى العمل في فحص هذه المادة الصوتية وفحص بياناتها من المدونات التوثيقية ومن ثم إعداد الكتاب الخاص بها.

المنحى الثالث: تصنيف الموسيقى الشعبية:

من الضروري -عند ذكر الجهود التي تمت في إطار تصنيف الموسيقى الشعبية المصرية- أن نشير إلى قائمة لجنة الموسيقى الشعبية (إحدى لجان المؤتمر الأول للموسيقى العربية ١٩٣٢) وهذه القائمة، تعد أول محاولة تقدم تصوراً لما يمكن أن يكون موجوداً في مصر من موضوعات موسيقية مختلفة، وهي لذلك كانت أداة إرشادية للجامع وليست تصنيفاً أو حصراً لمادة قد تم جمعها بالفعل، ومن ثم فإن الباحث سوف يتجاوز هذه القائمة ليعرض للجهود الأخرى التي تمت خصيصاً في محاولة مقصودة لحصرو وتصنيف موضوعات الموسيقى الشعبية المصرية، وسوف يتناول هذه الجهود وفق الترتيب التالي:

١- محاولة تبيرو الكسندرو

في إطار تصنيف وترتيب موضوعات الموسيقى الشعبية المصرية وتحديد أشكالها بالنسبة إلى بعضها البعض، نعرض لمحاولة تبيرو الكسندرو واميل عازر وهبة، وهي المحاولة التي تمثلت في عمل أسطوانة الموسيقى الشعبية المصرية التي أصدرتها وزارة الثقافة عام ١٩٦٧.

في هذه الأسطوانة وردت الأنواع الموسيقية مقسمة ومرتبطة حسب معايير خاصة سنعرض لها بعد قليل. لكن إذا كنا ننظر إلى عملية الحصر والترتيب والتصنيف

-التي مثلتها الأسطوانة وكذلك الكراسية المرفقة بها- على أنها مستوى أكثر دقة بالقياس إلى المحاولة المماثلة التي شملها تقرير لجنة الموسيقى الشعبية عام ١٩٣٢؛ فذلك لأن هناك عدة اعتبارات من بينها: أن الاهتمام بعناصر الثقافة الشعبية المصرية تضاعف بصورة ملحوظة بسبب تطور الدراسات والمفاهيم العلمية الفولكلورية، فضلاً عن تطور الأساليب والتقنيات التي كان لها أثراً واضحاً في تيسير عمليات جمع المادة الفولكلورية وتسجيلها من مؤديها عام ١٩٦٧ وكذا تسجيل المعلومات واستيفاء البيانات التي تخص كل نوع موسيقى وتميزه .
أما ترتيب المجموعة الموسيقية المختارة (كما وردت في كل من الأسطوانة والكراسية المرفقة بها ،التقرير، فقد جاءت على النحو التالي: (١)

أ: أغاني العمل:

الجزء الأول

١- أغنية حذاء الإبل

الجزء الثاني

٢- ملالية (أغنية للصيادين أثناء جذب الشباك)

٣- أغنية جمع القطن

الجزء الثالث

ب: المآتم:

٤- العديد

٥- المناحة (الرقص الجنائزى)

(١) أرفقت بالأسطوانة كراسة خاصة (تقرير) اشتملت على التعريف بالمادة وبالأسباب التي دعت إلى اختيارها، كما اشتملت على توضيح لطريقة الجمع والتسجيل بالإضافة إلى تزويدها بخريطة لمصر عين عليها مناطق الجمع والتسجيل، كما زودت الكراسة بالصور الفوتوغرافية للرواة وهم يعزفون ويرقصون بالإضافة إلى التعريف بنوع الفقرة التي سجلت واسم المغني وانتمائه الاجتماعي.. إلخ. كما تضمنت الكراسة دراسة توضح طرق الأداء الموسيقي وأهم خصائص الأنواع المسجلة من الناحية الإيقاعية والمقامية بالإضافة إلى ذكر المناسبات التي تؤدي خلالها هذه الأنواع وما ترتبط به من طقوس ودلالات اعتقادية (انظر الكراسة المرفقة بأسطوانة الموسيقى الشعبية المصرية، وزارة الثقافة، ١٩٦٧، من ص ٢٣) .

الجزء الرابع

٦- السبوع

٧- تهنين الأطفال

٨- أغاني المناسبات

٩- أغاني العيد

الجزء الخامس

١٠- أغاني الحناء

١١- أغاني الشبكة

الجزء السادس

١٢- أغاني من النوبة

الجزء السابع

١٣- أغاني الدخلة

الجزء الثامن

١٤- أغاني الصباحية

ج: أغاني الملاحم:

١٥- أبو زيد الهلالي

١٦- حسن ونعيمة

د: أغاني حرة الإيقاع:

١٧: نميم

١٨- أغنية

١٩- موال

هـ: أغاني ذات إيقاع مقيد:

٢٠- مربوع

٢١- لهجة

٢٢- طق

٢٣- صحبة

٢٤- أغاني البربر

- و: أغاني الرقص
 ٢٥- كف عرب
 ٢٦- رقصة الصفق
 ٢٧- حجة بلدى
 ٢٨- رقصة نوبية
 ز: رقصات:
 ٢٩- رقص
 ٣٠- تلتية
 ٣١- رقص الخيل
 ٣٢- رقص التحطيب
 ٣٣- رقص الغوازي
 ٣٤- إيقاع للطورة
 ج: الخاتمة:
 ٣٥- قطعة موسيقية آلية^(١)

٢- محاولة عبد الحميد حواس

فى محاولة شاملة لحصر وتصنيف موضوعات المأثورات الشعبية المصرية وضع حواس شكلين من التصنيف، ورد أحدهما فى دراسة بعنوان محاولة لتصنيف فنوننا الشعبية^(٢)، وجاء على النحو التالى:

... (أ) الموسيقى:

(١) الموسيقى المصاحبة:

أ- للأغاني:

١- أغاني الميلاد

(١) قدم الكاتب تطبيقاً ناقش فيه هذه القائمة، وجاء هذا فى الجزء السادس من دليل العمل الميدانى لجامعى التراث الشعبى، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٢) عبد الحميد حواس: محاولة لتصنيف فنوننا الشعبية، مجلة الفنون الشعبية، العدد الرابع، السنة الأولى، وزارة الثقافة، يوليو ١٩٦٧، ص ٤٦.

٢- أغاني العمل

٣- أغاني الغزل

٤- أغاني الأفراح

٥- أغاني الحجيح

ب) للرقص

ج) للنداءات والابتهالات والمدائح

د) للإنشاد والسير

٢) موسيقا بحثة

٣) الآلات الموسيقية:

أ) آلات النفخ

ب) الآلات الوترية

ج) الآلات الإيقاعية

أما الشكل الثاني لهذا التصنيف، فقد ورد في دراسة مماثلة بعنوان محاولة

لترتيب المادة الفولكلورية^(١)، وهذه الدراسة غير منشورة، وقد وردت بها الموسيقا على النحو التالي:

... أ- الموسيقا:

١- موسيقا بحثة خالصة

٢- موسيقا للأغاني بأنواعها

٣- موسيقا مصاحبة للرقص بأنواعه

٤- موسيقا مصاحبة للنداءات والصيحات والرقى .. إلخ

٥- موسيقا مصاحبة للإنشاد والرواية

(دور النص في الأغنية، العلاقات المتبادلة بين النص واللحن)

ب- الآلات الموسيقية

١- آلات النفخ الهوائية

٢- آلات النبر وجر القوس (وترية)

(١) عبد الحميد حوَّاس: محاولة في ترتيب المادة الفولكلورية - مركز دراسات الفنون الشعبية مخطوط غير منشور (د.ت) ص ٢٣.

- ٣- آلات قرع (طرق ونبر، صلصلة، أو أدوات منزلية إيقاعية .. إلخ)
- ٤- بأجزاء الجسم البشرية (التصفيق، دق الأرض، الخبط على الأفخاذ أو الصدر وإصدار أصوات من الحنجرة والقم وخصائصها)
- ج- المؤديون - المغنيون والعازفون
- ١- أنواع الأصوات البشرية وإمكاناتها
- ٢- مهارات العازفين والمغنيين
- ٣- طرق الأداء وظروفه
- ٤- كيفية تدريبهم واكتسابهم الخبرة
- الأنغام والتوافقات اللحنية
- تنظيم الموسيقى الشفوية (البشرية)
- الألحان والتوافقات اللحنية والبناء الاجتماعي لها.
- ٣- محاولة محمد الجوهري

وردت محاولة الجوهري في عدة إصدارات^(١) وجاءت على النحو التالي:

... أ- الموسيقى

الموسيقى الشعبية وتشمل:

- ١- الموسيقى المصاحبة للأغاني (الميلاد، العمل، الغزل، الأفراح، النحج، إلخ)
- ٢- الموسيقى المصاحبة للرقص
- ٣- الموسيقى المصاحبة للنداءات والابتهالات والمدائح والعديد
- ٤- الموسيقى المصاحبة للإنشاد والسير
- ٥- الموسيقى البحتة

ب- الآلات الموسيقية

- ١- آلات النفخ
- ٢- آلات وترية

(٢) محمد الجوهري، علم الفولكلور، الجزء الأول، الأسس النظرية والمنهجية ط٤، دار المعارف، (١٩٨١ ص ٩٩، وللكاتب نفسه، انظر: الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية، الجزء الثاني من دليل العمل الميداني لجامعي التراث الشعبي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية عام ١٩٩٢، ص ٣٨.

٣- آلات إيقاعية

وثمة ملاحظة ينبغي ذكرها بشأن هذا التصنيف، ففي التقسيم الذي اعتمدته الدكتور الجوهري لفروع علم الفولكلور (وهو تقسيم رباعى) أدمجت فيه الفنون، بما فيها الموسيقى، فى قسم واحد هو: الثقافة المادية والفنون الشعبية^(١). وهذا الدمج -وكما يقول الدكتور الجوهري- ليس راجعاً إلى اعتبارات نظرية أو منهجية عامة وإنما هو رد فعل لتيارات دراسة موضوعات الفنون الشعبية فى بعض الكتابات المصرية المرتبطة بالنزعة الفولكلورية، أو النزعة الشعبية المفرطة، وأن وضع الفنون الشعبية -بما فيها الموسيقى- مع الثقافة المادية فى قسم واحد؛ يأتى رغبة فى تأكيد قضية أساسية هى: أن تناول الفنون الشعبية (بما فيها الموسيقى) ليس قائماً على معالجتها كمنتجات فنية ذات قيم جمالية فى ذاتها، وإنما يجب أن تكون نظرتنا إليها من نوع نظرتنا إلى العناصر الثقافية والمادية، أى كمنتجات تدل على ثقافة معينة وعلى شخصية مبدعيها ومستخدميها وعلى إلقاء الضوء على ما بينهم من علاقات^(٢).

وعلى الرغم مما وصلت إليه هذه الجهود فى محاولاتها (التي عنيت بحصر وتصنيف موضوعات الموسيقى الشعبية المصرية)؛ فإنها لا تعنى أن الموسيقى الشعبية المصرية قد أجريت لها دراسة تصنيفية شاملة -تتناسب مع كثرة أشكالها وموضوعاتها- يمكن الاعتماد عليها فى تمييز أنواع وأشكال هذه الموسيقى من بعضها البعض على أساس موسيقى فنى، وفى غياب هذا الإنجاز المهم، باتت عمليات حصر المادة وتصنيفها تتم وفق معايير عامة بدرجة كبيرة (كما سبق بيانه فى المحاولات سابقة الذكر) فتارة يأتى تحديد النوع الموسيقى حسب معيار مناسبة الأداء مثال ذلك: أغانى الزواج، وأغانى الختان، وأغانى العمل، وأغانى الحج، وتارة يأتى التحديد والتصنيف حسب معيار صفة المؤدى فيقال: أغانى المسحراتى، أغانى البربر، نداءات الباعة... إلخ، وتارة يأخذ معيار التصنيف منحى آخر فيستند إلى الاسم الاصطلاحي الشائع فى مجتمع الثقافة الشعبية مثل: العديد، الموال، الدور، النميم،

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه. وقد قدم الباحث تعليلاً ناقش فيه هذه الفكرة (الاعتبارات) وجاء ذلك فى الجزء السادس من دليل العمل الميداني لجامعي التراث الشعبي، مرجع سابق، ص ٤٨.

الغنيوة، الشتوية، أو الاسم الاصطلاحي الذي أطلقه الباحثون أنفسهم مثل: أغاني الملاحم، نواح الجنائز، أغاني الرقص، الأغاني النسائية المنزلية.. إلخ.

وأمر بديهي أن تتفق هذه المعالجات التصنيفية مع بدايات الاهتمام بوضعية الموسيقى الشعبية المصرية بوصفها مرحلة أولية كانت ضرورية للتعريف بالمادة وسيقاها الاجتماعي. وأمر بديهي أيضاً أن يظل حصر وتصنيف المادة والتعريف بها يجرى وفق خصائص هذه المعالجات (المعايير) ومن ثم كان من الطبيعي أن تنصدر هذه المعالجات كافة التناولات في ذلك الوقت.

والحقيقة التي لا غنى عن قولها في هذا الخصوص؛ أن المادة الموسيقية -في مجملها- لم تحظ بعد بدراسة دقيقة وشاملة تكشف عن كل خصائصها الفنية التي يمكن أن تصنف على أساسها تصنيفاً موسيقياً فنياً. ويعزى ذلك إلى قلة عدد الدراسات الموسيقية الفولكلورية (حيث لا توجد بعد دراسات تغطي كل موضوعات الموسيقى الشعبية في مصر) ولم يتوقف الأمر عند قلة الدراسات وحسب؛ فالعديد من الدارسين المبتدئين (والواعدين) يتوجهون في الآونة الأخيرة نحو الانشغال بالدراسات التي تعالج موضوع الموسيقى من الجانب الذي يخص الاستلham والتوظيف وغيرها من المعالجات التي تنأى بتوجهاتهم عن مجال الدراسات التأسيسية التي تساعد الباحث على فهم المادة في سياقها الثقافي فهماً صحيحاً من ناحية، وتقدم لحقل الدراسات الموسيقية الفولكلورية المعاصر جانباً من المعرفة ما زال العلم -في مصر- في حاجة ماسة لإنجازه، من ناحية أخرى.

مع هذا الحال ظل تصنيف الموسيقى الشعبية المصرية يسير بخطى بطيئة إن لم يكن يصطدم في كثير من الأحيان بما ساد من خلل في المفاهيم وتشويش في لغة الكتابات العلمية، خاصة وأن الموسيقى الشعبية حتى في دائرة الاهتمام الأكاديمي ما تزال تفتقد وحدة المصطلح الدقيق الذي يستوعب بدلالاته كل العناصر المميزة للأنواع الموسيقية بأشكالها المتعددة كل على حدة. وما تزال إلى اليوم، تستخدم لغة الحديث الاعتيادي في وصف الأداء وأساليبه عوضاً عن غياب المصطلح الموسيقي الدال. ولأن جانباً كبيراً من قائمة الأنواع والأشكال الموسيقية الشعبية المصرية لم يدرس حتى اليوم دراسة موسيقية فولكلورية متعمقة؛ فإن هذا الحديث (عن الأداء وأساليبه) لم يتجاوز في أحيان كثيرة الملاحظات العامة. والباحث لا يبغي -في هذا المقام-

الإسهاب في ذكر قضية المصطلح التي سبق ذكرها، وإنما يريد لفت الانتباه إلى تلك الوضعية المتفق عليها سلفاً وهي: أن المصطلح يعد نتيجة منهجية لما توصل إليه البحث الدقيق في فنية الموسيقى وعناصرها، ونتيجة أيضاً لما يمكن أن يرصده البحث من آليات وأسباب تؤثر في البنية أو في الخصائص التكوينية للموسيقا. والخروج بمصطلح ذي دلالة خاصة يشير إلى نوع أو شكل من الأشكال الموسيقية التقليدية؛ لا يمكن أن يتم في معزل عن وجود أو توافر سائر المصطلحات الخاصة بالأنواع والأشكال الموسيقية الأخرى، وهذا لم يتحقق بدوره في غيبة النتائج التي تخص كل موضوعات وأشكال الموسيقى الشعبية والتي يتعين على البحث العلمي أن يتوصل إليها. وجوهر المشكلة التي ما تزال تعترض وجود الصورة التصنيفية المتكاملة (لموضوعات وأشكال وصيغ الموسيقى الشعبية المصرية) وتعترض في الوقت نفسه نشوء المصطلح العلمي الدال والدقيق؛ أنه لا توجد مثل هذه النتائج العلمية الشاملة التي تغطي كل موضوعات الموسيقى بأشكالها المختلفة، فكل ما تم إنجازه في هذا الاتجاه، وكما سلف بيانه، كان مركزاً على حصر المادة الموسيقية ومحاولة ترتيبها وفق خصائصها الأدبية والاجتماعية أحياناً ووفق رؤية فنية محدودة أحياناً أخرى. ومن الطبيعي مع هذا أن يكون حصر المادة وترتيبها وتصنيفها غير ممثل للخصائص الفنية للموسيقا تمثيلاً دقيقاً.

قائمة مقترحة فى حصر وترتيب أشكال وموضوعات الموسيقى الشعبية المصرية: (١)

(أ) الموسيقى المرتبطة بمرحلة الطفولة

أولاً: الأغاني التى تؤدى للأطفال:

- ١- أغاني سبوع المولود^(٢)
 - ٢- أغاني مداعبة الأطفال «وهشتكتهم»
 - ٣- أغاني تهنين الأطفال (لغرض تنويمهم)
 - ٤- أغاني الختان(*)
 - ٥- الأغاني التى تتردد أثناء تعليم الأطفال المشى وأثناء تناولهم الطعام
- ثانياً: الأغاني التى يؤديها الأطفال أنفسهم:
- ٦- الأغاني المرتبطة بالألعاب (الجرى، القفز، الدوران، الألعاب المنظمة والألعاب التى تستخدم فيها أدوات مثل الكرة والعصى وماشابه)
 - ٧- الأغاني المرتبطة بشهر رمضان (بالقوانيس)
 - ٨- الأغاني المرتبطة بالعيدين (ليلة الرؤية، أيام الأعياد)
 - ٩- الأغاني المرتبطة بعاشوراء (التاسع والعاشر من شهر محرم)

(ب) الموسيقى المرتبطة بالعرس

أولاً: الأغاني النسائية المنزلية، أغاني البنات الريفية:

- ١٠- أغاني الخطوبة، أعاني ليلة الحنة (الحناء، الأغاني التى تؤدى أثناء زفة شوار العروس إلى بيت الزوجية، الأغاني التى تؤدى أثناء زفة صينية الطعام للعروسين ليلة الدخلة (**)، أغاني ليلة الدخلة، الأغاني التى تؤدى للصباحية

(١) وردت هذه القائمة بالتفصيل مع شرح موجز (انظر الجزء السادس من دليل العمل الميدانى لجامعى التراث الشعبى/ مرجع سابق ص ٦٨ . والغرض من عرض هذه القائمة هو الإلمام بالصورة الواقعية المتكاملة لكل موضوعات النشاط الموسيقى الشعبى فى مصر.

(٢) * قد يدعى الفنانون المحترفون وخاصة المنشدون لإحياء هذه المناسبة لا سيما فى حالات النذور.

(**) قد يتخلل الغناء بعض الأدعية .

ثانياً: الموسيقى المرتبطة بمشاركة الشباب فى الاحتفال بالعرس

١١- المقاطع الغنائية والصيحات والتهليل فى زفة العرس وفى ليلة الدخلة

١٢- أغانى الشباب على السسمية والطنبورة وعلى الدفوف

ثالثاً: أغانى الشباب والرجال المصاحبة للرقص فى العرس:

١٣- الدحية

١٤- المجرودة

١٥- الريدة

١٦- الشتيرة

٧- أغانى العلم (الغنيوة)

١٨- أغانى فرقة الزقالة، البرمة السيوية

١٩- أبو عاجة

٢٠- الجنزير

٢١- الفرادى

٢٢- المربوع

٢٣- هولى هولى

٢٤- النقرشاد

٢٥- الكارديج

٢٦- الضمة البورسعيدى

٢٧- الصهبة الاسكندراني

٢٨- الحنة السويسى

رابعاً: موسيقا العوالم والغوازى فى العرس

٢٩- الطقاطيق والمواويل الخاصة بالعرس^(١)

(١) لا يقتصر دعوة المؤدين المحترفين -إلى العرس- على العوالم والغوازى فقط وإنما يدعى أيضاً، المنشد الصييت، والمغنى البلدى، لكننا نركز هنا على المؤدين المحترفين الذين لا يؤدون عادة إلا فى مناسبة العرس. أما المنشد والمغنى البلدى فلهما موقع آخر فى القائمة وذلك بسبب انتماء أداء كل منهما إلى مجالات أداء أخرى غير العرس.

(ت) الموسيقى المرتبطة بحالات الوفاة
أولاً: ساعة الإعلان عن الوفاة:

٣٠- الولولة والندب

٣١- الغناء المرتبط بالإعلان عن الوفاة (على الطبل الكبير)

٣٢- الغناء المرتبط بالإعلان عن الوفاة (على الدف)

٣٣- الغناء المرتبط بالإعلان عن الوفاة (على البازا)

ثانياً: تشييع الجناز

٣٤- الغناء النسائي الجماعي (الذي يجرى فى مؤخرة الجناز)

٣٥- إنشاد المدائح (الجعفرية، الجعفرية)

ثالثاً: فترة الحداد وفى ذكرى المتوفى (فى الأعياد والمواسم)

٣٦- العديد (التعديد)

(ث) الموسيقى المرتبطة بالعيدين لدى البالغين

(عيد الفطر وعيد الضحية)

٣٧- تكبيرة العيدين

(ج) الموسيقى المرتبطة بالتسحير فى رمضان

٣٨- منظومات التسحير

٣٩- القصص الغنائى (المقاطع المتبقية من القصص الغنائى الذى كان يؤديه

المسحراتى فى الزمن الماضى)

٤٠- منظومات استوحاش الشهر (فى العشرة الأخيرة من شهر رمضان)

(ح) الموسيقى المرتبطة بالحج

(عند غير المحترفين)

٤١- التحنين (حنون الحجاج)

٤٢- التلبية

(خ) الموسيقى المرتبطة بجماعات الطرق الصوفية

٤٣- منظومات الذكر الصوفى (أو الذكر الرسمى) بدون استخدام آلات موسيقية

٤٤- قصة المولد النبوى الشريف (بدون استخدام آلات موسيقية)

٤٥- البردة «بردة البوصيرى» (بدون استخدام آلات موسيقية)

- ٤٦- المنظومات التي صيغت على غرار البردة (بدون استخدام آلات موسيقية)
- ٤٧- قصائد المدائح الدينية والابتهالات (بدون استخدام آلات موسيقية)
- ٤٨- الدقات الإيقاعية على الطبول والكاسات في المواكب والدورات الدينية
- (د) الموسيقى المرتبطة بالأعياد الدينية المسيحية
- ٤٩- الطقائيق والأناشيد وما نحوها التي تؤدي في الأعياد والمناسبات التالية:
- أحد الشعانين
 - اثنين العصيدة
 - ثلاثاء فصد الدم
 - أربعاء أيوب (أربع الزعرع)
 - خميس العهد (خميس العدس)
 - الجمعة العظيمة (الجمعة الحزينة)
 - سبت النور
 - أحد القيامة
 - شم النسيم (يوم الاثنين)
- (ذ) الموسيقى المرتبطة بالتقديس
- (الذهاب إلى القدس)
- ٥٠- أغاني الذهاب والتوديع
- ٥١- أغاني العودة والاستقبال
- (ر) الموسيقى المرتبطة بموالد المشايخ والأولياء والقديسين
- ٥٢- القصص الغنائي ومنظومات المديح والأناشيد الدينية
- (ز) الموسيقى المرتبطة بالاحتفال بشم النسيم
- (خارج النطاق الديني)
- ٥٣- الغناء المرتبط بإشعال النار
- ٥٤- الغناء المرتبط بدمية الآمبي (أغاني وصيحات الشباب)
- (س) الموسيقى المرتبطة بالقمر عند البالغين
- ٥٥- الأغاني التي تؤدي للقمر ليلة تمه
- ٥٦- الأغاني التي تؤدي للقمر في حالة الخسوف

(ش) الموسيقى المرتبطة بحالات السمر

٥٧- المواويل القصيرة الى تتناول -عادة- موضوعات الحب والغزل والشكوى من الزمان.. الخ

٥٨- الأغنيات القصيرة الموقعة (الطفاطيق) التي تتناول موضوعات الحب والغزل.. الخ

٥٩- الطج (الطق

٦٠- النميم

٦١- أغاني الضمة

٦٢- العزف على الآلات والأدوات الموسيقية

٦٣- الطفاطيق والمواويل الدينية

٦٤- الغناء المقلوب

٦٥- القصص الديني:

- قصة زواج الرسول

- قصة الإسراء والمعراج

- قصة الغار

- قصة الهجرة

- قصة الغزاة

- قصة الضب واليهودي

- قصة زواج فاطمة الزهراء

- قصة الحلة

- قصة الغلام

- قصة الرحاية (الرحا)

- قصة إسلام بلال

- قصة إسلام عمر

- قصة الخليل مع ولده إسماعيل

- قصة جابر الأنصاري

- قصة علقمة

- قصة اليتيم
- قصة فضلون العابد
- قصة السيدة زينب
- قصة أحمد البدوي وخضرة الشريفة
- قصة مريم (السيدة العذراء)
- (ض) الموسيقى المرتبطة بمداح الطار
- ٦٦- قصص المدائح:

- قصة سعد اليتيم
- قصة أيوب
- قصة فاطمة بنت برى
- قصة عالية العقالية (ابنة العقيلي جابر)
- قصة كيد النساء (كيد النساء)
- قصة مامونة
- قصة الختام
- قصة إبراهيم الدسوقي
- قصة قميص النبي
- قصة سارة والخليل
- (ط) الموسيقى المرتبطة بشاعر السيرة
- ٦٧- السيرة

- سيرة عنتر بن شداد
- سيرة الزير سالم
- سيرة سيف بن ذي يزن
- سيرة بني هلال (الهلالية)
- سيرة الأميرة ذات الهمة
- سيرة علي الزبيق المصري
- سيرة حمزة البهلوان
- سيرة الظاهر بيبرس

(ظ) الموسيقى المرتبطة بالمغنى البلدى «مغنى الموال»

٦٨- المواويل القصيرة

٦٩- المواويل القصصية الطويلة:

- موال أدهم الشرقاوى

- موال حسن ونعيمة

- موال شفيقة ومطفى

- موال مقبول ومقبوله

- موال شلباية

- موال الطير

- موال الكريم والبخيل

(ع) الموسيقى المرتبطة بالأعمال الحرفية أولاً: الزراعة

٧٠- أغانى المحراث

٧١- أغانى الساقية

٧٢- أغانى العود (الشادوف)

٧٤- أغانى الطنبور

٧٥- أغانى الجيـض (فصل حبوب الذرة عن عيدانها وعن كيزانها)

٧٦- الأغانى التى تؤدى على الرحاية (الرحا)

٧٧- الأغانى التى تؤدى للغريال

٧٨- النداءات والصيحات التى تؤدى فى جنى محاصيل البلح والزيتون (فى

واحة سيوة)

ثانياً: الموسيقى المرتبطة بصيد الأسماك

٧٩- الحدو، الحداء، الملالية

٨٠- شد اللهجة

ثالثاً: الموسيقى المرتبطة بأعمال متنوعة

٨١- الأغانى المرتبطة بالملاحة فى النيل

- ٨٢- الأغاني المرتبطة بأعمال الحفر والجر والسحب
 ٨٣- الأغاني المرتبطة بالإبل والدواب وما شابه
 ٨٤- الغناء المرتبط بضاريات الرمل والباعة المتجولين
 ٨٥- الغناء المرتبط بالشحاذين
 ٨٦- غناء الطباخين (فى مهرجان السياحة بواحة سيوة)
 (غ) الموسيقى المرتبطة بعروض الفرجة
 ٨٨- أغاني الأراجوز
 ٨٩- أغاني خيال الظل
 ٩٠- أغاني القرداتى
 ٩١- أغاني الأدبائية والمضحكين ومن شابههم
 ٩٢- أغاني المواوى

(ق) الموسيقى المرتبطة بالآلات والأدوات الموسيقية

٩٣- معزوفات آلة المزمار البلدى/ الصعيدى

- فى زفة العرس

- فى التحطيب وألعاب الفروسية

- فى الإعلان عن الوفاة

(ك) الآلات والأدوات الموسيقية

أولاً آلات النبر والجر بالقوس على الأوتار

٩٤- الطنبورة/ السسمية

٩٥- الجمبرة

٩٦- الربابة

ثانياً: آلات تصدر الصوت بالنفخ فى أنابيبها (آلات النفخ)

٩٧- الأرغول بأحجامه المختلفة

٩٨- الأرمة (القرمة)

٩٩- الرباعوية

١٠٠- القرمای (اوانطورماى)

- ١٠١- الترمای الشبك
 ١٠٢- الزمارة
 ١٠٣- السنأویة أو التناشر (الاثنی عشر)
 ١٠٤- المجرونة (المقرونة)
 ١٠٥- الربعاوی
 ١٠٦- فردة الزمارة
 ١٠٧- الخمساویة
 ١٠٨- المسحورة
 ١٠٩- المزمار البلیدی / الصعیدی
 ثالثاً: آلات النقر والقرع (الآلات الإيقاعية)
 ١١٠- الدريكة / الدريوكة
 ١١١- الدف، البندیر، المزهر، الحانة، الطار، الرق
 ١١٢- البازا
 ١١٣- النقرزان
 ١١٤- النقارة (طبل الجمال)
 ١١٥- الطبل البلیدی (طبل المزمار)
 ١١٦- الطبل الكبير (طبل السيد، طبل فرقة حسب الله)
 ١١٧- الطبل السيوی وطبل نجع العبادة (الطبل السوداني)
 ١١٨- الصاجات
 ١١٩- الكاسات
 ١٢٠- المثلث
 ١٢١- صاجات بائع العرقسوس
 (ل) وسائل أخرى للتوقيع وإصدار الصوت
 ١٢٢- النقر على الزجاجات الفارغة، الشخلة بالدلايات ومحابس المفاتيح في مجال اللهو والسمر
 ١٢٣- النقر بالملاعق
 ١٢٤- التوقيع على المبادد والكراسي والصفائح والعلب الفارغة

١٢٥- التوقيع بالمسبحة على العصا (السبحة والعصاية)

(م) أدوات لإحداث الصوت خاصة بلعب الأطفال

١٢٦- المزامير التي تصنع من الغاب والبلاستيك

١٢٧- المصافير التي تصنع من الغاب والبلاستيك

١٣٠- ربابة الأطفال

١٣١- الدريكة ذات الحجم الصغيرة (طبلية الأطفال)

١٣٢- الطبلية الدوارة (نقارة).

المنحى الرابع: البحوث والدراسات الموسيقية وأدواتها:

منذ مطلع الستينات (من القرن العشرين) وحقل الدراسات الفولكلورية في مصر يشهد نشاطاً ملحوظاً يزداد نمواً مع مرور السنوات، ومنذ هذا التاريخ والاهتمام بالموسيقى الشعبية يشهد بدوره نشاطاً ملحوظاً يتلاءم -إلى حد ما- وحالة الاهتمام العام التي بدأ يشهدها المناخ العلمى فى هذا المجال. ولعل الباحث لا يغفل فى هذا الصدد الكتابات والدراسات التى سبقت مرحلة الستينات، والتى كانت تعالج موضوعات من التراث الشعبى^(١). وفى هذا الزخم كانت هناك حاجة ملحة لإصدار دورية تخصص لكتابات الدارسين والباحثين فى هذا المجال، وكانت أول محاولة هى تلك التى اضطلع بها أحمد رشدى صالح حينما أصدر عن طريق مركز دراسات الفنون الشعبية عددين لمجلة الفنون الشعبية، وفى عام ١٩٦٥ صدر العدد الأول من الدورية التى تحمل الاسم نفسه والتى مازال تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب حتى اليوم، وهذه الدورية تمثل المجال الوحيد فى مصر المعنى (بصورة دورية) بنشر مختلف الموضوعات الفولكلورية وتحفل الموسيقى الشعبية موقعاً دائماً بين موضوعاتها الثابتة.

(١) المقصود بذلك علي سبيل المثال: كتابات أحمد تيمور وأحمد أمين وسهير القلماري ومحمود فهمي عبد اللطيف وعبد الحميد يونس وأحمد رشدي صالح.

أما مجال البحوث والدراسات الموسيقية النظرية؛ فقد ظل -حتى قبيل عام ١٩٨٣- قاصراً على المعاهد والكليات الموسيقية المصرية^(١) حيث سجل فيها عدداً محدوداً من البحوث (لمنح درجتى الماجستير والدكتوراه) تعالج بعض الأشكال والموضوعات الموسيقية الشعبية (الموال^(٢)، الزار^(٣)، المدائح^(٤))، أغاني ألعاب الأطفال^(٥). بالإضافة إلى دراستين فى درجة الماجستير تعالج إحداها وضعية آلة الرماية فى الحياة الاجتماعية^(٦) وتعالج الثانية تكوينات الفرق الموسيقية الشعبية^(٧). بالإضافة إلى دراستين فى درجة الدكتوراه الأولى تعنى بعقد مقارنة بين آلات النفخ الموسيقية الشعبية فى مصر وبعض الآلات فى البلاد العربية^(٨). والثانية تعنى بمعالجة الموسيقى المصاحبة للرقص^(٩). هذا وما تزال هذه المؤسسات الأكاديمية تفتح مجال البحث (لمنح درجتى الماجستير والدكتوراه) أمام الباحثين فى مجال الدراسات الموسيقية الشعبية^(١٠).

(١) ينوه الباحث إلى أن هناك جهود بذلت خارج نطاق المؤسسات الأكاديمية نذكر منها على وجه الخصوص الجهد الذى قامت به السيدة بهيجة رشيد وخاصة المتمثل فى كتابها: أغاني مصرية شعبية، ط٣، مكتبة الأنجلو ١٩٨٣. والذى اشتمل على أكثر من ٧٠ أغنية قامت بجمعها وتدون ألحانها، ثم قامت فيما بعد بترجمة الكتاب إلى اللغة الإنجليزية.

(٢) يسرى حنفى الحامولى: أغاني المناسبات الاجتماعية (الموال)، أطروحة ماجستير (غير منشورة) مقدمة إلى كلية التربية الموسيقية جامعة حلوان عام ١٩٧٧.

(٣) محمد السيد ياقوت شفشق: موسيقا الزار فى مصر، دراسة تحليلية لألحانها وإيقاعاتها، أطروحة ماجستير (غير منشورة)، مقدمة إلى كلية التربية الموسيقية جامعة حلوان عام ١٩٧٩.

(٤) ماجدة أحمد قنديل: المدائح النبوية والتراث الشعبى لمدينة القاهرة، أطروحة ماجستير (غير منشورة) مقدمة لقسم علوم الموسيقى بالمعهد العالى للموسيقا العربية سنة ١٩٨٢.

(٥) أنعام عبد اللطيف سابق: أغاني ألعاب الأطفال الفولكلورية المصرية. أطروحة ماجستير (غير منشورة) مقدمة لقسم علوم الموسيقى بالمعهد العالى للموسيقا العربية سنة ١٩٩١.

(٦) فايزة على محمد قطب: دور آلة الرماية فى الحياة الاجتماعية المصرية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أطروحة ماجستير (غير منشور) مقدمة لكلية التربية الموسيقية، جامعة حلوان سنة ١٩٧٧.

(٧) فاطمة أحمد محمود: الفرق الشعبية الموسيقية فى مصر، أطروحة ماجستير (غير منشورة) مقدمة لقسم علوم الموسيقى بالمعهد العالى للموسيقا العربية سنة ١٩٩٢.

(٨) إيمان حسن جودت: دراسة مقارنة بين آلات النفخ الشعبية فى مصر وبعض الدول العربية، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) مقدمة لقسم الاثنوموزيكولوجى بالمعهد العالى للموسيقا (الكونسرفتوار) ١٩٩٩.

(٩) عاطف مصطفى على: دراسة تحليلية لموسيقا الرقص الشعبى فى محافظة قنا، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) مقدمة لقسم الاثنوموزيكولوجى بالمعهد العالى للموسيقا (الكونسرفتوار) ١٩٩٩.

(١٠) للوقوف على المزيد من الدراسات الموسيقية، انظر: الإنتاج الفكرى العربى فى علم الفولكلور، قائمة ببلوجرافية، إعداد محمد الجوهري وإبراهيم حافظ ومصطفى جاد، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب جامعة القاهرة ط١، سنة ٢٠٠٠.

بعد إنشاء المعهد العالي للفنون الشعبية (بأكاديمية الفنون) كان لابد من وضع الدراسات الموسيقية في نطاق الدرس الفولكلوري (المدخل الموسيقي الفولكلوري) تمشياً مع الفلسفة التي أنشئ المعهد من أجلها، غير أن مسيرة هذه الدراسات (الموسيقية) لم يحالفها الكثير من الحظ، إذ لم تحقق بعد ما كانت تصبو إليه تلك الفلسفة التي قام عليها المعهد وهو الأمر الذي سوف نعود إليه بالتفصيل في موقع آخر.^(١)

وفي سياق دعم الفلسفة التي تقوم عليها الدراسات الفولكلورية في مصر صدر العديد من الدراسات والبحوث التي عدت أداة منهجية لا غنى عنها في دفع مسيرة الدراسات الفولكلورية والنهوض بها، ومن هذه الدراسات ما جاء في موضوعات المداخل والموسوعات والقواميس^(٢) ومنها ما جاء في صيغة أدلة للعمل الميداني الذي يستخدم في جمع مادة المأثورات الشعبية وقد صدر منها ستة مجلدات خصص المجلد السادس منها لدراسة الموسيقى الشعبية^(٣)، هذا بالإضافة إلى صدور أول قائمة ببلوجرافية للإنتاج العربي للفولكلور (١٩٧٠، ١٩٧١) تضم مجمل ما نشر في هذا المجال حتى نهاية عام ١٩٧١ وقد نشرت هذه القائمة في كتاب عام ١٩٧٨. وفي عام ٢٠٠٠ أنجز الإصدار الجديد للإنتاج الفكري العربي للفولكلور ويضم ما يقرب من ٦٦٠٧ عنواناً^(٤). وفي متابعة لهذا الإنجاز اختير عدد من العناوين (التي شملتها القائمة الببلوجرافية الثانية وتم شرحها شرحاً موجزاً وصدرت في جزئين عام ٢٠٠١)^(٥).

(١) نوقش أول بحث في الموسيقى الشعبية بالمعهد عام ١٩٩١ (تقدم به الباحث للحصول علي درجة الماجستير في موضوع عنوانه: الثابت والمتغير في الإنشاد الديني الفولكلوري، دراسة مقارنة بين التقليدي والمستحدث في الأداء الموسيقي الفولكلوري. كما نوقشت أول أطروحة للدكتوراه في الموسيقى بالمعهد في عام ١٩٩٦ للباحث وعنوانها: الوحدة والتنوع في فنون الأداء الموسيقي المصاحب لرواية سيرة بني هلال).

(٢) انظر البيانات الببلوجرافية في القائمة المخصصة لهذه الموضوعات في: الإنتاج الفكري العربي لعلم الفولكلور، مرجع سابق.

(٣) يضاف إلى هذه الأدلة دليل صدر عام ١٩٦٣ مترجم عن الإنجليزية تأليف مودكار بليس وأرنولد باكيه: في جمع الموسيقى الشعبية، ترجمة نفيسة الغمراوي، مراجعة سمحة الخولي. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٦٣.

(٤) محمد الجوهري وإبراهيم عبد الحافظ ومصطفى جاد: الإنتاج الفكري العربي في علم الفولكلور، قائمة ببلوجرافية، مرجع سابق.

(٥) محمد الجوهري وإبراهيم عبد الحافظ ومصطفى جاد: الفولكلور العربي، بحوث ودراسات، المجلد الثاني، ط١ مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب جامعة القاهرة ٢٠٠١.

المنحى الخامس: الموسيقى الشعبية المصرية فى مجال الاستلهم والتوظيف

أسلفنا، أن بداية الاهتمام بدرس الموسيقى الشعبية فى مصر (جمعاً وتصنيفاً وتحليلاً.. إلخ) ارتكز فى بداياته على أهمية الإفادة من هذه الموسيقى بوصفها من ناحية، تمثل تراث الأمة من الألحان والآلات والأدوات، ومن ناحية أخرى، أن هذه الموسيقى تعد أساساً يصلح لبناء أعمال موسيقية حديثة. ويرجع ذلك -كما سلف بيانه أيضاً- إلى الاعتقاد بأن الموسيقى الشعبية تعد بالنسبة للمستلهمين المحدثين مصدراً مهماً لتأصيل إنتاجهم الموسيقى القومى. والواقع أن مرجع هذا الاعتقاد لا يقوم على نحو مطلق -وكما يدعى بعض الدارسين- على التأثير بتجربة الموسيقيين الأوربيين فى هذا الشأن، فالاعتماد على الألحان والآلات والأدوات الموسيقية الشعبية، أو الاعتماد على بعض الخصائص التكوينية لهذه الموسيقى كمصدر للمحليين فى بناء أعمال جديدة؛ شهدته الموسيقى الشرقية العربية خلال المائة عام الماضية، وهذا الاعتماد لم يكن -فى بدايته- مرتكزاً على فكرة الاستلهم أو التوظيف بالمفهوم الحديث المعاصر، ولم يكن ينبعث من فكرة تأصيل الموسيقى بمفهوم النازع القومى.. إلخ؛ فالعمل الموسيقى كان يجرى وفق وحدة الخصائص الفنية التى تربط بين الموسيقى الشعبية المصرية والعديد من أساليب التلحين عند عدد من المؤلفين فى مجال الموسيقى الشرق عربية^(١)، فسلامة حجازى (على سبيل المثال) كان يأخذ من ألحان الإنشاد فى حضرة الذكر وينشد بها موشحاته التى غناها كبار المطربين فى مجال الموسيقى العربية، ولم يكن يقصد الاستلهم أو توظيف الفولكلور أو ما نحو ذلك، وإنما كان ينتج موسيقاه فى إطار الثقافة

(١) هناك وحدة فى الخصائص الفنية النوعية تربط الموسيقى الشعبية بالموسيقى الشرقية العربية متمثلة -ليس فقط فى الأساليب- وإنما فى شيوع العديد من المقامات العربية فى دائرة النشاط الموسيقى الشعبي، بالإضافة إلى وجود وحدة فى بعض الضروب والإيقاعات، وكذلك وحدة فى الوزن الإيقاعي، فضلاً عن استخدام كل من الموسيقيين لآلات موسيقية بعينها كالدفوف والدريكة والصاجات، وكذلك بعض الآلات الوترية، فالربابة مثلاً؛ كانت الآلة المعتمدة فى النحت حتى وقت قريب، وهى فى الوقت نفسه الآلة الرئيسة للشعراء الجوالين. كما أن الفيلوليين الأوروبى تمثل اليوم آلة رئيسة فى كل من الفرق الموسيقية العربية وفرقة المغنى البلدى (مغنى الموالم) وفرقة المنشد الدينى الشعبى الصبييت.

الموسيقية التي تعلمها في بدايات حياته وفي إطار ذائقتها حيث كان شيخاً لإحدى الطرق الصوفية خلفاً لوالده^(١) ولم يختلف الحال نفسه كثيراً عند سيد درويش الذي لحن من الأغنيات (الطفاطيق) وفق نمطه الألحان التقليدية التي كانت تتردد في بيئته الشعبية (البلدية) ولا شك أن إنتاج هؤلاء الملحنين (سلامة حجازي وسيد درويش وأبو العلا محمد وغيرهم) كان له أثر في أعمال أجيال الملحنين الذين أتوا بعد ذلك وخاصة في بلورة مفهوم الأخذ من التراث الموسيقى الشعبي أو الاعتماد على الموسيقى الشعبية في تأصيل الإنتاج الموسيقي الحديث وإظهار الطابع القومي وما نحو ذلك، وهو الأمر الذي جاءت عليه الأعمال الموسيقية التي أنتجت بعد ذلك للعديد من الموسيقيين المحدثين أمثال: محمد عبد الوهاب وعبدالحليم نوري ومحمود الشريف وسيد مكاوي وبلخ حمدي وأحمد فؤاد حسن وغيرهم.

بجانب ذلك هناك تيار تمثله طائفة من المؤلفين الموسيقيين الذين يتبنون فكرة الاستلهام وفق المفهوم الحديث المعاصر، ولا يقوم إنتاجهم الموسيقي على أى شكل من أشكال الوحدة النوعية لخصائص الموسيقى أو صيغها أو أساليبها، فهذا التيار يمثل مستوى من الإنتاج الموسيقي كان ولا يزال تتجاذبه العديد من وجهات النظر النقدية المتباينة، وهو التيار الذي تتبناه طائفة من المؤلفين الموسيقيين الذين أتيح لهم الاتصال بالموسيقى الغربية الكلاسيكية ودراسة أشكالها وتقنياتها وأساليبها المختلفة. وقد برزت أسماء هؤلاء المؤلفين من خلال إنتاج متميز وخاصة ذلك الإنتاج الذي راحوا يعالجون فيه ألحان وتراكيب موسيقية فولكلورية مصرية، وكتبوا تلك الأعمال في أشكال وقوالب غربية (أوروبية) كالكونشيرتو والمنتالية والسيمفونية وغيرها، بالإضافة إلى الكتابة التي خصصت للآلات الموسيقية المفردة كالفلوت والكمان والتشيللو والبيانو. ومن أبرز هؤلاء المؤلفين الذين خاضوا هذا المضمار: أبو بكر خيرت وجمال عبد الرحيم وعطية شرارة ورفعت جرانة وفؤاد الظاهري وعلى إسماعيل^(٢).

(١) محمود أحمد الحفني: الشيخ سلامة حجازي رائد المسرح العربي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، وزارة الثقافة سنة ١٩٦٨، ص ٢٤.

(٢) شارك الكاتب في إعداد الخطاب الموسيقي لدراسة عن الاستلهام عام ١٩٨٥ بعنوان: «التيار المعاصر للاستفادة بالموسيقى الفولكلورية». انظر: عبد الحميد حواس، «أوراق في الثقافة الشعبية»، مركز البحوث العربية للدراسات العربية والأفريقية، والتوثيق، ص ١١٣، القاهرة سنة ٢٠٠٣ م.

المنحى السادس: قضية الصون والحماية

عند إثارة قضية حماية وصون المآثرات الشعبية فى المؤتمرات والندوات، تحتل الموسيقى مكانة بارزة فى صدر أى حوار أو نقاش جدلى تثيره هذه القضية. وأمر بديهي أن يتخذ الحوار والجدل (الذى تثيره هذه القضية) مسلأً خاصاً عندما تكون الموسيقى الشعبية موضوعاً لهذه القضية، ليس بسبب أن هذه الموسيقى تعد واحدة من الموضوعات الرئيسية التى تمثل الجانب الفنى فى مآثراتنا الشعبية، وإنما لأن لهذه الموسيقى ولأدواتها خصائص بعينها تقوم على مواضع ثقافية، هى فى ذاتها تثير الكثير من الجدل عند إدراجها موضوعاً فى قضية الصون والحماية. والحققة التى يعرفها أغلب الباحثين فى مجال الفولكلور أن الاهتمام إلى صيغة بعينها لكيفية الحماية والصون لهو من أشق الأمور التى تواجه الباحث، ومما يزيد من مشقة الأمر أن الموسيقى الشعبية (قديمها وحديثها) ما يزال يكتنفها الغموض لاسيما من حيث القواعد التى تنظم عملية الإنتاج والاستهلاك فضلاً عن الغموض الذى مازالت تنطوى عليه عملية الخلق والإبداع الموسيقى فى صورها المختلفة.

إن الحماية والصون لابد أن تنطلق من معرفة وتحديد لماهية هذه الموسيقى (موضوع الصون والحماية) والوقوف على حدود ميدانها وعلى الشكل الذى آل إليه حالها ولماذا. وهذه المعرفة لا تقوم فى الوقت نفسه على مجرد القراءة العامة لوضعية هذه الموسيقى قديمها وحديثها وإنما على استكمال الدراسة الميدانية الشاملة. وفى هذا الصدد لابد من الإشارة إلى مواضع عامة يدركها الباحثون وهى أنه ليس هناك تاريخ بعينه يفصل بين ما يسمى بالموسيقى الشعبية التقليدية القديمة (التي أمكن رصدها خلال الخمسين عاماً الماضية) وبين النشاط الموسيقى المعاصر؛ فالظواهر الثقافية وكما هو معروف أيضاً لا تنحصر دفعة واحدة، كما أن الجديد منها لا ينشأ بين عشية وضحاها. والتحدث عن التغير وحتمياته يقتضى من الباحث فى هذا المقام الإشارة إلى تلك التغيرات المتتابعة التى شهدتها كافة أبنية المجتمع المصرى خلال العقود الخمسة الماضية والتى انعكست على كثير من الظواهر الثقافية التقليدية بما فيها النشاط الموسيقى الشعبى بكل صوره التى اقترنت بالعديد من المناسبات والأحداث الاجتماعية المتنوعة (فى المنزل وفى الحقل وفى مجالات العمل المتنوعة.. إلخ).

لقد تعددت الآراء وتباينت وجهات النظر في كيفية صون وحماية المآثور الموسيقى الشعبى، ومن الطبيعى أن يكون سبب هذا التباين هو اختلاف وسائل وأساليب الحماية والصون التى يجب أن تتوافق وطبيعة كل فرع من فروع الثقافة الشعبى (المعتقدات والمعارف والعادات والتقاليد والأدب والفنون التشكيلية والرقص والموسيقا والثقافة المادية) فضلاً عن تباين وجهات النظر فى أساليب وطرق حماية وصون مادة كل فرع. وما نعينه فى هذا الصدد هو الإشارة إلى الصورة العامة التى اجتمعت حولها كثير من الآراء ووجهات النظر، ولا مناص من أن نسجل فى هذا المقام ما جاء فى واحدة من مداخلتنا التى أفسح لها بعض الوقت فى واحدة من جلسات مؤتمر حماية وصون المآثورات الشعبى المصرىة الذى انعقد فى صيف عام ٢٠٠٠ والذى نظمته الهيئة العامة لقصور الثقافة، حيث تساءلنا: ما الذى نحميه على وجه التحديد؟ وكيف؟ وفى هذا الصدد تطرقنا إلى ملاحظة أساسية مفادها أن الدراسة العلمية للموسيقا الشعبىة المصرىة لا تقيم أهمية موضوعات وأشكال هذه الموسيقا وفق مستويات أو درجات ارتقائية سواء كان ذلك من حيث البنية اللحنية أو من حيث درجات الإتقان فى البناء أو فى مجالات الأداء وأدواته، وإنما تساوى بين موضوعات وأشكال هذه الموسيقا وبين بعضها البعض. وفى الدرس العلمى ينظر إلى موضوعات هذه الموسيقا وإلى أشكالها المختلفة على أنها رصيد التراث الموسيقى الذى تخلق عبر السنين وأن كل شكل أو موضوع موسيقى إنما أبدع فى سياق بعينه لىؤدى دوراً بعينه فى بنية هذا السياق، وعلى هذا النحو لا يجوز تجزئ أو تقسيم أشكال وموضوعات الموسيقا الشعبىة المصرىة إلى: أشكال وموضوعات جديدة بالصون والحماية لسبب ما وأشكال وموضوعات أخرى غير جديدة بالصون والحماية لسبب ما أيضاً ويسرى هذا القول على وضعىة الآلات والأدوات الموسيقية الشعبىة. إذن فموضوع الحماية والصون يشمل كل الرصيد الموسيقى الشعبى قديمه وحديثه، مع الأخذ فى الاعتبار أن الواقع الثقافى الشعبى فى كثير من أقاليم مصر تجاوز الوضع التقليدى القديم من حيث شكل الترابط والعلاقات البنائية التى كانت تربط الأشكال الفنية وموضوعاتها المتعددة بالأحداث والوقائع الحياتية اليومية وقد أثر ذلك بشكل ملحوظ على معايير القيم الفنية وعلى أدبياتها عند المبدعين أنفسهم، وهذا أمر لابد من أخذه بعين الاعتبار عند إجراء أى تخطيط لكيفية الحماية والصون.

أما كيفية الحماية التي نقترحها فإنها -لا بد- وأن تتسق مع سائر المعطيات سالفة الذكر، ويمكن إيجازها في النقاط التالية:

١- استكمال خطة عمليات الجمع الميداني الشامل التي بدأها مركز دراسات الفنون الشعبية منذ خمسين عاماً، والتنسيق مع هذه المؤسسة المهمة للإفادة من الرصيد المتراكم من المادة الموسيقية ومن المواد الفولكلورية الأخرى التي تعد ركيزة مهمة لأرشيف قومي للمأثورات الشعبية المصرية لا بديل عنه في رأينا.

٢- توحيد أساليب وطرق الجمع والأرشفة والتصنيف في جميع المؤسسات المعنية بعمليات جمع المأثور الموسيقى الشعبى واتباع أحدث الطرق والوسائل والتقنيات المعمول بها عالمياً في هذا المجال.

٣- زيادة المقررات الدراسية في المعاهد والكليات الموسيقية التي تخصص لموضوع الموسيقى الشعبية المصرية وآلاتها وأدواتها على أن تتضمن هذه المقررات الأبعاد الاجتماعية والثقافية لهذه الموسيقى جنباً إلى جنب مع الأبعاد الفنية والجمالية.

٤- دعم وتشجيع المؤسسات الحكومية والأهلية التي تعنى بالمأثور الموسيقى الشعبى المصرى، سواء تلك التي تقوم بدراسته أو التي تسعى -بطرق متعددة- إلى إلقاء الضوء على القيمة الثقافية والفنية التي يمثلها هذا المأثور ومبدعوه.

٥- زيادة دعم الفرق الموسيقية الشعبية التقليدية التي كونتها المؤسسات الثقافية التابعة للدولة مع التركيز على أهمية مواصلة تأهيل الأجيال الجديدة من المغنيين والعازفين في مختلف الأقاليم وإتاحة فرص العمل لهم، وتهيئة المجال لاكتسابهم الخبرة من الأجيال الأكبر سناً. مع التركيز أيضاً على أهمية تدريب وتوعية المشرفين على هذه الفرق بماهية الموسيقى الشعبية (في كل أشكالها وموضوعاتها المختلفة) دون تدخل من هؤلاء المشرفين يخل بأصول وقواعد التقاليد المتوارثة التي يقوم عليها الإبداع عند الفنانين في هذه الفرق.

الفصل الثالث

تطبيقات عملية «الدراسات»

يتبين مما سلف أن الموسيقى الشعبية المصرية تتمتع بتنوع موضوعاتها كما تتمتع أيضاً بثرأء فى تشكلاآ هذه الموضوعاآ على مساحة آمآء من أقصى البلاد إلى أقصاها . وعلى الرغم من أن التعامل العلمى مع هذا التنوع والثراء يفترض توافر خصوصية فى المنهج والمنطلق النظرى؁ فإن الواقع العلمى يشير إلى وجهة أخرى؁ فالحقيقة - ورغم كل الجهود التى بذلت فى هذا الحقل - فإن مجمل الدراسات الموسيقية المصرية المعاصرة لم تتمكن بعد من الوقوف على أرض صلبة؁ إذ أن أغلب هذه الدراسات مايزال ينطلق من مفاهيم وأفكار قديمة لم تعد تصلح للدرس المعاصر؁ وعلى هذا النحو يبدو أن ثمة لبس مايزال قائماً؁ ليس فقط فى استيعاب الحتميات التى تتصل بالمعرفة المعاصرة؛ وإنما فى استيعاب النقلة الجوهرية التى تحول بها علم الموسيقى المقارن إلى علم الأنثوموزيكولوجى . هذا اللبس وذاك اكتنف المفاهيم وأساليب التطبيق التى يعكسها التيار العام السائد للدراساآ الموسيقية الشعبية فى مصر . فمن سمات هذا اللبس أنه ظل يحدد منطلقات البحوث وأسباب اختيار موضوعاتها؁ ويعكس فى الوقت نفسه؁ سوء استيعاب لأهمية النظرة الشاملة لمقومات الثقافة التى أفرزت هذه الموسيقى؁ حتى وإن تصدى الباحثون لهذه المقومات فى فصل أو فصول مستقلة فى دراساتهم كأجزاء منهجى؛ فإنهم لا يفيدون منها ولا يسعون إلى اكتشاف العلاقاآ أو البناء الثقافى الذى تمثل الموسيقى فيه جانباً أساسياً ومهماً .

مع هذا اللبس ظهر العديد من الدراسات^(١) التى اعتمدت على ما يسمى بالتحليل العام أو التحليل الخارجى الذى يقتصر على وصف المقام وتعدد التصويت والقالب والإيقاع .. إلخ . أو اللجوء إلى طريقة المقارنة التى اعناد عليها الباحثون بين مقومات التكوين اللحنى فى كل من الموسيقى الشعبية والموسيقى الشرق عربية؁ أو المقارنة بين طرق الأداء على الآلاآ الموسيقية الشعبية وطرق الأداء على الآلاآ الموسيقية المشابهة لها فى التخت الشرقى؁ أو المقارنة بين التكوين الآلى فى الموسيقى الشعبية (الفرق) والتكوين الآلى فى التخت الشرقى؁ ناهيك عن شيوع الاتجاه الذى يقوم على فكرة الاستلهاام وتوظيف الموسيقى الشعبية وأدواتها فى الموسيقىاآ الأخرى وما نحو ذلك .

(١) على سبيل المثال انظر الحواشى من ٦٢ ص ٦٩ .

هذه المعالجات وما يشابهها تم أغلبها خارج نطاق النظرة الشاملة للموسيقا الشعبية وخارج نطاق المبادئ العلمية التأسيسية التي كان يجب الوقوف عليها لمعرفة ماهية هذه الموسيقا ووضعها في الثقافة، وربما ساعد على ذلك أن المدخل الموسيقي الفولكلوري (أو النظرة الشاملة للموسيقا الشعبية) لم يعرف إلا في نطاق محدود، وأن نواحيه التطبيقية لم تجد بعد المجال للانتشار المتسع حتى يتثنى معها تثبيت قواعدها النظرية والمنهجية بين جيل الدارسين والباحثين في هذا الفرع من الثقافة، وهو الأمر الذي يدفعنا وما يزال إلى تحيين كل الفرص والمجالات لإلقاء الضوء على الإمكانيات اللازمة لملء الفجوات المنهجية والنظرية وخاصة تلك التي تتصل بالمعرفة المعاصرة والتي من شأنها دفع تيار الدراسات الحالية تجاه التصويب والتحديث، ويدفعنا - في الوقت نفسه - إلى إلقاء الضوء على أية إمكانيات من شأنها الإفادة من التقنيات والأدوات الجديدة في هذا المجال خاصة وأن لدينا مادة غزيرة وجهود سابقة ودينامية نشطة للثقافة الشعبية من شأنها جميعاً أن توفر أساساً لدراسات وطنية وإقليمية مهمة قد تؤدي إلى فهم أعمق للموسيقا الشعبية .

من هنا خصصنا هذا الفصل لعدد من الدراسات التي تعالج جوانب مهمة تتصل بوضعية الموسيقا الشعبية في مصر، وهي دراسات سبق نشرها على فترات متفاوتة، وقد يتبين - على ضوء ما سبق - أن السبب وراء اختيار هذه الدراسات (بعد تعديل بعض الأفكار الواردة فيها) لا صلة له بمجمل التيار السائد في دراسة الموسيقا الشعبية في مصر، ومن ثم فإنها لا تمثل - من الناحية النظرية والمنهجية - إلا قنوات وتوجهات كاتبها وتمثل - في الوقت ذاته - تطبيقاً عملياً لمجمل الأفكار التي سبق طرحها في الفصل الأول من الكتاب.

وبالإضافة إلى ذلك رأينا أنه ومن الضروري التصدي لعدد من الدراسات الأجنبية فلجأنا إلى تقديم ملخصات لبعض هذه الدراسات وخاصة الحديث منها كإطالة على أحدث الأفكار النظرية والتقنية التي أصبحت - دون شك - من الضرورات العاجلة التي يعوزها هذا الحقل في بلادنا.

أولاً: الدراسات المصرية

عندما تحدثنا عن مفهوم الأداء الغنائي عند المتلقى ذكرنا أن معالجتنا لمقومات هذا الأداء تختلف عن معالجة مقومات الأداء الغنائي عند المبدعين الصفاة أو خارج نطاق الثقافة الشعبية، ومن ثم فإن الأداء الغنائي الشعبى وما يحيط به من مفاهيم محكوم بمقومات ثقافية فنية وغير فنية، وهذه المقومات هى التى تصيغ الأداء الغنائى الشعبى فى شكله ومحتواه، وهى أيضاً التى تصيغ نوع المفاهيم المتصلة به. ومن هنا عمدنا إلى عرض واحدة من الدراسات التى يتجلى فيها بيان هذه المفاهيم والمواضعات الثقافية.

(١)

الإنشاد الدينى عند المنشد الصييت^(١)

مصادر الرواية وفنية الأداء

أدت كثرة الموضوعات الموسيقية ذات الصلة بالناحية الدينية إلى اختلاف الآراء حول وضع المنشد الدينى الشعبى وحول تحديد الإطار الذى يضم موضوعاته. والتعريف بالمنشد الدينى الشعبى وفق المفهوم الذى نسعى إلى طرحه لا يأتى هنا لحسم هذا الخلاف بقدر ما أنه سعى متعمد الغرض منه توضيح الإطار الذى يتعلق بصلب موضوعنا.

والمنشد الدينى الشعبى الذى نقصده، نعرفه من خلال مادته الفنية الموسيقا وموضوعات الشعر، ومن خلال عرضنا لهذه المادة يمكن التدرج فى تحديد الخصائص المميزة لها وفق التسلسل التالى:

أولاً: الشكل الموسيقى، ويأتى فى قسمين:

القسم الأول: يعتمد على التكوينات الموسيقية غير المقيدة بوزن موسيقى قياسى (محدد وثابت) والتى تؤدى بما يعرف مجازاً بالأداء الحر، ويمثلها الموالم أو الأداء على نهجه.

(١) سبق نشر هذه الدراسة فى مجلة الفنون الشعبية - العدد ٤٢ - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٤ - من ص ٥٢ وهى مأخوذة عن فصل فى أطروحة الماجستير للكتاب عام ١٩٨٩ عالج فيها موضوع الثبات والتغير.

القسم الثانى: يعتمد على تكوينات موسيقية مقيدة بوزن موسيقى قياسي (محدد) وتأتى عادة فى ميزان ثنائى أو رباعى. وهذه التكوينات تدور عادة فى إطار فكرة لحنية واحدة تتكرر تبعاً على الوزن مع إحداث التغييرات فى مواضع معينة ووفق قاعدة فى الارتجال لها - فى الثقافة الشعبية - أنظمة مختلفة عن أنظمة الارتجال فى الموسيقى العامة.

وفى الآونة الأخيرة لجأ المنشدون إلى صياغة هذه التكوينات اللحنية فى شكل الطقطوقة (الأغنية ذات المذهب والكوبيهات) وهذا الشكل الموسيقى المؤلف. فى التكوينات الحرة والتكوينات الموزونة يستخدم فى أداء موضوعات المدائح الدينية الشعبية المختلفة ويستخدم أيضاً فى أداء القصة الدينية الشعبية الطويلة.

ثانياً: المحتوى الموسيقى

ويقصد به شكل التكوين اللحنى الذى يميز شخصية الفكرة أو الجملة اللحنية الرئيسية، سواء قبل تغييرها أو بعد أن تنمو وتتوسع. وهذا التكوين من المأثور الفولكلورى، كما أن الصياغات المستحدثة من هذه التكوينات - وإن كانت تأخذ من التقاليد الموسيقية العامة - فإن نظامها الأساسى يأتى وفق مقومات الإبداع عند المنشد الدينى الشعبى، أى أنها تعتمد على الخصائص الفنية التى تميزت بها الألحان الشعبية سواء فى عملية التنمية للحنية أو فى علاقة هذه الألحان بالوزن الموسيقى وبالتوقيع الذى يصاحبه.

وعلى نحو ما يمكن النظر إلى هذه الخصائص على أنها من مكونات القاعدة العامة التى يشترك فيها الإنشاد الدينى الشعبى مع غيره من الأنماط الغنائية الشعبية الأخرى، ولذلك ينبغى التأكيد على تميز الإنشاد بما ينفرد به من خصائص وقد يتيسر لنا ذلك إذا ما نظرنا إليه من النواحي التالية:

١ - طريقة الأداء

إذا كان الإنشاد الدينى يجرى فى ألحان فولكلورية شائعة، فإن هذه الألحان أخذت خصوصيتها من طريقة المنشد فى الأداء، فالمنشد الدينى الشعبى له طريقة متميزة فى الأداء ترتبط على نحو معين بالتقاليد التى تحكم النشأة الفنية للمنشد، وهى نشأة دينية غالباً ارتبطت بطرق قراءة القرآن بالألحان وبطرق أداء الابتهالات والتسابيح.. إلخ ولا تزال هذه النشأة بتقاليدها الفنية تحكم الكثير من العمليات

الموسيقية عند المنشد، لاسيما طريقته فى تنمية الألحان فى الإنشاد الدينى الشعبى، وكيفية إلحاق الحلية والزخرف بها وسائر التنويعات الأخرى التى تتمثل فى التمديد والتقصير ومستوى الإمالة بالحروف النغمية أو تشبيعها أو تأكيدها، ومستوى الضغوط (الثقل منها والخفيف، وكيفية اختيار المنشد لمواقعها فى الأداء، فضلاً عن تميزه فى إخراج الألفاظ ما بين حلقى وأنفى.. إلخ وتطويع هذه الناحية للعمليات الفنية السابقة). وهو ما يعرف بالأسلوب.

٢ - الآلات والأدوات الموسيقية

تميز أداء الإنشاد الدينى الشعبى (وخاصة فى بداية ظهوره فى دائرة الثقافة الشعبية) بمصاحبة نوع من التوقيع كان المنشد يصدره عن طريق نقر عصاه بمسبحته، وهذه الظاهرة أختص بها الإنشاد الدينى الشعبى دون سائر الأنماط الغنائية الشعبية الأخرى، ثم استبدل بهذه الوسيلة استخدام الآلات الموسيقية التقليدية وأبرزها السلامية والرق ثم أضيف إليها آلة العود بعد ذلك ليكتمل الشكل التقليدى الرئيسى الذى تتكون منه المجموعة الموسيقية الآلية المصاحبة للمنشد الدينى الشعبى فى الوجه البحرى.

٣ - المؤدى

ارتبط أداء الإنشاد الدينى الشعبى بالمنشدين المشائخ دون سواهم من المغنيين الشعبيين الآخرين، ويعرف المنشد الشعبى باسم الصييت والشيخ والموالدى وينادى بـ: الشيخ وسيدنا ومولانا والأستاذ. والمنشد الدينى لا يؤدى ولا يحترف إلا الإنشاد الدينى الشعبى بموضوعاته المتميزة الشائعة (القصص الدينى ومنظومات المدائح) والتى لا ينشدها سواه، ولا تدخل ضمن محفوظ أى من المغنيين الشعبيين الآخرين على نحو يمكن أن يؤثر على سلامة هذا التحديد.

أما عن المحفوظ الشعرى وموضوعاته، فلا يزال القصص الدينى الشعبى يحتل موقعاً رئيسياً فى محفوظ المنشد، ولا يزال هناك من مجالات الأداء والمناسبات ما يسمح بإنشاد هذا القصص حتى الآن وإن كان ذلك يتم فى حدود ضيقة.

وعلى الرغم مما لحق بالإنشاد القصصى من تغير (استحداث) فى الموضوعات التى يتضمنها؛ فإن هذا القصص - فى عمومه - لا يزال يعتمد فى تركيبه على عناصر فنية تقليدية وهذه العناصر هى الأشكال الشعرية التى يمثلها الموال والزجل أو

أشكال شعرية مشابهة له .

وتتكون القصة الدينية التي ينشدها المنشد الصبييت من تتابع هذين الشكلين في موضوع معين (سيرة ولي أو مولد نبي .. إلخ) ويأتى ختام القصة دائماً فى شكل الزجل أو فى شكل شعرى مشابه له .

ويأتى الموالم فى القصة متميزاً من حيث شكله الشعرى بالصيغ التقليدية التى تأتى عادة فى شطرات طويلة، وهى إحدى الخصائص البنائية التى يتميز بها الشكل الشعرى للموالم فى دلتا مصر والقاهرة مثال ذلك:

مِين يَرْحَمُ الْمَظْلُومَ مِنْ قِسْوَةِ الظَّالِمِ
زَيّْ اللّٰهِ قَصِيّ اللَّيْلِ يَتَرَجَّى فِي الْحَاكِمِ
قَلْبُهُ بِيَكِي نَدَمٍ يَارَبِّ يَا عَالِمِ
يَغْفِرُ إِلَى مَنْ عَصَى فِي الْجَهْلِ يَا عَالِمِ
كَرَامَةً لِلْحَبِيبِ النَّبِيِّ تَسَامَحْنَا يَا حَاكِمِ .. إلخ

أما الشكل الشعرى للزجل فيعتمد أيضاً على صيغ تقليدية لكنها تأتى عادة فى شطرات قصيرة، وهى أيضاً إحدى الخصائص التى يتميز بها الشكل الشعرى للزجل مثال ذلك:

فَتَحْ كِتَابِ اللَّهِ قُدَّامُهُ
عِشَانِ يَوْرَى النَّاسِ أَحْكَامُهُ
صَلُّوا عَلَى اللَّهِ مَدَحْنَا كَلَامَهُ
صَلَّى اللَّهُ عَ الْبَدْرِ وَسَلَّمْ

وعلى ذلك يأتى تركيب القصة الدينية التى لايزال ينشدها المنشد الصبييت على النحو التالى:

الوحدة { القسم الأول: (موالم، ويأتى فى الصيغ التقليدية القديمة)
القسم الثانى: (زجل، ويأتى فى الصيغ التقليدية القديمة)

وتتكرر الوحدة إلى نهاية القصة على أن يأتى الختام فى القسم الثانى من الوحدة . وهناك تقاليد فى الأداء ما تزال تحمل بعض المنشدين على أداء مقطع غنائى (غالباً ما يكون فى شكل الزجل أو فى شكل شعرى مشابه له) يأتى قبل أداء الموالم كاستهلال للقصة مثال ذلك:

أبدأ كلامي وأصلي
على النبي الهادي تملي
وأشرح لكم قصة تسلي
سمعتها من أهل زمان..

ثم ينشد بعد ذلك - شعراً - في شكل الموال هكذا.

أما عن أحداث القصة وما تتضمنه من موضوعات، فلا يزال هناك بعض من هذا القصص الديني الشعبي القديم الذي يتضمن الموضوعات القديمة التقليدية يتردد حتى اليوم ونذكر منه على سبيل المثال:

قصة الغزاة وقصة جابر الأنصاري، وقصة فضلون العابد، وقصة «زواج السيدة فاطمة الزهراء، وقصة «أبو بكر الصديق، وقصة «الغلام، وغيرها.

غير أن الغناء القصصي الديني لم يستمر على هذا الشكل، فقد تغير بسبب إضافة عناصر أخرى إلى العناصر الرئيسية التي يتكون منها الشكل العام، وأول هذه العناصر هي «السرد الذي أضيف إلى وحدة الأداء وأصبح قسماً ثالثاً فيها هكذا:

القسم الأول: مقاطع شعرية ذات شطرات طويلة.	} الوحدة
القسم الثاني: مقاطع شعرية ذات شطرات قصيرة تأتي غالباً في صيغة الزجل.	
القسم الثالث: السرد: ويأتي لاستكمال أحداث القصة وللتعقيب على أحداثها.	

وتتكرر الوحدة إلى نهاية القصة على أن يأتي الختام في القسم الثاني من الوحدة تماماً مثلما كان يحدث في الشكل القديم.

ويضاف إلى قسم السرد قراءة القرآن بالألحان، كما تتخلله أيضاً مقاطع شعرية في شكل القسم الأول والقسم الثاني، لكن يظل قسم السرد - مع ذلك - يحتفظ بخصيصة عدم الوزن الشعري وبالأداء غير الموسيقي. وثاني العناصر المضافة هي الأغاني الإذاعية الشائعة أو مقاطع منها، حيث أصبح من المعتاد أن يتخلل القسم الثاني (من الوحدة) أغان إذاعية شائعة أو مقاطع من هذه الأغاني تكون متسقة في

ألحانها ومضمونها الأدبي مع أحداث القصة، ولا يشترط في هذه الحالة أن يأتي النص الشعري لهذه الأغاني في شكل الزجل، ولا يشترط أيضاً أن تكون الشطرات الشعرية لهذا النص قصيرة.

أما موضوعات القصص فقد تغيرت أيضاً في إطار التركيب القصصي الجديد حيث شاعت موضوعات متعددة منها على سبيل المثال: قصة الملك الظالم وقصة الصابرين وقصة سالم وسالمة وقصة المبروكة وغيرها. وكل هذا القصص من صياغة مؤلفين محترفين معاصرين.

أما المحفوظ الشعري الذي يؤدي خارج نطاق القصة، فإنه يجري على نحو تنوالي فيه المواويل والأغنيات القصيرة الموزونة والموقعة، وقد تتخلل هذه الأغنيات أغنية أو أكثر مصوغة في شكل إحدى الأغنيات الإذاعية الشائعة وهي ما يعرف بالأغنية «المقلوبة» (حيث يستخدم المنشد لحن أغنية إذاعية شائعة يقوم بتغيير أو تعديل كل أو بعض كلماتها الأصلية لتناسب مع المعنى الديني الذي يساير مناسبة الأداء) ومع ذلك تظل الصيغة الأدبية للإنشاد (خارج القصة) تتميز - في عمومها - بشكلها التقليدي المتمثل في تعاقب الشكليين الشعريين الرئيسيين وهما «الموال» (الذي يأتي في مقاطع شعرية ذات شطرات طويلة) ومنظومات الأغنيات القصيرة (التي تأتي في شطرات شعرية قصيرة). وخلاصة القول في هذا إن تعاقب هذين الشكليين يأتي مشابهاً تماماً للتكوين المتبع في القصة الدينية الطويلة، ومما يزيد من درجة هذا التشابه، أن نهاية الغناء تأتي أيضاً في الصيغة الشعرية ذات المقاطع القصيرة، أي في القسم الثاني من الوحدة وليس في أي قسم آخر، ولعل الفارق الوحيد بين هذين التكوينين (في القصة وفي الإنشاد خارجها) يأتي من اختلاف الموضوعات التي يتضمنها كل من القصة والإنشاد (الذي يؤدي خارج نطاقها) إذ أن الموال الذي يؤدي خارج نطاق القصة وكذلك الأغنيات القصيرة الموزونة والموقعة تتضمنان - عادة - موضوعات المديح في الرسول «صلى الله عليه وسلم» وفي آل البيت «رضي الله عنهم».

أما مناسبات الأداء فإنها تشمل حفلات العرس والختان والحج وموالد الأولياء كما يدعى المنشدون لإحياء ليالي يقيمها الأفراد في بعض المناسبات الدينية كمناسبة الهجرة النبوية والمولد النبوي الشريف.

أما عن تحديد المرحلة التي بدأ فيها هذا الإنشاد في الظهور، فليس من اليسير الوقوف على تاريخ محدد لهذه البداية، خاصة إذا ما اعتمدنا - في هذا التحديد - على ما قدمه لنا المؤرخون والباحثون الذين عرضوا للنشاط الموسيقي في مصر، فقد قسم أولئك الإنشاد ما بين ابتهاج وذكر وتوسل وتمجيد وتسحير.. إلخ ولم يعرضوا لأى شكل من الإنشاد يحمل الخصائص التي أشرنا إليها حتى مطلع القرن العشرين. ومع أننا لسنا معنيين - في هذا المقام - بالتصدي للناحية التاريخية، فإن العديد من الشواهد تشير إلى حداثة هذا الإنشاد، وهذه الحداثة إذ لم تك تعنى شيئاً مهماً لدينا، فيما يتعلق بتاريخ ظهوره؛ فإنها تعنى - في الوقت نفسه - إمكانية وضع سياق مقبول للمراحل التي مر بها في فترة تاريخية يمكن إدراكها: إما عن طريق المادة الفنية الحية، أو عن طريق روايتها، وهذا ما أدت إليه المحاولات الميدانية في تتبعها لوضع المنشد الديني الشعبي في الواقع الفني المعاش.

فالرواة الشعبيون يقولون: إن المنشدين المشائخ في هذا القرن لم ينشدوا سوى الديني من الموشحات والقصائد ومنظومات الابتهاجات وما شابه، أما القصص الديني فقد ظهر فيما بعد. ويذكر كثير من المنشدين الشعبيين المتقاعدين - الذين أنشدوا القصص الديني - أنهم بدأوا حياتهم الفنية بإنشاد التواشيح والقصائد في بطانات المشايخ القدامى الذي تعلموا عنهم قبل أن يستقلوا بالأداء بمفردهم، ويذكر أحد مشاهير المنشدين (سابقاً) في محافظة الغربية، إن الإنشاد الديني في قريته كان يتمثل في القصائد الدينية والمدائح النبوية التي اعتاد المشايخ على ترديدها في مجالس الذكر، أما ما كان يتردد من إنشاد خارج الذكر فهو الموشحات والابتهاجات وقصة المولد النبوي الشريف وكان ينشدها المشائخ مع بطاناتهم دون أن يستعينوا بأية آلات أو أدوات موسيقية على الإطلاق. ويضيف راوي آخر: إن هناك من الفقهاء المشائخ من كانوا ينشدون قصصاً يتناولون فيه مآثر صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل قصة زواج الإمام على وقصة أبو بكر الصديق وقصة الهجرة وغيرها. وكان أولئك المنشدون من المشائخ الفقراء، ولم يك إنشاد مثل هذا القصص شائعاً لدى المشائخ قبل سنة ١٩٢٥م على وجه التقريب، لكنه بدأ ينتشر بعد ذلك ويدخل في ميدانه بعض المشائخ المقتدرين والمشهورين في فن الإنشاد، ويضيف الراوي: إن الناس كانوا يقبلون على الاستماع إلى إنشاد الموشحات والابتهاجات أكثر

مما كانوا يقبلون على الاستماع لقصص المشائخ الفقراء. كما كان لقصائد الذكر ومدائحه جمهوراً كبيراً أيضاً حتى الخمسينيات من القرن العشرين، ثم بدأ إنشاد الموشحات يتقلص في القرى وراح كثير من المنشدين وبطاناتهم يقلدون المشائخ الذين سبقوهم إلى ميدان القصص والأغاني والمواويل القصيرة، ولم تعد التواشيح والقصائد والابتهالات الدينية تسمع أو تتردد بعد ذلك إلا في محطات الإذاعة.

ويؤكد الرواة (من المنشدين المتقاعدين) أن هناك مصدرين رئيسيين كانا يمثلان المدرسة الحقيقية التي تعلموا فيها الإنشاد:

المصدر الأول: الإنشاد في مجالس الذكر.

المصدر الثاني: الإنشاد الديني من القصائد والتواشيح فضلاً عن الابتهالات وما شابه.

ومما هو جدير بالذكر أن هذه التأكيدات تنسب إلى عدد من المنشدين المتقاعدين الذين ينتمون إلى مناطق مختلفة في دلتا مصر، وأن أعمارهم - وقت أن التقينا بهم (قبل عام ١٩٨٥) كانت تتراوح ما بين الخامسة والستين والخامسة والثمانين عاماً وقد قضوا سنوات عديدة ينشدون التواشيح والقصائد، ثم اتجهوا - بعد ذلك - إلى إنشاد القصص الديني الشعبي والأغنيات والمواويل القصيرة، واستخدموا الآلات الموسيقية لتصاحبهم فيما بعد، وأولئك الرواة المنشدون هم الذين يمكن أن نطلق عليهم اسم المنشدين الشعبيين، القدامى، بالقياس إلى المنشدين الشعبيين المحدثين، وهم أي المنشدين القدامى الذين أدت جهودهم الفنية - في مجال الإنشاد - إلى إحداث ما يمكن أن نسميه بالتحول عن التخصص في نمط معين من الغناء (كان متمثلاً في إنشاد التواشيح والقصائد والابتهالات) إلى نمط آخر (يتمثل في القصص والأغنيات والمواويل القصيرة مع استخدام الآلات الموسيقية) وبفضلهم راحت تتولد - فيما بعد شيئاً فشيئاً - تقاليد جديدة في الأداء مغايرة لطريقة أداء الموشح ومختلفة عن طريقة الإنشاد في الحضرة الصوفية، وراحت تزيد من الأخذ من تقاليد الثقافة الشعبية في الموسيقى والأدب، كما راحت تستفيد من معطيات الموسيقى الأخرى غير الدينية وغير الشعبية.

لقد أكدت تجربة البحث في موسيقى الإنشاد الديني الشعبي ووضع إطار لموضوعاته ولمؤديه، أن هذه الموسيقى لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً إذا أخذت

بالبساطة نفسها التي تبدو عليها أحياناً، فعلى الرغم من أن الإنشاد مرّ بمرحلتين منذ ظهوره في الحياة الموسيقية الشعبية؛ فإن النظم المتعددة والمتداخلة التي تحكم العملية الموسيقية الشعبية تجعلنا لا ننظر إلى هذه المراحل (التي مرّ بها الإنشاد) بمثل هذا التحديد، فالمرحلتان متداخلتان، ولا يعرف أحد - على وجه الدقة - متى انتهت المرحلة الأولى، ولا من أين بدأت المرحلة الثانية، وكيف أخذت من سابقتها، وما الذي أخذته وما الذي أضافته، ولماذا تأخذ، ولماذا تترك؟ إلى آخر هذه التساؤلات الإشكالية التي أثارها الفولكلوريون الذين شغلوا بهموم هذا الميدان وقضاياها.

على أن المشكلات لم تقف عند هذا الحد، فهي تجلياتها تأخذ صوراً أخرى عند تناول المادة الفنية الحية، إذ أن لموسيقا الإنشاد الديني الشعبي طبيعة خاصة يصعب معها الفصل بين «عناصر البناء وتنوع الأداء» كما يصعب تحديد أي الجانبين أكثر تأثيراً في تكوين الشكل، وإذا ما أمكن الوقوف على هذا التحديد عند نمط معين من المنشدين فإن الأمر يتعذر عند نمط آخر منهم.

وعلى أي الأحوال فإذا كانت موسيقا الإنشاد الديني «الشعبي» تغلق أحياناً المداخل المباشرة لفهمها، فإن الرواة كانوا - وما زالوا - محوراً رئيسياً في فهم حقيقة المسألة والحديث عن نشاطهم الفني - عبر أزمنة متعاقبة أو متفاوتة - يعني بدرجة كبيرة الحديث عن الأداء ومقوماته والإبداع وصوره المتعددة عبر هذه الأزمنة. ولتأكيد سلامة الاقتراب من هذه الناحية كان من الضروري الوقوف على ظروف النشأة الفنية وعلى السبل التي تتبع لتكوين المحفوظ الفني لدى هؤلاء المنشدين.

المنشد التقليدي القديم:

لم ينشأ المنشد التقليدي القديم - في الغالب - في أسرة يحترف أحد أفرادها الإنشاد، أو في أسرة تهتم بالضرورة بهذا النوع من الغناء، وإن كان في المقابل هناك من المنشدين من توارث المهنة، لكن الغالب - فيما يتعلق بالنشأة أو بنوع المعرفة لدى المنشد - أن يكون ثمة توجه إلى التعليم الديني قد تم منذ الصغر، والكتاب أول مصادر هذه المعرفة بعد البيت، حيث يتم حفظ القرآن أو جزء منه، فضلاً عن تلقين بعض المعارف الدينية مثل فرائض الصلاة، وفي مراحل لاحقة ربما يتم تلقين شيئاً من قصص الأنبياء. غير أن قسماً معلوماً من التعليم الديني (حفظ القرآن وبعض المعارف الدينية) لدى أغلب المنشدين - لم يكن محدداً بما يلزمه الكتاب أو حتى بما

كانت تقدمه المدارس الأزهرية فيما بعد، بقدر ما كان محدداً ومرهوناً برغبة الفرد وينزوعه إلى مثل هذا النوع من المعرفة، من ناحية، ومرهوناً أيضاً بالظروف الاجتماعية والاقتصادية التي عاشها المنشد في صباه من ناحية أخرى. وعلى أية حال فإن هذا القسط من المعرفة الدينية عند المنشد كان يتراوح بين المعرفة التي كان يقدمها الكتاب والمعرفة التي كانت تقدمها المدارس الأزهرية المتوسطة في ذلك الوقت، وقليل من المنشدين القدامى من كان منشغلاً بمجالات أخرى من التعليم أو المعرفة، فليس لدينا معلومات مؤكدة عن أن هناك من المنشدين القدامى من كان منشغلاً أو مهتماً بالعلوم الهندسية أو الرياضية مثلاً، أو التحقق بالتعليم العام حتى نهايته. وربما يرجع ذلك إلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي أحاطت بنشأة المنشدين القدامى والغالب أن أكثرهم نشأوا في الريف حيث كانت ثقل مثل هذه الفرص مقابل سيطرة التقاليد التي كانت تسهل للأبناء - في المجتمع الريفي على وجه الخصوص - التوجه إلى التعليم الديني أكثر من التوجه إلى التعليم العام، ولا يعني ذلك أن التوجه الطبيعي بعد نيل هذا القسط من التعليم الديني يكون بالضرورة إلى مجال الإنشاد، فكثير من أساطين العلم في مصر بدأوا بالتعليم الديني في الكتاب أو بدأوا حياتهم المعرفية بحفظ القرآن قبل أن يحفظوا أو يتعلموا شيئاً آخر، بل ما تعنيه هو أن التعليم الديني الذي كان الفرد يتلقاه منذ الصغر على يد الشيخ المعلم في الكتاب أو في المنزل، كان يمثل مرحلة معلومة من المعرفة كانت تكفي - مع بعض من الخبرة المتواضعة - لأن تكون مورداً للرزق، فكثير من الأفراد، ومنهم المنشدين في بداية الأمر، احترفوا قراءة القرآن في المساجد وفي المآتم وجعلوا من الرواتب، في البيوت وفي الدكاكين مصدراً للعيش وكان هذا القدر من المعرفة الدينية بداية لكثير من القراء الذين ذاع صيتهم فيما بعد في مجال تلاوة القرآن، وكان أيضاً بداية تقليدية لغالبية المنشدين القدامى، فهذا القدر من المعرفة الدينية (التمثل في حفظ القرآن أو جزء منه) ساهم كثيراً في تشكيل الإطار المعرفي والمرجعي الذي ظل المنشد يعتمد عليه فيما بعد في فهمه للعمليات الموسيقية من ناحية وفي تصوره للموضوعات الدينية التي ينشدها للناس من ناحية ثانية.

إلا أن التوجه الفني وتمثل الموسيقى لا يعزى برمته إلى ظروف التعليم الديني وحده، وإنما هناك بلا شك دوافع أخرى وراء ذلك. فالرواة يؤكدون أن الطموح

الشخصى ساهم مساهمة أساسية فى تشكيل الشخصية الفنية للمنشد، والبداية أن تكون هناك هواية قد تولدت لدى الفرد عندما التقى بالإنشاد فى مناسبة ما، ويبدأ بعدها الفرد فى متابعة المنشدين، ولا ينتظر حضورهم إلى قريته أو إلى حيث يقيم، وإنما يسعى إلى حيث ينشد المنشدون فى الأفراح وفى الموالد والليالى الدينية.. إلخ، وفى كل مرة يستمع فيها إلى الإنشاد يحفظ منه ما يستطيع ويحاول أن يردد ما سمعه لنفسه أولاً ثم يردده بعد ذلك للأفراد المقربين إليه أو المحيطين به، وتلك هى البداية أو الخطوات الأولى فى سبيل التعليم وفى سبيل اكتشاف خبايا هذا الفن والتعرف على تقنياته كما يقول الرواة.

المحفوظ القصصى ومنظومات المدائح:

لم يكن هناك من يكتب أو يؤلف القصص والمواويل خصيصاً للمنشدين القدامى، وإنما كان المحفوظ الشعري يتكون لديهم بطريقتين، الأولى: بنقله عن المنشدين الآخرين الأكثر قدماً وحفظه عن طريق الاستماع إليهم. والثانية: بحفظه من الكتب. ويقول الرواة: إن هناك كتيبات صغيرة كانت تباع فى المكتبات وفى الموالد بخمسة مليمات ومن هذه الكتيبات ما كان يحتوى على قصة واحدة مثل قصة الغزالة أو قصة الغار مثلاً، ومنها ما كان يحتوى على أكثر من قصة، كما كان هناك كتيبات تحتوى على قصائد المدائح النبوية.

وبجانب ذلك يقول الرواة: إن بعض المنشدين كانوا يؤلفون بعض الشطرات الشعرية من قبيل التعديل فى النص (القصة أو الموال) الذى قرأوه من الكتب أو الذى حفظوه عن سبقيهم من المنشدين، ويفسرون ذلك بأن هناك بعض الكلمات أو الشطرات قد لا تعجبهم فى النص أو لا يستريحون لها أثناء الأداء، أو قد لا تكون مناسبة لمقام الحفل أو مناسبته، ومن ثم يغيرونها بكلمات أو شطرات أخرى. ومن الرواة من يقول إنهم كانوا يطولون أو يقصرون فى النص وفق ما يرونه مناسباً للأداء الموسيقى ومنهم من كان يغير فى أجزاء من النص لأنها -كما يقولون- لم تكن تصلح للغناء وإن هذا التغيير أو التعديل كان يتم أثناء الأداء غالباً، وهو أمر كانوا يجدونه سهلاً خاصة إذا كان النص مصاغاً فى الزجل، لأن التغيير أو التعديل فى الزجل أسهل بكثير من التغيير أو التعديل فى الشعر الآخر (الفصحى العمودى) على

حد قولهم، فالزجل كله من باب واحد ويسهل قلب كلماته (تغييرها أو تعديلها) بكلمات أخرى.

ويتميز المحفوظ الشعري - عند المنشد القديم - بشيوعه وعدم ارتباط موضوعاته بمنشد بعينه، فقصّة «فضلون العابد» و«زواج فاطمة الزهراء» إلخ لم تكن خاصة بمنشد معين دون الآخر، وإنما كانت من الموضوعات الشائعة التي ينشدها كل المنشدين الشعبيين، وكذلك الحال فيما يتعلق بالكثير من الماويل والقطايق الدينية التي كانت تنشد في مناسبات مختلفة في ذلك الوقت، ويبقى معيار الاختلاف محدداً في أن لكل منشد شخصية فنية تختلف عن شخصية المنشد الآخر، سواء في نوع صوته وإمكاناته أو في قدرته على الأداء المتواصل دون مساعدة من أحد تلاميذه، أو في مدى اعتماده على «العدة» (الآلات الموسيقية) أو في «الشطارة» (المقدرة الموسيقية) .. إلخ وهي الفروق نفسها التي تعزز مكانة منشد معين عند الجمهور دون منشد آخر.

هذا وقد يتسع المحفوظ الشعري لدى المنشد ليشمل أنواعاً أدبية أخرى (غير دينية)، وثمة ملاحظة حول هذا الأمر تعود إلى زمن منشد الديني من التواشيح والقصائد، فالعادة أن هذا المنشد كان - بعد أن ينتهي من أداء التواشيح والقصائد - يسأل الناس (في آخر الليل) عما يريدون سماعه بعد ذلك، وكان يحدث أن يطلب بعض الحاضرين شيئاً من الغناء الشرق عربي، وخاصة الأغنيات أو الأدوار التي لاقت إعجاباً منهم في زمانها، وعلى المنشد - تبعاً لذلك - أن يكون مستعداً لتلبية هذه الرغبة لجمهوره، وخاصة إذا كان هناك إجماع منهم على سماع أغنية بعينها أو دور بعينه. والواقع أن هناك من المنشدين - في الزمن الماضي - من كانوا معروفين بحسن صوتهم وبمقدرتهم على أداء أغاني وأدوار مشاهير المطربين في مجال الأغنية الشرق عربية، وأولئك كانوا يحرصون على حفظ وإجادة أداء الأغنيات أو الأدوار التي لاقت قبولاً ونجاحاً عند الجمهور، ويبدو أن هذا الحرص أصبح تقليداً لا يزال سارياً حتى الآن، ليس بسبب الاستعداد لتلبية رغبات الجمهور فحسب، وإنما لأن المنشدين يرون في ذلك وسيلة من وسائل التدريب على الأداء الموسيقي.

المحفوظ الموسيقي والتقنيات:

قبل أن يتحول المنشد الديني القديم إلى إنشاد القصص الديني الشعبي

والطقاطيق والمواويل القصيرة، وقَبِل أن يلجأ إلى استخدام الآلات الموسيقية.. إلخ كان ينشد التواشيح والأدوار القديمة ومنظومات المدائح والقصائد التي كانت تؤدي في مجالس «الذكر الصوفي»، فإذا ما استثنينا هذا الأساس الموسيقي الذي نشأ عليه أغلب المنشدين القدامى، واستثنينا أيضاً الأساس الموسيقي الذي يتحصل عليه المنشدون من أغاني مشاهير المطربين في مجال الأغنية الشرق عربية، إذا ما استثنينا هذا الجهد الفردي الخاص؛ فإننا لا نستطيع القول إن هناك وسائل منظمة لنقل الخبرة الموسيقية أو للتدريب على طريقة الأداء.. إلخ ذلك أن الخبرة كانت تنتقل من خلال الإصغاء لمشاهير المنشدين أو من خلال العمل في بطاناتهم (كورس) ومن ثم كان يتم حفظ الموشح أو الدور أو القصة.. إلخ.

والواقع أن التقاليد الفنية للإنشاد الديني الشعبي القديم لا تعرف نظاماً محدداً للتعرف على الموسيقى وتقنياتها مستقلة عن النصوص الشعرية التي تصاحبها، وهي القاعدة نفسها التي التي يخضع لها المأثور الغنائي الشعبي بصفة عامة. أما ما يخص الإنشاد في هذا الشأن، فإن للقصة طريقة معينة في الأداء وللموال طريقة معينة أخرى، أو بالأحرى هناك مداخل موسيقية لهذه الصيغ الأدبية متعارف عليها لدى المنشدين (وهي التي تميز الإنشاد عن سائر الأنماط الغنائية الشعبية الأخرى)، وإن عالم الموسيقى وتقنياته - عند المنشد القديم - لا يخرج عن كونه طريقة في الأداء، حتى التسميات والاصطلاحات الفنية التي كانت متداولة عند المنشدين القدامى والتي كانت تعنى عندهم دلالة موسيقية، كان أغلبها تسميات ومصطلحات لا صلة لها بالمفاهيم الموسيقية العامة (المتعارف عليها خارج دائرة الموسيقى الشعبية) وإنما هي تسميات ومصطلحات خلقتها ضرورة العمل وتقاليده المهنة، ولذلك نجدهم يستخدمون مصطلحات مثل «شلت عنه» أي حفظت عنه و«وش العمل» أي بداية الغناء و«أقول من دماغى أو من نفسى» أي من تأليفى و«يولد أو مولد أي منشد السيرة النبوية، و«القولة» وتعنى أداء مقطع كامل وتعنى أيضاً طريقة الأداء، وقد تستخدم أحياناً فتعنى لحناً معيناً، و«بارزه» أي خرج عن اللحن أو الطبقة الصوتية بمعنى نشاذ». وبجانب ذلك يعرف بعض المنشدين كلمات مثل «الطبقة» و«المقام»، لكنهم يستخدمونها بمعنى واحد، وقليل من المنشدين القدامى من يعرف أسماء الأوزان الموسيقية، وقليل منهم أيضاً من يعرف أسماء المقامات الموسيقية اللهم اسم

«الراست» و«السيكاه» وتعنى عند كثير من المنشدين درجات للركوز ودرجات للانطلاق اللحنى أيضاً أكثر من كونها تعنى سلاسل مقامية ذات طابع لحنى مميز، وإن كان من المنشدين القدامى المقتدرين من يعرف - عن طريق الخبرة السمعية - كيف يلون الدرجات الموسيقية وينتقل من مقام إلى مقام آخر دون أن يعرف لذلك قاعدة أو تنظيراً دقيقاً، وكثير من المنشدين يرى أن قراءة القرآن - فى بداية مراحل التعليم - كان لها الفضل الأول فى تكوين هذه الخبرة الموسيقية.

ولا يتوقف اكتساب الخبرة الموسيقية على متابعة المنشد المعلم والإصغاء له أو من خلال العمل فى بطانته فحسب؛ بل هناك مجالات أخرى للتعليم واكتساب الخبرة، يقول الشيخ أحمد مدبولى (وهو منشد متقاعد) إنه حفظ عن الشيخ محمد عبد ربه قصة المولد النبوى الشريف كاملة قبل أن يقرأها من الكتاب، وحفظ عنه كثيراً من الموشحات والقصائد والمواويل التى كانت شائعة فى ذاك الوقت، وإن حفظه لهذه الموضوعات لم يتم خلال الأداء الحى أمام الجمهور فحسب وإنما كان يتم أيضاً فى منزل الشيخ المعلم.

كان الشيخ أحمد يجلس إلى معلمه يسمعه «كلاماً جديداً ويلون فى القول» وكان يطلب منه أن يعيد عليه ما قاله عدة مرات ثم يدلى إليه بملاحظاته دون أدنى مجاملة، فكان يقول: «لا يا شيخ أحمد، دى تبقى كدا..» وبعدين تقول اللى بعدها كدا..، سمعنى بقى يا شيخ أحمد، وبعد أن يسمعه يقول الشيخ المعلم: «الله الله ياوله، أيوه كدا، بس يا ريت الحبة دى تطولها شويه كدا..» (وينشدها له بصوته لكى يوضح)، وهكذا.

المنشد الجديد/ المعاصر:

إذا كان المنشدون القدامى (المتقاعدون) هم الذين حددوا لنا كيف نشأ المنشد التقليدى القديم، وحددوا لنا الهوية الفنية التى تميز بها؛ فإن التعريف بالمنشد الجديد/ المعاصر له نهج آخر، لن يعتمد فقط على الروايات أو الشواهد التى تقدم فى حوار، فالوضع هنا مختلف، إذ أن المنشد الجديد المعاصر ما يزال يواصل إبداعه فى مجالات الغناء. وتؤكد الملاحظة الميدانية أن الساحة الفنية الشعبية تشتمل على جيلين من المنشدين:

الجيل الأول: أكبر سناً من الجيل الثانى وينتمى إلى المدرسة التقليدية القديمة

فى كىففة التعلّم وفى مصادر المعرفة الأساسية، وعلى الرغم من أن منشدى هذا الجيل قد حددوا وغيروا فىما كانوا يقدمونه من أعمال، وراحوا يندمجون مع موجات الاستحداث الموسىقى فى مجال الإنشاد؛ فإن تميزهم وسط المحدثين من المنشدين (الأصغر سناً) لا يزال أمراً ملحوظاً. ويزعم المنشدون (الأكبر سناً) أن الإنشاد القديم الذى نشأوا عليه وتعلموه ونقلوه عن المشايخ القدامى لا يزال يشكل عندهم رافداً فنياً مهماً ومؤثراً، بل إن معيار التميز والمقدرة الفنية عند هذا الجيل (الأكبر سناً) يستند إلى مدى تمثل المنشد لهذا الرافد القديم (التقاليد الفنية القديمة) وإلى مدى معرفته واستفادته به.

أما الجيل الثانى (الأصغر سناً) فينتهى إلى ما يمكن أن نسميه: مدرسة «الذكر السلطانى»، ويعرف عن هؤلاء المنشدين أنهم لا يؤدون القصص الدينى الشعبى، وأن تخصصهم فى الأداء قاصر على المواويل والأغنيات القصيرة الموزونة التى يؤدونها فى إطار حلقات الذكر التى تقام خارج المساجد وخارج نطاق تقاليد الذكر لدى الطرق الصوفية. كما يعرف عن منشدى الذكر السلطانى أيضاً اعتمادهم - فقط - على إحداث عمليات فى الموسيقى من شأنها تصعيد ما يسمى بحالة «السُّلْطَنَة» عند مواضع معينة فى الأداء، وهو الأساس الذى يقوم عليه هذا التخصص المحدود فى إطار الإنشاد الدينى الشعبى، وهو أيضاً معيار التميز عند هذا الجيل من المنشدين. وعلى أية حال فالملاحظة الميدانية تؤكد أن المنشد الجديد المعاصر (الأكبر سناً والأصغر سناً) قد لعب دوراً واضحاً فى مجال الإنشاد الدينى الشعبى المعاصر وإن إسهاماته فى مجال التغيير والتحديث أمر مؤكد لا شك فيه.

وقليل من المنشدين المعاصرين (الجيل الأول والجيل الثانى) من توارث المهنة عن أحد أقربائه، وإنما كانت الهواية والولع بالغناء وحسن الصوت وتشجيع المقربين هى أكثر الدوافع تأثيراً فى توجيههم إلى مجال تعلم الإنشاد واحترافه، ومع ذلك لا يمكن إغفال أثر الظروف الاجتماعية وكل الظروف المتعلقة بأحوال المعيشة على توجه الأفراد إلى هذه المهنة بالذات.

كان التعليم الدينى منذ الصغر (حفظ القرآن وقراءته بالأحضان) من المقومات الرئيسية التى ساعدت كثيراً فى تكوين الشخصية الفنية لكثير من المنشدين المعاصرين وخاصة أبناء الجيل الأول (الأكبر سناً). يقول أحد الرواة (من الجيل

الأول): «إن موضوع الإنشاد كان في دمه منذ الصغر، ولم تتح له ظروفه الاقتصادية أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية فاتجه إلى حفظ القرآن في المسجد، ويقول: «إن أهم شيء في مجال الإنشاد أن يكون المنشد قد حفظ القرآن أولاً. وهنا يجدر التوقف قليلاً عند هذا القول الذي أجمعت عليه الغالبية العظمى من المنشدين وهو: «ضرورة أن يكون المنشد قد حفظ القرآن أولاً، والمعنى ليس الحفظ في ذاته فحسب؛ وإنما القدرة على تلاوة هذا الحفظ تلاوة مجودة (أى بالألحان) وهى الناحية التى ثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أن مجال الإنشاد استفاد منها، بل وأنها - بجانب ذلك - امتدت إلى العديد من العمليات الموسيقية خارج النطاق الدينى وهذا موضوع آخر قد تقصينا الاستفاضة في بيانه عما نراه جوهرى في هذا السياق، والملاحظة التى استوقفتنا والتى لم يستطع المنشدون والمقرئون تفسيرها تفسيراً دقيقاً هي: أن ما من مقرئ متمكن من التلاوة بالتجويد إلا ولديه قدرة فائقة على الغناء، بينما لا يمتلك كل مغنى مقتدر القدرة على تلاوة القرآن بالتجويد.

والتجويد في اللغة نقيض الردىء، وهو في الاصطلاح يعنى تلاوة القرآن بإعطاء كل حرف حقه في مخرجه وطبقته اللازمة إلى آخر هذه الصفات وإن تعلمه يتم بالتلقين من أفواه المشائخ العارفين بطرق التلاوة المتعددة. ومن الناحية الموسيقية فإن التجويد يتشكل من فواصل بالغة الحدة والغلط، ولا يكون الوزن فيه منتظماً كما هو الحال في أوزان الموسيقى، وإن كانت الوقفات - مع ذلك - متكررة دائماً ومنتظمة التوقيت أحياناً وغير منتظمة أحياناً أخرى.

ولا يصح القول - من الناحية الفنية - أن هذا الشكل يتخذ من الارتجال قاعدة أساسية لبناء الألحان، ذلك أن الارتجال يبيح استخدام كافة العناصر الموسيقية ويخضعها لآليته، وبذلك تتسع دائرة الاختيارات التى يستفاد منها بهذه العناصر المتعددة وتطويعها لخدمة الأداء الحى، ووفق هذه القاعدة لا يعتمد الأداء على الإعداد والتفكير المسبق الذى يحدد نظام البناء الموسيقى، إذ يكفى - في هذا الأداء - تمثل المؤدى للعمليات الموسيقية التى تجرى عادة في هذا الإطار، وعلى ذلك فإن هذه العمليات لا تأتى متطابقة في حالة إذا ما تكرر أداء الشكل المرتجل.

والتجويد لا يعتمد على كافة العناصر الموسيقية، فالميزان غائب دائماً والتوقيع غير وارد على الإطلاق، وتعدد المقامات غير مستحب، والأداء فردى بالضرورة، فلا

تعدد فى التصويت بأى صورة من صورة، ولا يصح تحريك النغمة صعوداً أو هبوطاً بطريقة التسلسل السلمى المباشر الصريح، فهذه الكيفية غير مستحبة فى التجويد لأنها من سمات الطرب، ولأن الصعود أو الهبوط بالنغمة أمر وارد فى التجويد؛ فلا بأس من تحقيق هذا الغرض بطريقة القفز المباشر، أو بالارتكاز على بعض الدرجات فى السلم، إلى آخر هذه المحاذير والنظم التى ترسم الخط الفاصل بين قواعد التجويد وقواعد الارتجال.

وإذا ما توخينا الدقة فى تحديد العلاقة بين القاعدتين، أمكن القول: «إن التجويد يعتمد على بعض خصائص الارتجال وليس جميعها، وعلى وجه التحديد، الخصائص التى يستفاد بها فى رسم مسار الألحان، وفى تحرير النغمات من تبعية الزمن الذى يستجبه الوزن الموسيقى».

وعلى ذلك فإن السبب الجوهرى وراء إشارة المنشدين إلى أهمية حفظ القرآن (أو التدريب على تلاوته مجوداً) يأتى من أن التجويد يضع المنشد/ المقرئ، بين حدين كلاهما صعب، إذ أن عليه أن يظهر مهارة خاصة فى كيفية استخدام عناصر موسيقية محدودة وفق نهج تقليدى محدد تتسق فيه الأنغام ولا تتنافر من ناحية، ومن ناحية ثانية، على المقرئ أن يكبح جماح خواطره الموسيقية ولا يلجأ إلى استخدام العناصر الموسيقية التى لا تليق بالتجويد، وتلك عمليات لا يسهل مقاومتها أو السيطرة عليها فى بعض الأحيان، والوقوع فى دائرتها يعد خطأ فادحاً.

والواقع إن إجماع الرواة على أهمية أن يكون المنشد قد حفظ القرآن أولاً (تدرب على التلاوة بالتجويد) حتى يكون متمكناً من أدواته؛ فيه إجحاف لبقية المصادر المرتبطة بالنشأة الدينية للمنشد، فالمنشد الذى تعلم التجويد لابد أن يمر ببقية المقررات التى تستوجبها العمليات الموسيقية المرتبطة بهذه الدائرة، ونقصد بذلك أن المقرئ لابد أن يكون له باع فى مجال الابتهاالات والتسابيح وما نحو ذلك.. وأهمية هذا المجال أنه يجمع - فى آن واحد - بين فائدتين، الأولى: انتقاء بعض العمليات الموسيقية المتبعة فى الغناء عامة، حيث يفتح فى هذه الحالة التنوع المقامى والإكثار من الحليات والزخارف النغمية، واستخدام التسلسل السلمى فى كل صوره التى تتيحها نظم الصعود والهبوط بالنغمة، والاستفادة من الوزن الموسيقى الذى تستدعيه الصياغة الشعرية لنصوص الابتهاالات والتسابيح وغيرها من نصوص القصائد الدينية

المستخدمة فى هذا المجال .

أما ثانى الفوائد فإنه يتمثل فى النظم الدقيقة المتبعة فى التجويد والذى يظل أسلوب المنشد متعلقاً بها، خاصة فى كيفية اختياره للمسار الموسيقى وفى تحديد المواضع الموسيقية المناسبة لإحداث أى تلوين مقامى أو أى انتقال مقامى مباشر . وعلى الرغم من أن أحاديث أغلب الرواة - عن أهمية النشأة الدينية الأولى (حفظ القرآن وتلاوته بالتجويد) - لم تكن تشير بدقة إلى العلاقة الفنية الممتدة بين هذا المنبع والإنشاد الدينى؛ فإن محصلة العلاقة كانت - وما تزال - ممثلة خير تمثيل فى أساليب الأداء وفى طرق العمل الموسيقى لدى هؤلاء الرواة، ويبقى أن عدداً قليلاً من المنشدين (الرواة) كان يدرك وضعية هذه العلاقة ويعي آثارها الفنية، بينما ظل السواد الأعظم من المنشدين ينظرون إلى النشأة الفنية الأولى (التلاوة بالتجويد) على أنها حلقة من حلقات التسلسل المعرفى الواجب تحصيله فى نطاق التعليم الدينى الذى كان متاحاً فى ذلك الوقت، وأن هذه المعرفة فى ذاتها كانت تكفل لهم مورداً للرزق فى بداية حياتهم العملية حينما احترفوا قراءة القرآن .

يقول الراوى نفسه: إنه - بعد أن ترك التعليم بالمدرسة الابتدائية واتجه إلى حفظ القرآن كان عليه أن يساعد فى إعالة أسرته، فأتجه إلى عمل «الرواتب» فى البيوت وفى الدكاكين، ثم عمل فى إحياء الليالى الدينية مع الهواة حتى استطاع أن ينشد فى مجالس الذكر تارة وينشد ضمن «بطانة» أحد المنشدين المشائخ تارة أخرى وأحياناً كان يقف وينشد منفرداً إلى أن أكرمه الله (كما يقول) وأصبح «صبيئاً» مستقلاً ومعروفاً .

ويتابع الراوى فيقول: إنه استمع للعديد من «الصبيئة» فى الزقازيق وفى بلاد أخرى، وإنه أعجب بكثير منهم، وحفظ الكثير مما كانوا ينشدونه؛ لكنه - وكما يقول - لا يستطيع أن يتجاهل فضل من علموه (ويخص بالذكر اثنين منهم) . ويقول عن علاقته بأحد معلميه: إنه كان يجلس «تحت باطه» دائماً حيث كان يصغى إلى أحاديثه وإلى ملاحظاته التى كان يدلى بها للبطانة فكان أول من يأخذ بهذه الملاحظات، وأول من كان يعمل بالنصائح فازداد إعجاب معلمه به ومن ثم كان ينال منه رعاية كبيرة ومتميزة، حتى جاء وقت كان فيه بمثابة ذراع الأيمن، وشيئاً فشيئاً كان المعلم يدفع به لينشد منفرداً أمام الجمهور (أثناء راحة المعلم) .

ويقول راوينا: إن هذا الاهتمام شجعه على أن يبحث عن القصص والمذائع في الكتب التي كانت متاحة وقتذاك، وكان عندما يحفظ نصاً أو يأتي إلى خاطره مقطع لحنى جديد، يجرى إلى معلمه ليسمعه ما حفظ وينشد عليه ما جاء بخاطره من نغم، بل كان - كما يقول - يصغى إلى إنشاد المنشدين الآخرين، وإذا سمع منهم نصاً جديداً أو طريقة جديدة في «القواله»، راح إلى معلمه لينقل إليه ما سمع.

عمل راوينا منشداً مستقلاً «بالعدة» بعد أن انفصل عن بطانة معلمه فقد اتسعت له قاعدة المعجبين والمستمعين وبدأ يدعى ليحى الليالى وحده، لكنه - وكما يقول - لم ينقطع عن معلمه حتى توفاه الله.

وهناك تشابه كبير في ظروف النشأة التي ينمو فيها الاستعداد الفنى للمنشد المتميز (من أبناء الجيل الأول) والتي تتبلور فيها قدرته الفنية وتصلق ولدينا روايات متعددة في هذا الخصوص كلها تؤكد هذا التشابه، وتشير - في الوقت نفسه - إلى أن تشابهاً في تقنيات العمل الموسيقى - عند جيل المنشدين المعاصرين (الأكبر سناً) - يعود بلا شك إلى مدرسة واحدة في النشأة وفي التعليم.

يقول أحد الرواة: إنه حفظ القرآن في قريته بمحافظة البحيرة وهو صغير وكان يجوده بصوته الجميل، ثم تعلق بعد ذلك بفن الإنشاد الذى كان يردده المنشدون على «الثلت والعصاه» (نقر العصا بالمسبحة) وقد أبهره في ذلك منشد من المنطقة نفسها كان ذائع الصيت حينذاك. لقد استطاع الراوى - وهو فى الخامسة عشرة من عمره، كما يقول - أن يحفظ عن ظهر قلب العديد من القصص الدينى والمواويل والأغنيات القصيرة عن المنشدين الذين كانوا يترددون على قريته، بل انه كان يقطع المسافات الطويلة سيراً على قدميه ليستمع إلى منشده المفضل فى إحدى القرى البعيدة عن قريته، وكان لتأثره بهذا المنشد إنه اشتهر بين زملائه فى المدرسة بتقليد طريقته فى الأداء، كما اشتهر أيضاً بمهارته فى تقليد من ذاع صيتهم من المنشدين فى ذلك الوقت. أما كيف احترف مهنة الإنشاد؛ فهذا يعزى - كما يقول - إلى شجاعته وجراته، وإلى تمكنه من فنه وثقته فى نفسه وحب الناس لصوته ولطريقته فى الأداء.

ومما لا شك فيه أن مقومات النشأة الفنية التقليدية من شأنها أن تخلق منشداً عارفاً بأصول هذا الفن ويتقاليده (أمثال المنشدين الذين نقلنا عنهم بعض الروايات) أكثر مما تهيوه مقومات الحياة الفنية المعاصرة التي أخذت منحى جديداً، حيث يبدو

- مع ذلك - أن مقومات النشأة الفنية القديمة التى تؤسس قدرات المنشد لم تعد ذات تأثير الآن إذا ما قيس ذلك بمدى فعالية الظروف الاجتماعية وتأثير الحياة الفنية المعاصرة على شخصية المنشدين المحدثين (الأصغر سناً). لقد أدى غياب الكثير من التقاليد الفنية والاجتماعية القديمة إلى أن الجيل الأكثر حداثة من المنشدين المعاصرين (الأصغر سناً) بدا وكأن كل واحد منهم يشق لنفسه طريقاً فنياً خاصاً به ومختلفاً، كما يبدو أن القاسم المشترك بين هؤلاء المنشدين (الأصغر سناً) هو سرعة الاحتراف وتعدل الشهرة، فالتعليم الدينى - الذى يضع المنشد منذ البداية على الطريق الصحيح التقليدى - لم يعد ذو تأثير بالغ فى تكوين الشخصية الفنية لدى هذا الجيل من المنشدين، بل هناك عدد كبير من المنشدين لم يلق هذا التعليم أصلاً، وخاصة أن أعمار الكثير من المنشدين المحدثين الذين تقابلنا معهم تدل على أنهم لم يدركوا زمن الكتّاب وتقاليد تحفيظ القرآن منذ الصغر، فمنهم من أتم التعليم الثانوى العام والمهني، ومنهم من أتم التعليم فى المرحلة الاعدادية، ومنهم من لم يكمل تعليمه بعد المرحلة الابتدائية، كما أن من بين هؤلاء المنشدين أميون لم يألوا أى قسط من التعليم بالمدارس.

ولدى المنشدين المحدثين (الأصغر سناً) تلعب مجالات إشباع الهواية - لهذا الصنف من الغناء - دوراً كبيراً، فالحياة الفنية الشعبية - وخاصة فى مجال الاحتراف - اتسعت فى الزمن الحاضر وظهرت فيها براعات وتجديدات كفيلة بإثارة تلك الهوايات الموسيقية لدى الأفراد.

يقول أحد الرواة، (وهو منشد محترف لا يتجاوز عمره الثلاثين عاماً): إنه تعلم بالمدرسة حتى نهاية المرحلة الابتدائية، وأن تعليمه الدينى متواضع، إذ أنه لم يحفظ من القرآن سوى بضع آيات كانت - كما يقول - مقررة عليه بالمدرسة وأن علاقته بالناحية الدينية جاءت بعد دخوله عالم الإنشاد وانتمائه إلى الطريقة البيومية، ويقول: إنه ظل ينشد المواويل الدينية التى كان يحفظها عن المنشدين المحترفين لأصدقائه ولمعارفه، لكن بدايته «بالكار» (أى بداية انتمائه إلى مجال الإنشاد) جاءت بعد أن أنهى خدمته العسكرية، وقد كان يحرص على الذهاب إلى الموالد والمناسبات الدينية الأخرى ليستمتع إلى المنشدين، وكان معجباً بالكثير منهم، لكن إعجابه بالشيخ الذى تعلم عنه (وعمل معه فيما بعد) كان يفوق إعجابه بسائر المنشدين، وقد دفعه هذا

الإعجاب إلى أن يتعلق أكثر بالإنشاد، فقد رأى في «قولة» الشيخ المعلم ما كان يثيره إثارة كبيرة، حتى إنه كان يتبعه إلى كل مكان كان ينشد فيه حتى أصبح حافظاً جيداً ومؤدياً مجدداً لكل ما كان ينشده الشيخ المعلم. ولما نشأت بينهما صداقة أعرب له عن رغبته القوية في أن ينشد مثله أمام الجمهور، فحقق له صديقه المعلم هذه الرغبة وألحقه معه في فرقته ويقول الراوى: إنه كان ينشد للجمهور مقاطعاً قصيرة في صيغة الموال في بداية الأمر، وشيئاً فشيئاً أخذ نصيبه من الأداء يتزايد حتى جاء وقت أسند فيه الشيخ المعلم إليه مسئولية إحياء إحدى الليالي وحده، فذهب ومعه «العدة» (الفرقة) وأحيا الليلة.

لقد كان تأثير الراوى بمعلمه يفوق تأثيره بكل المنشدين الذين سمعهم في السابق، ومن ثم ظل قرابة العام لا ينشد إلا ما حفظه عن صديقه ومعلمه، كما كان يلتزم بطريقته في الأداء أيضاً، ولم يكن له أن ينوع أو يغير في محفوظه وفي طريقة أدائه إلا بعد أن أتيح له أن يستمع إلى المنشدين في مولد السيد البدوى في طنطا، ويقول: إنه وجد من بين الصيتية الذين استمع إليهم من تأثير بأدائهم ومن أثاره محفوظهم، كما أثارته كيفية استخدامهم للآلات الموسيقية. ويقول: إنه استطاع أن ينقل عن أولئك المنشدين شيئاً مما كانوا ينشدونه في المولد، فراح يردده إلى معلمه الذى أعجب به كثيراً - على حد قوله - وكان ذلك بمثابة الانتقال إلى مرحلة جديدة وبداية لإظهار تميزه واستقلاله عن معلمه في المفوظ وفي طريقة الأداء.

المفوظ القصصى ومنظومات المدائح:

لا يزال هناك من المنشدين المعاصرين - وخاصة من هم أكبر سناً - من يحفظ وينشد الموضوعات الدينية التى تعود إلى زمن المنشد القديم مثل: قصة الهجرة وقصة زواج فاطمة الزهراء وقصة الغار وغيرها، لكن إنشاد هذه الموضوعات - فى الواقع - يتم فى إطار ضيق، أما الشائع الآن من موضوعات دينية، فهو قصص دينى حديث، وقد شاع منه قصص مثل: زين العابدين، والملك الظالم، وسالم وسالمة وغيرها، ويزعم بعض المنشدين الذين ينشدون هذا القصص أنه من تأليفهم، ويقول أحد الرواة من المنشدين الأكبر سناً: إنه بجانب قراءته للكتب الدينية؛ فإنه يقرأ أيضاً القصص الدينية القديم مثل قصة الخنساء ويأخذ منها فكرة، أو على حد بعيد: «عبرة تصلح للغناء»، ثم يصوغها فى زجل، ويقول: إن أكثر قصصه الذى ينشده أخذ فكرته من قراءته للكتب

الإسلامية ومن الأحداث الواقعية المعاصرة التي يقرأها في الجرائد، خاصة الأحداث التي تنطوى على «عبر وحكم» ويقول منشد آخر - من الجيل نفسه: إنه ألف قصة زواج عائشة من الرسول (صلى الله عليه وسلم) في صيغة مختلفة عن التي سبق له وأن حفظها من المنشدين القدامى، وأن الذي ألهمه هذه الصيغة هو خطيب المسجد، فقد سمعه يخطب في الناس يوم الجمعة ويذكر مقاطعاً من زواج الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعائشة، وأنه انفعّل بما قاله الخطيب وصاحبه هذا الانفعال حتى صاغ موضوع الخطبة في عدد كثير من المقاطع الزجلية وراح ينشدها بعد ذلك للجمهور.

وعلى أية حال، فإن المنشدين أصحاب هذه الروايات نالوا قسطاً من التعليم يسّر لهم الاطلاع على القصص الديني وسير الأنبياء، فقد شاهدنا لدى أحدهم مكتبة دينية متواضعة، لكنها تضم مؤلفات من هذا النوع الذي يمكن أن يغزى الاتجاه الفني عند المنشد مثل: ديوان المنشدين لمحمد بن سريّة، وأجزاء من سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) لابن هشام ورياض الصالحين وكثير من الأدوار والأحزاب التي يستعين بها أبناء الطرق الصوفية في الذكر، ودواوين للمدائح النبوية وغيرها. هذا ويذكر راوي آخر من أبناء الجيل نفسه: إن لديه هذه الكتب بعينها ولديه غيرها أيضاً.

وهناك منشدون لا يزعمون أنهم يؤلفون القصص الذي ينشدونه وإنما يقولون: إن ما ينشدونه حفظوه عن سلف من مشائخ ومنشدين، وأن بعضهم قد قرأ هذا القصص من الكتب، وكل ما فعلوه أنهم قد غيروا في بعض المقاطع لأسباب موسيقية.

وبجانب ذلك هناك منشدون يعتمدون على أفراد يؤلفون لهم هذا القصص الديني وأن من أولئك المؤلفين من يقطن القاهرة ويأتيه المنشدون من المحافظات المختلفة ليأخذوا منه القصص، ولهذا المؤلف قصص كثيرة مسجلة على أشرطة كاسيت تجارية بصوت منشدين كثيرين.

وهناك من المنشدين فريق كبير - وخاصة المنشدين الأصغر سناً - لا ينشدون القصص الديني، وإنما ينشدون الأغاني القصيرة والمواويل، وهم لا ينشدونها إلا في الذكر السلطاني.

وقد لوحظ أن منشدي القصص الديني، أو بالأحرى المنشدون الذين نالوا قسطاً من التعليم والتدريب وفق التقاليد القديمة؛ يعرفون أيضاً طريقة الأداء الخاصة بإنشاد الذكر

السلطاني، لأن هذه الطريقة تتشابه - إلى حد كبير - مع بعض الطرق التي يتبعها المنشدون في أداء القصة، بينما لا يستطيع المنشدون (الأصغر سناً) أن ينشدوا خارج نطاق الذكر السلطاني لفترات طويلة. والواقع أن انتماء الفريق الأول (الأكبر سناً) إلى مدرسة الإنشاد التي تعود إلى الزمن الماضي، وانتماء الفريق الثاني (الأصغر سناً) إلى التقاليد الحديثة (وهو الفارق الأساسي بينهما) أدى إلى وجود فارق في التخصص بينهما، فالمنشدون (الأكبر سناً) - والذين ينتمون من حيث النشأة الفنية إلى التقاليد القديمة - لا يزالون يعتمدون على القصص الديني كأساس للعمل الموسيقي ويلجأون - في أدائه - إلى اتباع طرق متنوعة بينما تخصص المنشدون (الأصغر سناً) في إنشاد الأغنيات القصيرة والمواويل في مصاحبة الذكر، ولا يلجأون إلا إلى الطرق التي تبرز طابع الأغنية (الطقطوقة) وطابع الموال. والجدير بالذكر أن تقليداً قديماً - من شأنه أن يوسع نطاق المحفوظ الشعري - لا يزال شائعاً إلى اليوم، منه الأغنيات الشرق عربية التي ما تزال تشكل رصيذاً مرغوباً فيه لدى جمهور الإنشاد، فمن المنشدين من يتخلل إنشاده بعض المقاطع الغنائية لمشاهير المطربين، من قبيل تطعيم المسار الغنائي. وهناك منشدون آخرون يخصصون جانباً في الحفل (وصلة) لإنشاد أغنية أو أكثر من الأغنيات المحببة للجمهور لمشاهير المطربين والمطربات المعاصرين.

المحفوظ الموسيقي والتقنيات:

أما عن الكيفية التي يتم بها اكتساب الخبرة والمعرفة الموسيقية؛ فليس هناك وسيلة منتظمة لاكتسابها، وإنما لا يزال الحماس لدى الأفراد الذين يهون الغناء والذين لديهم الاستعداد الموسيقي، يشكل الأساس الأول للمعرفة الموسيقية، ومن ثم يسعى الفرد الهاوي - أو المنشد المبتدئ - إلى حيث ينشد المنشدون المحترفون فمتابعة المنشدين والإصغاء لأدائهم - لغرض الحفظ - من شأنه أن يزود الهاوي - أو المنشد المبتدئ - بذخيرة جيدة من الألحان، ومن شأنه أيضاً أن يوقفه على طرق وأساليب الأداء، كما أن سعيًا تقليدياً لحفظ الأغنيات الشرق عربية - لمشاهير المطربين وتقليد طريقتهم في الأداء تلبيبة لرغبات الجمهور أحياناً - من شأنه أن ينمي القدرة الموسيقية لدى المنشد المبتدئ ويوقفه على تقاليد العمل الموسيقي الذي تتيحه تقنيات الموسيقى الشرق عربية.

والمعتاد أن يبدأ الهاوي، أو المنشد المبتدئ، بحفظ الصيغ الغنائية القصيرة

(الأغنية القصيرة والموال) بالألحان الخاصة بها وهي بداية لمعرفة الطرق والمداخل الموسيقية الخاصة بصيغة الأغنية «الموزونة» وبصيغة الموال «الحر». ومع أن الجهد الفردي الخاص في المتابعة، وفي التزود بالمعرفة - من خلال الإصغاء للمنتشدين المحترفين ومحاولة تقليدهم بعد ذلك - يعد أمراً مهماً وذا تأثير كبير في تكوين الخبرة الموسيقية وتنميتها؛ فإنه مع ذلك لا غنى عن العلم المباشر، فكثير من المنتشدين المحدثين لم تتطور مهاراتهم الموسيقية في هذا الصنف من الغناء إلا من خلال عملهم كمساعدين للمنتشدين الأكثر خبرة، وهناك تقليد - لايزال كثير من المنتشدين المقتدرين يعتمدونه في المهنة وهو - اصطحاب منشد أو أكثر من المنتشدين المبتدئين ليساعدوا المنشد الكبير في إحياء الحفل وتختص المساعدة التي يقدمونها في قيامهم بأداء وصلة أو صلتين في بداية الليلة (الحفل) وأثناء راحة المنشد الكبير، كما تأتي هذه المساعدة بمثابة التدريب، بل هي تدريب بالفعل على الأداء، وتدريب على مواجهة الجمهور.

أما فيما يتعلق بنوع المعرفة الفنية وتقنياتها، فالواقع أن حظ المنشد الجديد (وخاصة الأصغر سناً) في هذه المعرفة أوفر من حظ نظيره المنشد القديم، فالكثير من المنتشدين يستخدمون الآن المصطلحات والتسميات الحرفية المرتبطة بالموسيقا العربية وكثير منهم يدرك معاني هذه المصطلحات والتسميات وخاصة التي يتصل منها بصورة مباشرة بعملهم وبأدائهم، ونعني بها المقامات الموسيقية، حيث اتسع نطاق استخدام المنتشدين لها الآن ولم تعد قاصرة على مقامى الراست والسيكاه فحسب، كذلك هناك من المنتشدين المحدثين من لديهم تصور صحيح عن السلم الموسيقى وتكوين درجاته، وقد ورد - في أحاديث بعض الرواة الذين التقينا بهم - ألفاظ مثل «مزيكا» و«ريتم» و«رمبا» (إيقاع الرومبا) و«دارج» و«صعيدى» و«الواحدة والنص» و«المصمودى» (أسماء إيقاعات) و«النوطة الموسيقية» و«بروفاء» و«جواب السيكا» و«جواب الراست».. إلخ وأغلب أولئك المنتشدين لديهم فهم سليم - إلى حد كبير - لمعاني هذه الألفاظ والتسميات والاستخداماتها أيضاً.

كما اتسع نطاق معرفة التقنيات الموسيقية الشرق عربية لدى كثير من المنتشدين، وخاصة فيما يتعلق بالمقامات ونظام التحويلات أو الانتقالات المقامية وكيفية الاستفادة منها في العمل الموسيقى. ولأن نشاط المنشد الجديد لم يعد محصوراً في إطار الليالى والموالد والموسقيين التقليديين، وتجاوز ذلك إلى التعامل مع

مجالات التسجيل الصوتي التجاري (الكاسيت)؛ فقد أدى ذلك إلى زيادة خبرة المنشد وكثرة معارفه بهذا المجال الذي لم يطرقه من قبل، فتراه يتحدث عن هذا المجال مستخدماً عبارات مثل: «نسبة التوزيع» و«التسجيل الاستيريو» و«المصنفات الفنية» و«الرقابة على المصنفات» إلخ. بل وهناك من المنشدين من يمتلك شركات لإنتاج التسجيلات الصوتية على شرائط كاسيت.

يتخذ نشاط الموسيقيين المحترفين وضعاً خاصاً فى الثقافة الشعبية، يأتى من الخصوصية الفنية للموضوعات الموسيقية التى يتناولها من ناحية، ومن خصوصية الوضع الفنى للمؤدين، لاسيما الوضع الذى يظهر طبيعة النشأة الاجتماعية والأسباب التى أهلتهم لاعتلاء مكانة الاحتراف فى الأداء الموسيقى، من ناحية ثانية.

وفى هذا الإطار عرفت الثقافة الشعبية - فى مصر - صنفاً من الغناء انتشر عبر واديهما من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه، وعلى الرغم من أن هذا الانتشار الممتد صاحبه تنوع وتعدد فى طرق وأساليب الأداء، فإنه - مع ذلك - أمكن تمييز القواعد والأساليب والتقنيات الأساسية التى يقوم عليها هذا الصنف من الغناء الذى ارتبط - على نحو خاص - بمعنى الموال، ويعرف فى دلتا مصر باسم «الغناء البلدى». وقد أضاف بعض الباحثين - إلى هذا الصنف - لوناً آخر من الغناء معروف فى الصعيد مصر باسم «الفن الصعيدى». وتقوم هذه الإضافة على سببين:

الأول: أن تميز المؤدين - فى كل من الغناء البلدى والفن الصعيدى - يأتى من تفوقهم (على سائر المغنين المحترفين) فى الإبداع الغنائى المصاغ شعره فى نظم الموال وأشكاله المتعددة.

الثانى: أن المحفوظ الغنائى عند المغنين (فى كل من الغناء البلدى والفن الصعيدى) يشتمل على بند من الغناء استلهمت موضوعاته الأدبية من أحداث ووقائع بعينها صيغت فى قالب قصصى منها على سبيل المثال: موال الطير وموال أدهم الشرقاوى، والجرجاوية وحسن ونعيمة.

وإذا كنا نخصص هذا العرض للغناء البلدى، دون الفن الصعيدى، فلأننا ننظر إلى الغناء البلدى على أنه نمط غنائى قائم بذاته، وأن مقدار التشابه بينه وبين الفن الصعيدى (والذى أدى إلى إدماجهما تحت نمط غنائى واحد) لم يخف بحال تميزات فنية أساسية، هى تلك التى تدل بوضوح على اختلاف الانتماءات الثقافية

(١) نشرت هذه الدراسة بمجلة الفنون الشعبية - العدد ٥٦ - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٦ .

الإقليمية التي يقوم عليها كل من الغناء البلدى والفن الصعيدى، ولا سيما الاختلاف الذى انعكس على طرق وأساليب معالجة الموضوعات الغنائية المتماثلة من ناحية، وانعكس على طرق وأساليب معالجة الألحان التقليدية حتى تلك التي تقوم على مبادئ وقواعد واحدة من ناحية ثانية. وهذا لا يعنى - فى الوقت نفسه - أننا نتجاهل مقومات التشابه القائمة بين هذين الصنفين من الغناء لكن تخصيصنا هذا العرض للغناء البلدى (دون الفن الصعيدى) يعنى أننا نقصد وضع هذه المقومات فى حدودها الحقيقية، ولأن هذا الأمر يحتاج إلى معالجة أخرى (تقوم على المقارنة بين هذين الصنفين من الغناء وبعضهما البعض) لا مجال لبيانها فى هذا العرض -؛ فإننا نكتفى بالتذكير بأن التخصص فى أداء الموال ارتبط بالمغنى البلدى، وأن هذا الغناء (البلدى) لا يقوم أساساً إلا على أداء الموال، ونذكر أيضاً بأن مغنى الفن الصعيدى، لا يعتمدون على أداء الموال اعتماداً أساسياً لأن تميزهم الفنى يأتى من إبداعاتهم فى منظومات الشعر المربع. أما فيما يتعلق بوحدة الموضوعات المتمثلة فى المواويل القصصية (التي أشير إليها) فيمكن القول، إن هذه الوحدة لا يقابلها وحدة فى الشكل الشعرى الذى صيغ فيه هذا القصص، فهو -فى الغناء البلدى- يصاغ دائماً فى شكل الموال، بينما يصاغ -فى الفن الصعيدى- فى شكل المربع، وربما لذلك يسمى هذا القصص فى صعيد مصر دور وليس موالاً ويقصد به تخصيصاً موضوع القصص نفسها وليس الشكل الشعرى وليس أيضاً الشكل الموسيقى رغم ارتباط هذه التسمية بالأداء الموسيقى فى مجالات أخرى.

على أننا لا نذكر بهذه الميزات بغرض التسليم بأن الاختلاف بين الغناء البلدى والفن الصعيدى ينحصر فى مجرد الاختلاف فى شكل الشعر، فالأمر يتجاوز هذه الحدود إلى اختلافات أخرى قد تتصل بطبيعة الخطط الذهنية التي تنشأ بها العمليات الإبداعية فى هذا النشاط الفنى، ولا شك أن هذا الأمر قد يبدو معقداً عندما ينسحب على المعالجة الموسيقية بأشكالها المتعددة.

وتصنيف الغناء البلدى على أنه نمط موسيقى قائم بذاته لا يقوم -فى واقع الحال- على المبررات والحجج النظرية وحدها، فالمغنيين الشعبيين تفسيراتهم أيضاً وخاصة لتلك التي تمس طبيعة الأطر التي تفصل بين غنائهم وغناء المغنيين

الشعبيين المحترفين الآخرين، فهم يعالجون خصائص التميز على أنها اختلاف في اللون (لون بلدى، لون صعيدى، لون صوفى... إلخ). واللون هو الاصطلاح الدارج الذى يشير عندهم إلى الاختلاف الصريح بين نمط غنائى ونمط غنائى آخر، بل ويشير أيضاً إلى الفروق الفنية الطفيفة حتى تلك التى تفصل بين طريقتين فى الأداء لنمط غنائى واحد «الأسلوب».

وإذا كان الباحثون قد نظروا إلى المغنيين الشعبيين المحترفين -بمختلف طوائفهم وانتماءاتهم الفنية- على أنهم حملة المآثر الشعبى المتقن؛ فإن المغنيين البلديين يعمدون دائماً إلى تمييز وضعهم الفنى، ليس فقط من الناحية التى تتعلق بالأداء وأساليبه، وإنما من الناحية التى تبين أثر هذا الوضع الفنى فى تشكيل سمعتهم الفنية ومكانتهم الاجتماعية أيضاً، والتى ينظرون إليها على أنها تحظى بمرتبة أعلى من تلك التى تحظى بها مكانة المغنيين المحترفين فى الأنماط الغنائية الأخرى. ولا مجال هنا لدواعى الاستغراب حينما تعلقو -عند المغنى البلدى المعاصر- نبرات التفاخر بوضعه الفنى، ولا سيما عند استحضاره كل الدلالات الإيجابية لمفهوم كلمة بلدى وهو التفاخر الذى يتسم بالنبرات ذاتها عند الغالبية العظمى من المغنيين البلديين وكأنه مقوم من مقومات النشأة والتربية، فالحاج مصطفى مرسى (واحد من شيوخ الغناء البلدى ومعلم العديد من مشاهير المغنيين البلديين المعاصرين) كان يقول: «أنا راجل بتاع موال بلدى، شغلتنا معروفه، والزبون عارف مطرحننا، لما يكون عايزنا لازم ييجى لغاية عندنا عشان يتفق معنا ويعطينا عربون، لكن بتوع الدف والطار والريابة، دول، ماحدش يعرف لهم مطرح، وشغلتهم غير شغلتنا». وتلك هى النظرة نفسها التى صورت للمغنيين البلديين المعاصرين، أن مصطلح فنان شعبى (الذى هيمن على الساحة الفنية والإعلامية المعاصرة) إنما صيغ خصيصاً ليدل عليهم وحدهم دون سائر المغنيين المحترفين فى الأنماط الغنائية الأخرى. ووفق هذا التصور فإنهم يطلقون على مغنى السيرة اسم شاعر، وقد يجارون الباحث من قبيل المجاملة أو لتمرير الموقف فيقولون شاعر شعبى ومداح شعبى... إلخ. أما المنشد الدينى فيعرف عندهم باسم المنشد الصوفى والصييت، ويقولون: الموالدى إشارة إلى تخصص بعض المنشدين (فى الزمن السابق) فى أداء قصة المولد النبوى الشريف.

وإذا كانت هذه النظرة قد تؤخذ على أنها محاولة من قبل المغنيين البلديين لتمييز وضعهم الفني (فى إطار الأداء الموسيقى الاحترافى)؛ فإننا -ورغم كل الإحياءات التى تنطوى عليها هذه النظرة- نضعها موضع الاعتبار لاسيما ما يتعلق منها بطبيعة الفواصل والروابط التى يقيمها المغنيون البلديون بين الأنماط الموسيقية الشعبية وبعضها البعض، وكذلك ما يتعلق منها بمغزى المفاهيم والقناعات التى يستند إليها هؤلاء المغنون فى تفسيراتهم. ومن هنا قد يكون التركيز -فى هذا العرض- على المقومات الفنية للغناء البلدى مدخلاً ملائماً مع طبيعة هذا الطرح، ومتسقاً مع الشق العملى الذى يستند إليه هؤلاء المبدعون فى تمييز وضعهم.

أولاً: الشكل الشعري المستخدم فى الغناء:

تصاغ موضوعات الغناء البلدى فى صنفين من النظم الشعرى: الصنف الأول: الموال: وهو النظم الشعرى الأساسى الذى يعتمد عليه المغنى البلدى فى صياغة القاسم الأكبر من موضوعاته الغنائية، حتى إن هذا المغنى البلدى كان يعرف أيضاً باسم مغنى الموال.

والموال -عند المغنى البلدى- يأتى فى عدة أشكال يتحدد كل شكل منها بعدد الأبيات التى يشتمل عليها، فمنه ما يشتمل على أربعة أبيات، ومنه ما يشتمل على خمسة أو ستة أو سبعة أو تسعة أبيات.. إلخ. ولكى يظل الموال محتفظاً بالشكل التقليدى للموال -رغم اختلاف عدد الأبيات من شكل لآخر- فإنه لابد أن يشتمل على أقسام ثلاثة: عتب (بداية)، ردفة (وسط)، غطاء (نهاية)، مثال ذلك:

أ- العتب:

عملت صياد وبصطاد شلّ ببنيّة
البورى وللاّ البياض دا الرزق بالنيّة

ب- الردفة:

يا صيادين السمك دا الرزق مش بالجري

ج- الغطاء

إسعى وذاكر لكن الرزق بالنية

وفى إطار تعدد الأشكال الشعرية للموال، عرف الغناء البلدى شكلاً مميزاً من

المواويل يعرف باسم الموال القصصى، يكثر فيه عدد الأبيات الشعرية لتصل إلى مئات الأبيات. وقد شاع هذا الشكل -من المواويل- مع تحول أدائه إلى فقرة رئيسية في محفوظ كل المغنيين البلديين. وعلى الرغم من كثرة عدد أبيات هذا الشكل القصصى؛ فإنها -في كل أبعادها- لا بد أن تنتظم في شكل داخلي معين، وأكثر المواويل القصصية انتشاراً هي تلك التي تنتظم فيها الأبيات -وقوافيها- على شكل مواويل قصيرة رباعية أو خماسية أو سداسية.. إلخ، وتتوالى تباعاً مكونة الشكل الشعري العام للموال القصصى.

ويبدأ الموال القصصى بعقب واحد من المواويل القصيرة (الداخلية) تتوالى بعده بقية المواويل القصيرة بأشكالها المكتملة، وتنتهي القصة ببقيّة الموال الأول، أى بالردفة والغطاء، فيكتمل بذلك الأداء وتنتهي القصة، مثال ذلك ما جاء فى موال شبلاية الذى يقوم على اثنين وخمسين موالاً قصيراً سداسى الشطرات (١). وتتوالى هذه المواويل القصيرة بشرطاتها الست كاملة أو شبه كاملة، باستثناء الموال القصير الأول الذى تفتتح به القصة، حيث يتصدر العقب بداية الأداء، أما الردفة والغطاء فيؤجلان ليختتم بهما الأداء والقصة. هكذا:

بداية القصة (أ- عقب الموال القصير الأول)

١- يا دهر كلك حوادث مؤلمة ونعيم

٢- ومعادن الخلق فيها خشن ونعيم

٣- الدنيا فانية وعجب وفيها التعب ونعيم

وبعد الانتهاء من أداء الاثنين وخمسين موالاً يأتى أداء ردفة وغطاء الموال

الأول هكذا:

ختام القصة (ب- ردفة الموال الأول)

٤- واسمع كلامى يا عاقل بالأدب ثانى

٥- خالد وجميل ردوا لبعضهم ثانى

(ج- غطاء الموال الأول)

٦- وعاشوا مع بعضهم فى رضى ونعيم

(١) انظر النص الكامل لموال شبلاية مجلة الفنون الشعبية، العدد ٥٣، الهيئة العامة المصرية للكتاب، أكتوبر ١٩٩٦، من ص ٦٦).

ومع وجود الموال بأشكاله الشعرية المختلفة مادة أساسية للغناء البلدى؛ تأتي الطقطوقة لتكمل معالم الصيغ الشعرية التى يعتمد عليها محفوظ المغنى البلدى. والطقطوقة شكل شعري مكون من عدد من الأبيات تقوم على قافية واحدة أو على عدة قوافي ووفق النظام الذى يجرى فيه تقسيم مكونات الطقطوقة والذى يأتي على النحو التالي: (١)

المذهب: يتألف من مقطع شعري يتكون عادة من بيتين أو ثلاثة، وهو المقطع الذى يتكرر - فى الطقطوقة بقافية واحدة.

الكوبليه/ الغصن: يتألف من مقطع شعري يقوم على قافية واحدة قد تتفق أو تختلف مع قافية المذهب. وتقوم الطقطوقة على عدد من الكوبيليات (أغصان) قد تتفق قوافيها أو تختلف مع بعضها البعض، ويفصل بين الكوبليه والكوبليه الذى يليه إعادة لمقطع المذهب مثال ذلك:

المذهب:

جلاّب الخير، جلاب الخير

جانا بالخير، جانا بالخير

كوبليه:

وعريس بيطل وجاب الكل يابا

خد ست الكل وزى الفل يا با

المذهب:

جلاّب الخير.. إلخ

وإذا كان سائر الغناء البلدى ينتظم فى هذين الصنفين من الشعر (الموال

(٢) وكلمة طقطوقة - كما جاءت فى أحد التقارير المقدمة لمؤتمر الموسيقى العربية عام ١٩٣٢؛ أنها هى نفسها الأزوجة وكانوا يقصدون بها الأغنية التى لا يعنى تمام العناية بتلحينها تلحيناً فنياً دقيقاً، حتى لكانوا يقولون: أن فلاناً لا يحسن إلا الأهازيج، وهى بهذا المعنى تطابق الطقطوقة تماماً فإن تلحينها يكون دائماً سهلاً لا يصعب على العامة، وهى نوع من الزجل وكانت فى الأصل من أغاني النساء خاصة، ولكنها أصبحت تنشد للرجال وللقاطيع فضل فى نشر الفضائل لأنها أغاني العامة ولأنها سهلة الإنشاد. (انظر: على الجارم، كتاب مؤتمر الموسيقى العربية، وزارة المعارف العمومية، ١٩٣٤، ص ٧٣، وناهد أحمد حافظ، الغناء فى القرن التاسع عشر، دار المعارف عام ١٩٨٤، ص ٨٠).

والطقطوقة)؛ فهناك من المغنيين البلديين من لا يلتزم التزاماً صارماً بالحفاظ على الشكل (فى كل من الموال والطقطوقة) فى التحديد الذى مرّ بنا توضيحه، فالأداء -عند المغنى البلدى، وإن كان يقوم على قواعد وتقاليد بعينها؛ فإنه -يقوم أيضاً على قدر من المرونة، وربما كان تعدد الأشكال الشعرية للموال واحداً من مظاهرها. لكن -وفى إطار هذه المرونة- لا نستطيع أن نتجاهل الفروق والتميزات الفردية للمؤدين والتي حملت بعضهم على تجاوز التعدد التقليدى للأشكال الشعرية، إلى التحرر أحياناً من القواعد الصارمة التى كانت تلزم الجميع -فى السابق- بالحفاظ على شكل معين للمكونات الداخلية التى تقوم عليها الأشكال الشعرية الغنائية، سواء فى الموال (عتب/ردفة/غطاء) أو فى الطقطوقة (مذهب/كويليه/مذهب.. إلخ) وهو الأمر الذى يمثله العديد من الأشكال المستحدثة لمنظومة الموال، حيث يمكن أن نجد شكلاً منه لا يقوم على التفسير الداخلى المتعارف عليه، أو نجد شكلاً آخر لا يزيد عدد أبياته عن ثلاثة كما هو واضح من المثالين التاليين:

لو كان ابويا نهاني وقال لى توب لك يوم يا ابني
وارمى أساس عَشْرَتِكَ مِنْ قَبْلِ مَا تَبْنِي
أنا بنيت وعليت وجا الدون يعى ابني (يمرضه)
أنا بنيت وعليت وجا الدون يعاتبنى
ما يهدش جبال المحبة إلا قليل الأصل يا ابني
أنا حكم على الزمن لخيبت لى قمحى على تبني
اللى عملته فى ابويا بيخلصه ابني
و:

اللى معاه فكر ينام به الليل ويصحى به
الشمع يحرق فى نفسه وينور على أصحابه
نام يا خالى نام وسيب الفكر لأصحابه
وفى الطقطوقة قد لا يلتزم المغنى بمراعاة مكوناتها الداخلية، فقد لا يظهر المذهب فى الأداء إلا بعد أداء الكويليه الأول، وقد لا تنتهى الطقطوقة بالمذهب، وقد تقوم -من أساسها- على مذهب وكويليه واحد.

ثانياً: الشكل الموسيقي (طريقة الأداء)

على الرغم من أن الباحثين لا يعرفون -على وجه الدقة- متى تكون الإطار الاحترافي للغناء البلدي، فإنه، ومما لا شك فيه حتى اليوم- أن منظومات الموالم القصير بأشكاله المختلفة كانت عماد هذا الغناء في دلتا مصر^(١) قبل أن تبرز أهمية الطقطوقة والموالم القصصى فى هذا النمط من الغناء.

اقترن رواج ما يعرف بالموالم القصير، برواج شكل موسيقى مميز قام على طرق وأساليب أداء ذات صلة بمكونات الشكل الشعري فى الموالم القصير وذات صلة بمغزى الخطاب الذى صيغ فى أبياته، ولأن خطاب الموالم يجنح غالباً تجاه معالجة حالات الشجن ومواطن الأسى والشكوى من الزمن؛ فإن هذه المعالجة انسحبت على لهجة الأداء الموسيقي للموالم، لاسيما أن المؤدبين قد توارثوا -من مقومات الموسيقى الشرق عريية- أساليب أداء ومكونات مقامية تساعد على إبراز هذه الناحية.

وبجانب هذه الميزة، ارتبط الأداء الموسيقي للموالم -ومازال- بعدد من الخصائص الفنية يحددها الدارسون فى عدة نقاط، أبرزها: حرية الأداء من الناحية الإيقاعية (أى الأداء الموسيقي غير المقيد بوزن قياسي)، كذلك الاعتماد على تداعى الألحان فى مسار مرتجل يجنح تجاه الإفادة من معطيات الموسيقى الشرق عريية، لاسيما الإفادة من قواعد فى التلوينات والانتقالات المقامية. لكن خاصية التحرر من الوزن القياسي دائماً ما تأتي على قائمة الخصائص التى يبرزها الباحثون بوصفها -كما يقولون- خاصية أساسية تنتظم بها سائر المكونات البنائية التى يتشكل منها الأداء الموسيقي للموالم^(٢)، وهى مكونات لا تقتيد غالباً بشكل التقسيمات اللحنية أو المسارات المتعارف عليها فى الأداء الموسيقي الموزون.

(١) أبعد ما وصل إليه الباحثون بشأن تاريخ ونشأة الموالم، أنه لون من ألوان الشعر الذى يمكن التعبير عنه بأنه برزخ بين الفصحى والشعبى، أو قل: نشأ فى بيت مجاور للفصحى، وهو قديم، وقد استخدم فى الغناء ما ارتكزت عليه معظم المقامات أو ارتكز عليها، وقد انتشر فى الأقطار العربية...، وإن أول من نطق به أهل (واسط) المدينة التى أنشأها الحجاج بن يوسف الثقفى عام ٨٢هـ.. (على الخاقانى، فنون الأدب الشعبى، الحلقة الأولى، منشورات دار البيان، ٢٧، بغداد، ص ١٦).

(٢) انظر على سبيل المثال: يسرى حنفى الحامولى: أغانى المناسبات الاجتماعية الموالم. أطروحة ماجستير مرجع سابق، ص ٨٨.

وعلى الرغم من أهمية الاعتبارات التي نوليها لخاصية الوزن في الأداء الموسيقي؛ فإن أي درس للكيفية التي يتشكل بها الأداء، لابد أن يقوم على تحديد دقيق لطبيعة الدور التكويني الذي يلعبه الوزن الموسيقي القياسي في كل نمط موسيقي، لاسيما وأن هذا الدور يختلف من نمط موسيقي إلى نمط موسيقي آخر، ومن شكل موسيقي إلى شكل موسيقي آخر. وإذا كان التفسير السابق يرى أن الأساس في انتظام المكونات البنائية للأداء الموسيقي هو نوع الوزن فهذا يعنى، من ناحية، عدم التفريق بين الأداء الموسيقي للموال وبين أي أداء موسيقي متحرر من الوزن القياسي، كالأداء المقترن بأغاني تهنين الأطفال، وأغاني التحنين ومنظومات العديد (البكائيات) وغيرها من الأشكال الغنائية المشابهة. كما يعنى، من ناحية أخرى، غض النظر حتى عن المعايير الدارجة المتوارثة التي يستند إليها عامة الناس في تمييز الأشكال الغنائية من بعضها البعض^(١).

إن عدم تقييد أداء الموال بالوزن الموسيقي القياسي، لا يعنى أن هذا الأداء يعتمد على العمليات الموسيقية والأساليب نفسها المستخدمة في أداء الأشكال الغنائية المشار إليها (التهنين والتحنين والعديد وغيرها). صحيح أن الأداء - في حالة التحرر من الوزن الموسيقي القياسي - يتأثر بهذه الخاصية وينطلق منها، لكنه (أي الأداء) يتجه - في كل نمط غنائي على حدة - وبواسطة أسلوب خاص نحو بناء شكل موسيقي معين له خصائصه التي تميزه وتفصل بينه وبين بقية الأشكال الغنائية المشتركة معه في خاصية التحرر من الوزن القياسي، ويتبع - في سبيل تحقيق ذلك - أساليب أداء خاصة^(٢). ويبقى - مع ذلك - فارق مهم آخر يفصل بين الموال وبقية الأشكال الغنائية الأخرى المتحررة من الوزن الموسيقي القياسي، وهو أن أداء الموال - في إطار الاحتراف - يلزم المؤدين باتباع قواعد وأساليب بعينها ينشئون بها شكلاً من أشكال العلاقات النغمية المتنامية وفق خطة أداء متقنة لا

(١) هناك معايير متوارثة يستند إليها عامة الناس في التمييز بين الأنماط الموسيقية الشعبية وبعضها البعض، وهذه المعايير تتصل - بدرجات متفاوتة - بالمعرفة العامة بالخصائص الفنية النوعية التي تميز كل نمط غنائي عن بقية الأنماط الغنائية الأخرى، وتتصل كذلك بالمعرفة العامة بالخصائص الفنية النوعية التي تجمع بين الحدث الموسيقي والمناسبة الاجتماعية التي تستدعي هذا الحدث.

(٢) الإشارة هنا إلى خصائص الوحدة النوعية التي سبق توضيحها، من ناحية، وإشارة أيضاً إلى فعالية الأسلوب في تحديد الفوارق والفواصل بين الأنماط الموسيقية المتشابهة في الناحية الإيقاعية.

دخل لها بالارتجال أو العفوية أو التداعى غير المقصود، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، هناك إمكانية فى أداء الموال تسمح لهذا الأداء (رغم تحرر وحداته الإيقاعية من الوزن القياسى) أن يجرى على إيقاع موزون وزناً قياسياً، لكن يظل هذا الإيقاع مجرد فرشة أو أرضية للأداء، وهى الحالة التى اصطلح على تسميتها بالأداء على الواحدة، وهذه الحالة لا تتبع -فى الغناء الشعبى إلا فى أداء الموال ولدى المحترفين فقط. إذن فالقاعدة -فى أداء الموال، تأتى من إدراك المؤدين ووعيهم بنوع الوزن الذى سوف يجرى عليه الأداء، وهذا الوزن معروف بأنه يخالف الوزن الموسيقى القياسى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يتقيد المؤدون بسائر العناصر الفنية الخاصة بأداء الموال والتى تنشئ بنيته فى أقسام ثلاثة مقررّة.

أما عن تداعى الخواطر اللحنية -فى أداء الموال- فإننا نرى، أنه من الخطأ تفسير هذا التداعى حسب المفهوم الشائع لخاصية التداعى الحر المرتجل أثناء الأداء الحى، وهو التفسير الذى شاع عن الأداء الموسيقى الشعبى عامة. فهذا المفهوم يضع العمليات الموسيقية (التي تجرى فى الموال فى الإطار الاحترافى) على درج البساطة والعفوية فى تشكيل مسار الغناء، فالتحليل الفنى لكل ما يأتى فى أداء الموال من عمليات موسيقية وأساليب، يؤكد أن طريقة إنشاء هذه العمليات وكذلك الأساليب الخاصة المستخدمة؛ يظهر جميعها جهداً ابتكارياً فى كيفية معالجة الأسس الموسيقية المتوارثة والمتعارف عليها فى أداء الموال، كما يظهر -فى الوقت نفسه- درجة من المعرفة الفنية التى يتسلح بها المؤدى لكى يدخل إلى ميدان أداء الموال وهى المعرفة التى يمكن أن نتلمس بعضاً من جوانبها فى الوصف التالى للأقسام التى يقوم عليها الموال، وهذا الوصف لواحد من المواويل القصيرة ولا يشمل سوى الهيكل اللحنى (إن جاز هذا التعبير) وقد تم اختياره خصيصاً ليوضح شكل التكوين الثلاثى أو الأقسام التى جاء عليها الأداء:

١- الاستهلال/ التمهيد:

يتشكل الاستهلال من مسار لحنى يتألف من بضعة نغمات قليلة تكون عادة النغمات الأساسية فى التكوين المقامى المختار، ويجرى تحريك المسار بتمهل يكفى

لتوكيد هذه النغمات القليلة بوصفها الأساس النغمي الذي يتشكل به الأداء والذي يساعد في الوقت نفسه - على تشكيل الحس العام بالإطار النغمي هكذا:
عتب الموال:

يا ليلي يا عيني يا ليل (مكررة مرتين)
عملت صياد وبصطاد شل ببنيّة
البورى وللا البياض دا شيء بالنيّة



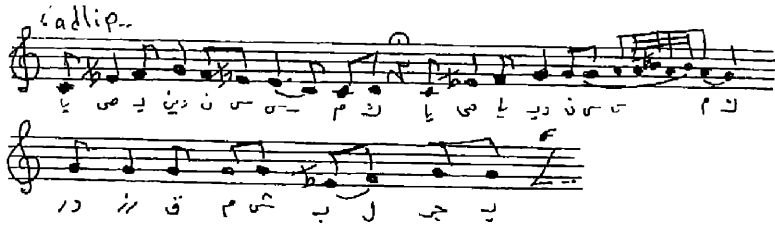
ومتى تم الانتهاء من تشكيل هذا المسار ينصرف المؤدى إلى عمل متصل نغمي ينقله إلى القسم الثانى فى الموال هكذا:
٢- الوسط/ النماء:

ويبدأ بتوليد أشكال مضطردة من التكوينات النغمية تنصرف إلى مسار صاعد وهابط وفق الضرورة التى تقتضيها خاصية التآلف بين النغمات الأفقية، وفى كل حركة صوتية يكون للنغمات المحورية دوراً أساسياً إما بغرض الوصول إليها (ركوز) وإما بغرض الانطلاق منها (تنمية) ويظل الأداء يجرى على هذا النحو خالفاً أشكالاً متعددة من الترابط بين النغمات وبعضها البعض.



(أ) متصل نغمي:
يا ليل
يا ليلي

(ب) عتب الموال: يا صيادين السمك دا الرزق مش بالجري

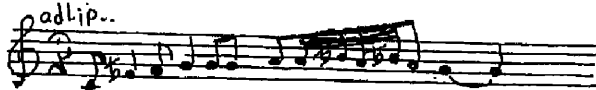


وفى هذا القسم الغنائى فى الموال يستطيع المغنى المقنن أن يظهر براعات فى معالجة العلاقات النغمية الطبيعية والتي يتيحها التكوين المقامى فى السلام الشرقى عربية أو فى أجناسها، من ذلك على سبيل المثال:
- القدرة على اختيار اللحظة الملائمة للتركيز على نغمة معينة إما بمدّها وإما بزخرفتها وإما بتكرارها عدة مرات قبل الانصراف عنها إلى النغمة التى تليها صعوداً أو هبوطاً.

- القدرة على اختيار اللحظة التى تضاعف من حالة انسجام وتوافق التكوين النغمية عند تلوين نغمة فيه ثم تعديلها ببطء أو تعديلها سريعاً إيداناً بالانتقال الصريح إلى جنس موسيقى آخر، أو الاكتفاء بلمس هذه النغمة من قبيل تطعيم المسار فى لحظة معينة من الأداء، هكذا:



- القدرة على اختيار مقطع لحنى بعينه والتدرج به إلى موقع آخر فى الأداء بغرض إعادة جزء سابق من الأداء، أو بغرض الوصول إلى الخاتمة هكذا:



٣- الخاتمة/ التسليم:

هناك شروط مهمة للوصول بالأداء إلى خاتمة الموال، إن لم تتحقق سقط الأداء كله، من هذه الشروط أن ينتهى الأداء على النغمة الأولى (الأساس) التى يركز

عليها المقام الموسيقى المستخدم في الأداء (أو الجنس التابع له) ولا بد أن يكون الوصول إلى هذه النغمة (الأساس) قائماً على التدرج اللحني المقنع، وهذا التدرج - وإن كان ينظر إليه أحياناً على أنه تصفية لما تم من عمليات موسيقية - (أى التدرج بالأداء إلى حيث بدأ بالنغمات القليلة)؛ فإنه كثيراً ما يأتي بعكس هذه النظرة، وخاصة عند المغنى المحترف الذى يتميز بقدرة خاصة فى أداء الموال.

غطاء الموال:
إسعى وذاكر لكن الزرق بالنية



والملاحظة التى نود التوقف عندها، هى أن هذا المسار اللحني (الذى جاء فى المثال السابق) ليس ملزماً لكل المغنيين، ذلك أن لكل مغنى خطته اللحنية التى يتميز بها بين أقرانه فى رسم مسارات الألحان وسائر العمليات الموسيقية التى تجرى داخل الموال. ومع ذلك فالمغنيون (وخاصة فى خاتمة الموال) يحاولون الالتزام بقاعدة واحدة فى طريقة الإنهاء وخاصة ما يتصل منها بأساليب تكثيف كل أو بعض العمليات الموسيقية (التي مز بها الأداء) وكأنها إعادة للعرض الموسيقى بكل توافقاته، ويجرى هذا عادة فى إيجاز سريع خاطف، ويقدر استيعاب المؤدى لأساليب هذا التكثيف السريع ويقدر توفيقه فى تحقيق خطته اللحنية؛ بقدر ما ترتفع درجة الإقناع بالخاتمة التامة والمثيرة.

وثمة قول شائع لدى مغني الموال يصف قدرة المؤدى فى إظهار براعته فى إحداث القفلة المقنعة، ويتمثل هذا القول فى أن هذا المؤدى البارِع «بتاع قفلات»، وكأن العبرة الموسيقية فى أداء الموال تأتى فى خاتمته. وفى عَرَف المغنيين الشعبيين (أبناء المهنة) تكمن حقائق فنية بالغة الأهمية منها: أن القدرات والبراعات التى يتمتع بها مغنى الموال قد تفقد أهميتها طالما لم تكتمل بما يسمونه حالة السلطنة أو كما يقول البعض منهم: حالة العيش فى النغم وبحسب اعتباراتهم تلك فإن حالة السلطنة تأتى وفق خطوات فى الأداء متدرجة وهى مراحل

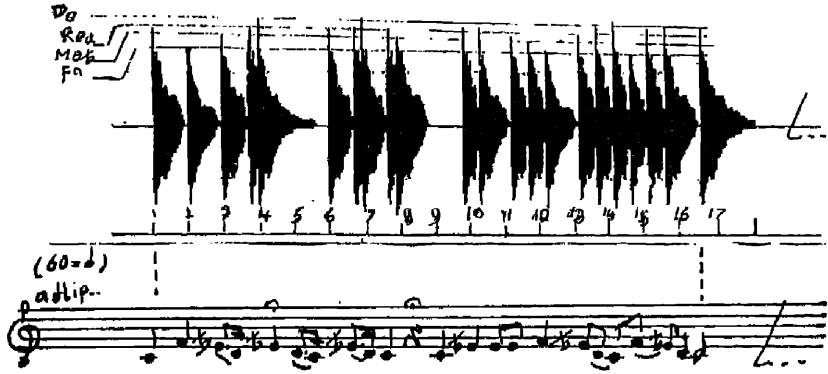
ضرورية تتراكم فيها المقومات التي تستجلب حالة الانسجام بالنغم، ولا بد لذلك من توافر جو نفسي عام متوافق مع هذه الحالة من الأداء، ومتى وضع المغنى نفسه هلى هذا الترتيب والتدرج (وتهياً له الجو النفسى العام)؛ تظهر عندئذ البراعات التي تطرب وتشجى.

هذه الاعتبارات من شأنها إثارة الأفكار التي طالما تعثرت فى تفسير ماهية الإبداع الموسيقى وحالاته المتعددة، فحديث الرواة (أبناء المهنة) يمكن رؤيته فى العديد من النماذج التي برعت فى أداء الموالم، حيث ترى الواحد منهم (وفى حالة نفسية خاصة) يصل إلى مرتبة فى الأداء تنكشف فيها (وأمامه) كل أشكال العلاقات النغمية المنسجمة إلى بعضها البعض، يتعامل معها بسلاسة فائقة فى الاختيار وفى التباديل وفى التلوين والتحويل وما نحو ذلك. والمغنى -فى هذه الحالة- تجده وقد تجلت فى ذهنه قدرات فنية تستخدم بطوعية كبيرة فى تنمية اللحن والمروء به عبر كل سلسلة التداعيات النغمية المتوافقة، والتي تحقق ذورة إشباع الحاجة المنتظرة من الجمهور المستمع. هذه الحالة النفسية التي تأجج فيها ذهن مغنى موهوب، يمتلك أدواته -هى التي يمكن وصفها بحالة الإبداع أثناء الأداء الحى.

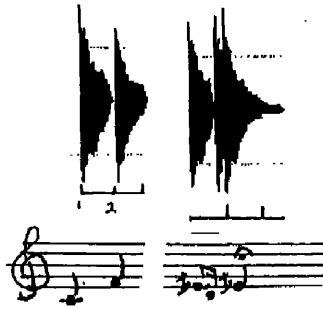
أما عن الكيفية التي يمكن بها رؤية أشكال العلاقات النغمية المستخدمة بكل دقائقها (والتي سبق الإشارة إليها فى الفصل الأول بما يعرف بإجراءات التحليل الداخلى أو تحليل الأسلوب) فهى الكيفية التي يتم بها تحريك النغمات أثناء الغناء، وهى أيضاً الناحية التي نحاول تقديم أمثلة لها:

- يبين الرسم التالى شكل الحركة الصوتية (سعة ومدى) للمقطع الغنائى المبين فى التدوين الموسيقى رقم (١) ويبلغ زمن أدائه ١٧ ثانية^(١). ويبين الرسم الثانى شكل الحركة الصوتية خلال ثانيتين إلى ثانيتين ونصف الثانية.

رسم (١) *



رسم (٢)



(*) نفذت هذه المحاولة على الأجهزة الخاصة في استوديو منير الريمي واستخدم لها كروت الصوت المعتمدة في التسجيل الصوتي بواسطة الحاسب الآلي مع استخدام برنامج cue base لتحويل الإشارات الصوتية المتحركة إلى صورة ثابتة يمكن طباعتها.

وثمة طريقة مقترحة لقراءة هذه الإشارات (من حيث سعة التردد ومده، أى قراءة الحركة الصوتية التى تحدث كل ثانية من زمن الأداء) فالأرقام الأفقية فى الرسم رقم ١ تمثل وحدات الزمن مقدرة بالثانية مضاف إلى ذلك تعيين سعة التردد/الاهتزازة بكتابة أسماء النوطات الموسيقية التى تتحرك خلالها إشارات الصوت^(١)، وعلى ذلك يمكن قراءة شكل الحركة الصوتية فى الثانية الأولى من زمن الأداء الوارد فى التدوين الموسيقى رقم ١] هكذا: (ث ١ دو)، وشكل الحركة الصوتية فى الثانية رقم ٢ (ث ٢ فا) وشكل الحركة الصوتية فى الثانية الثالثة (ث ٣ مى) ثلاثة أرباع التونه رى دو) وهكذا. ويمكن بهذه القراءة المقترحة قراءة شكل التردد (حركة الصوت) خلال أى زمن مضاف. والجدير بالذكر أن هذه الطريقة المقترحة يستعاض عنها ببرامج قياس اليكترونية يستخدم فيها الحاسب الآلى للحصول على نتائج أكثر دقة وخاصة تلك النتائج التى توقعنا على معرفة عناصر القياس المهمة التى أشار إليها ماننيل هود وهى:

- أقصى النطاق (مقدار الكيلو هيرتز KHZ)
 - المدى الكلى أو الجزئى للأصوات التوافقية.
 - خط الطبقة الصوتية الثابت أو المتذبذب.
 - الغلاف المحكم أو الغائر.
 - المدى الزمنى للصعود.
 - المدى للانطلاق أو التراجع.
 - الطبقة الصوتية الصاعدة أو الهابطة أو المنحنية فى طريقة بدء العزف أو الغناء.
- وفى كل الحالات يمكن الخروج بنظام لقياس شكل تردد الأصوات الموسيقية ومقارنة نتائجها الرقمية (الحسابية) بالنتائج المستخلصة من أشكال تردد الأصوات الأخرى، مع التذكير بأن هذه الإشارات بمثابة البصمة لا تتساوى ولا تتطابق إلا مع نفسها.

(١) نقدم هذه المحاولة كمثال على إمكانية الدخول بنظم التحليل الموسيقى إلى هذه الآفاق مع تحفظنا الشديد على كل الأفكار المقترحة فى هذا الخصوص، ذلك أن هذا المجال ما يزال فى حاجة إلى مزيد من العمل لضبط الأدوات والمنهج.

وبالعودة إلى الأداء التقليدي للموال نلاحظ أن الفنانين الشعبيين درجوا على إظهار علاقات تكوينية بين شكل الموال (الشعر) وشكل الأداء (الموسيقا)، وهي علاقات لا تقف عند شكل التقسيم الثلاثي (المتقابل) في كل من الشعر والموسيقا المصاحبة له؛ وإنما تتجاوزها لتظهر المبدأ الفني الذي قام عليه هذا التقسيم، فالشعر -في الموال- يبدأ بالعنب، أى التقديم أو الاستهلال الذى يتحقق فى الأداء بعمليات موسيقية تظهر فيها أساليب (التحضير، التمهيد، النغمى إلى أن تحين لحظة الانتقال بالشعر إلى قسم الردفة وهى وسط الموال، أو بالأحرى قلب الموال الشعر وقلب الموال الموسيقا، حيث يتصاعد فيه اللحن باستعراض متقن لطرق الأداء المتعارف عليها فى أداء الموال، وعلى وجه الخصوص: تلك الطرق التى تنشئ علاقات متآلفة ومثيرة، بين التفاصيل الصوتية الرهيفة وبعضها البعض من ناحية، وبينها وبين النغمات الأساسية فى الأداء، من ناحية أخرى. ثم يأتى بعد ذلك الغطاء فى الشعر، ويعنى نهاية الموال التى تصاغ فى الأداء الموسيقى، بما يعرف بالقافلة أو التسليم. على أن التقابل -فى شكل التقسيم- بين الشعر والموسيقا المصاحبة له، وكذلك مراعاة المبدأ الذى قام عليه هذا التقابل؛ لم يعد شرطاً ملزماً -عند المغنيين البلديين المعاصرين- لكى يتحقق الشكل المميز للأداء الموسيقى الموالى، فالمغنى المقدر فى إمكانه التغاضى عن ضرورة أن يكون الشكل الشعرى للموال قائماً على التقسيم الثلاثى التقليدى شريطة أن يلتزم بهذا التقسيم فى الشكل الموسيقى الموالى وشريطة أن يلتزم بإظهار العمليات الموسيقية التكوينية التى يتميز بها هذا الشكل الموسيقى، وهى الحالة التى استطاع فيها المغنيون المحترفون أن ينشئوا شكلاً موسيقياً متكاملًا للأداء الموالى لا يستخدمون فيه سوى شطرة شعرية واحدة أو شطرتين، بل استطاعوا أيضاً أن ينشئوا هذا الشكل الموسيقى معتمدين على التغنى بكلمة واحدة فقط، وأقرب مثال على ذلك: النماذج الغنائية الشائعة للأداء الموالى المتكامل الشكل الذى لم يستخدم فيه المؤديون سوى كلمة يا ليل وياعين وآه وغيرها من المفردات التى يسمح تكوينها الإيقاعى بهذا الاستخدام، فمن مزايا الأداء الموسيقى الموالى أنه يقوم على طرق وأساليب أداء يمكن الاستفادة منها فى تطويع تفاعيل النظم الشعرى للبيت الواحد، بل وتفاعيل الكلمات المفردة لحركات وسكنات هذا الصنف من الأداء الموسيقى، وهى المزايا التى جعلت الشكل الموسيقى الموالى (بأقسامه الثلاثة) نموذجاً للتكوين للحنى

الذى يتجاوز -بشكله ومكوناته وأساليب أدائه- بساطة التصويت الغنائى (التي تعرفها أغلب الأشكال الغنائية الشعبية) إلى عمليات صوتية بالغة الدقة، وهى أيضاً المزاياء نفسها التى يتعين على العازفين أن يخبروها جيداً عندما يبعثون محاكاة الألحان التى تصدر بالتصويت البشرى فى الأداء الموالى، أو عندما يبعثون إنشاء الشكل الموسيقى (الآلى) المعروف باسم التقاسيم.

أما الأداء فى الموال القصصى (الطويل) فيبدأ على غرار البداية نفسها التى تأتى فى الموال القصير. وعلى الرغم من أن المدخل الشعري للموال القصصى يتكون من عتب فقط؛ فإن بداية الغناء قد تتحول إلى أداء موسيقى ثلاثى الأقسام كالذى يحدث تماماً فى حالة أداء الموال القصير المتكامل الأقسام.

وعند البدء فى أداء متن القصة يتجه المغنى ناحية تأكيد الأسلوب المميز لأداء قصته، وهو الأسلوب الذى يعتمد فيه المغنيون -غالباً- إلى الأداء بطريقة القولة والردة يفصل بينهما لزمة موسيقية آلية، وهى طريقة قريبة الشبه إلى حد كبير من الأداء بطريقة بالسؤال والجواب الموسيقيتين.

وخلال الأداء يلجأ المغنى إلى تغيير أسلوب أدائه لى يتناسب والعمليات الموسيقية التى يقتضيها الأداء الغنائى المتواصل الذى يمتد لساعات، من هذه العمليات:

- كسر قاعدة الوزن الموسيقى الحر بتحويل أداء عدة شطرات من الشعر إلى الأداء بالوزن الموسيقى القياسى. ثم التحول بأداء هذه الشطرات نفسها إلى الأداء الموالى غير المقيد بالوزن القياسى.

- تحويل أداء عدة شطرات من الشعر إلى الوزن الموسيقى القياسى ثم التحول إلى أداء شطرات شعرية أخرى بطريقة الموال غير المقيدة بالوزن القياسى.

- الأداء بطريقة غناء الموال على الواحدة الموزونة وزناً قياسياً وتطويع لحن الموال نفسه -من حين لآخر- للوزن القياسى والعودة إلى الأداء الموالى على الواحدة... وهكذا لفترة من الأداء قد تطول وقد تقصر وبحسب مقتضيات التصعيد النغمى، مثال ذلك*:

(١) المثال مقتبس من المقطع الأول لموال شلبية غناء: معوض شمس الدين، أرشيف مركز دراسات الفنون الشعبية، سنة ١٩٧٥ .

يا دهر كلك حوادث مؤلمة ونعيم
ومعادن الخلق فيها من الخشن ونعيم
الدنيا فانيه وعجب وفيها التعب ونعيم



- استخدام طريقة الخاتمة الغنائية المتبعة في أداء الموال القصير، وذلك من حين لآخر، ثم العودة منها إلى الأداء بطريقة القولة والردة أو العودة منها إلى الأداء على الواحدة أو الأداء الموزون قياسياً، وهكذا.

وفي ختام القصة يلجأ المؤدى -غالباً- إلى الخاتمة الغنائية التامة المتبعة في أداء الموال القصير مستخدماً شطرات شعر الردفة والغطاء المتبقيتان من الموال القصير الذي جاء في صدر القصة، وبذلك يكتمل أداء القصة شعراً ولحناً.

الأداء الموسيقى للطقطوقة:

لا يعرف الباحثون -على وجه الدقة- متى بدأ غناء الطقطوقة (وسائر منظومات الغناء الموزون قياسياً) يدخل إلى دائرة الغناء البلدى ويتحول شيئاً فشيئاً إلى بند مهم في محفوظ المغنى، ولذلك فإن رصد هذه الإضافة الفنية ينصب -فى المقام الأول- على الواقع الموسيقى المعاصر.

إن أداء الطقطوقة يعد علامة مميزة لكيفية معالجة المغنى البلدى للأداء الموقع والموزون وزناً قياسياً، وعلى الرغم من أن الوزن -فى عمومه- يستمد عادة من شكل النظم الشعرى للطقطوقة ومن وزن تفاعيلها؛ فإن أداء الطقطوقة -عند المغنى البلدى- لا يجرى مستقلاً عن السياق الموسيقى الذى يجرى عليه أداء الموال القصير، وهو اقتران لا يجوز إغفاله عند رصد الأداء الذى يعرفه المغنيون البلديون، لاسيما وأنه يظهر الشكل المميز لما يعرف بالوحدة الغنائية التى تقوم على وصل الموال بالطقطوقة ووصل الطقطوقة بالموال، رغم أن كلا منهما لا يتفق مع الآخر فى خاصية الوزن.

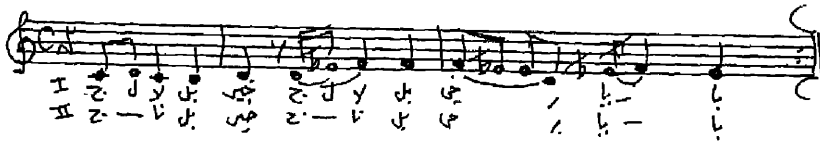
مذهب الطقطوقة:

جلاّب الخير، جلاّب الخير يابا
جانا بالخير، جانا بالخير يابا

كوبليه الطقطوقة:

وعريس بيطل وجاب الكل
خد ست الكل وزى الفل يابا

المذهب الغنائى:





واقتران الطقطوقة بالموال - فى الغناء البلدى - يجرى فى مسار لحنى متصل . ولأن هذا المسار يتحول - عند بداية الطقطوقة - إلى الوزن الموسيقى القياسى ؛ فإن مقومات هذا المسار تتخذ أشكالاً واتجاهات وسرعات مختلفة عن تلك التى تتخذها مكونات الأداء الموالى . لكن المسار يظل - مع ذلك - قائماً على وحدة الأداء التى تسمح بإعادة أداء الموال بعد انتهاء الطقطوقة ، وداخل الطقطوقة وفى إطار الوزن القياسى أيضاً دون التقيد بتأثير نبرات هذا الوزن (الشديدة أو الخفيفة) وهو ما يعرف فى الأداء بـ: غناء الموال على الواحدة الذى سبق ذكره .

ولا شك أن دخول الطقطوقة إلى محفوظ المغنى البلدى أثر بدرجات مختلفة فى القيم الموسيقية التى كانت سائدة قبل اعتماد الطقطوقة بنداً من بنود الغناء البلدى، ولعل المراحل التى مرَّ بها شكل المصاحبة الآلية -عند المغنى البلدى- تكون شاهدة على هذا التأثير. فالغناء البلدى، أو بالأحرى غناء الموال عند المحترفين كان يجرى بمصاحبة آلة أرغول واحدة (من الحجم الكبير مقاس ٢٤) أضيف إليها -فيما بعد- آلة سلامية واحدة، ثم زيد عدد آلات هذا التكوين فظهر الأرغول مع السلامية كل فى زوجين فكان حجم إحدى آلتى الأرغول ضعف حجم الأخرى وكذلك الحال بالنسبة لآلة السلامية، وعليه كان الحجمان الصغيران للأرغول والسلامية يستخدمان فى مرتبة ريس (لأداء الألحان الرئيسية) بينما كان الحجمان الكبيران يستخدمان فى مرتبة تبيع (لمساندة الألحان الرئيسية). وبهذا التكوين الآلى كان يتشكل الجرس الصوتى المصاحب لصوت المغنى. ولأن الغناء لم يكن يتشكل إلا فى حدود الموسيقى المقترنة بالموال، فلا حاجة حينئذ للتوقيع أو وزن الألحان، ومن ثم ظل التكوين الآلى المصاحب للمغنى البلدى قاصراً على آلات الغاب وحدها، وأصبح هذا التقليد علامة مميزة للمغنى البلدى وفرقه الموسيقية، وحتى بعد دخول الطقطوقة لم يندفع

المغنيون تجاه التغيير دفعة واحدة، إذ ظل الكثير منهم- حتى العقود القليلة الماضية - يراوحن (في أدائهم) بين الإمكانات التي تتوافر عليها آلاتهم الغاب التقليدية، وبين المقتضيات الفنية الجديدة التي يعوزها أداء الطقطوقة. وإذا كانت إغراءات التغيير والاستحداث الفني وضروراته تلكأت عند فريق محافظ من المغنيين البلديين، فإنها ما لبثت أن تشكلت -في صور متعددة- عند فريق آخر منهم راح يدخل، ليس فقط آلات النقر والتوقيع كالرق والدريكة، وإنما آلة العود والكمان وآلات أخرى لم يكن للمغنى البلدى عهداً بها في الزمن السابق.

(٣)

ظاهرة الاحتراف الموسيقى عند غجر مصر «الشعراء والمداحون»^(١)

ذكرنا فى الفصل الأول أن النظرة التى تشكلت لدى العامة حول المبدعين الموسيقيين المحترفين - ومهما كانت طبيعة دوافعها - كثيراً ما كانت تنطوى على تقديرات متباينة، كان الناس يكتونها للدور الفنى المتميز الذى لعبه المبدعون المحترفون فى الحياة الفنية الشعبية، ليس فقط المبدعون الذين كانوا يعيشون بين الناس كالمنشدين ومغنى الموال وإنما المبدعون الموسيقيون «الغرياء» أيضاً، وهم الشعراء والمداحون. فالمحترفون هم الذين أشاعوا الغناء القصصى ونشروا السير والمدائح والموال فى كل أنحاء البلاد، وهم الذين روجوا الآلات والأدوات الموسيقية والألحان وأساليب الأداء الخاصة بهم فى القرى والتجوع وفى الحواضر أيضاً. ولم تتبدى مزاياهم على هذا النحو فحسب، وإنما راحت - هذه المزاي - تثرى الفعل الموسيقى «المتواضع» الذى يصدر عن عامة الناس فى البيت وفى المسجد وأثناء العمل..

ولما كنا قد أفردنا موقعاً للحديث عن المنشد الدينى «الصييت» وحديث آخر عن مغنى الموال؛ فإننا نفرّد هذا الموقع للحديث عن فئة أخرى هى فئة الشعراء والمداحين، ويأتى هذا الحديث استطراداً لمحاولة الوقوف على طبيعة الخصوصية الثقافية لهؤلاء المحترفين.

١ - شعراء السيرة:

الشعراء هم فئة من المغنين الشعبيين، تخصصوا فى أداء السيرة الشعبية فى مصر. وسموا «شعراء» بسبب تميزهم فى القدرة على ابتداع الشعر أثناء الأداء الغنائى، والقدرة على تنويع الصيغ والتراكيب الشعرية التى يقدمون بها وقائع وأحداث السيرة الشعبية المعروفة سلفاً.

أما السيرة الشعبية، فهى شكل فنى أدبى يعتمد فى بنائه الرئيسى على الصياغة الشعرية. وهناك طائفة من الموضوعات القصصية تحقق لها خصائص الشكل والبناء الفنى للسيرة، نذكر منها - وعلى وجه الخصوص - السيرة التى تحولت إلى

(١) فصل من دراسة بعنوان «موسيقا الغجر فى مصر، تحت الطبع».

موضوع غنائى عند الشعراء المغننى، وهى سيرة عنتره بن شداد والسيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس. على أن الهلالية ظلت - إلى اليوم - السيرة الوحيدة التى يرددنها المغنون، وهى أيضاً الموضوع القصصى الغنائى الرئيسى الذى اقترن بالشعراء المغنين، والذى يعد - فى الوقت نفسه - معياراً لتصنيفهم فنياً واجتماعياً. وللشعراء طرق وأساليب أداء موسيقية مميزة يقدمون بها أحداث السيرة كما أن الشاعر يستخدم آلة الربابة، يعزف عليها أثناء الغناء، وقد يستعين بعازفين على هذه الآلة فى صورة «فرقة» موسيقية، ومن الشعراء من يستخدم آلة «الفيولين» يعزف عليها أثناء الغناء، ومن الشعراء من يصطحب عازفين على هذه الآلة فى صورة «فرقة» موسيقية. وبجانب ذلك هناك طائفة من الشعراء تميزوا بأداء السيرة على آلة الدف، حيث ينفرد المغنى بالتوقيع عليها أثناء الغناء، وتلك هى أقدم طرق الغناء لشعر السيرة فى جنوب البلاد.

وعلى الرغم من أن السيرة الهلالية لاقت - على مستوى الموسيقى والمضمون القصصى - رواجاً وشيوعاً لم تلقاهما أية سيرة شعبية أخرى (فى مصر) فإنها - مع ذلك - لم تبرئ مبدعيها الشعراء المغنين مما سُموا به من صفات باعدت بينهم وبين الناس فى الحياة الاجتماعية الشعبية، وعلى الرغم أيضاً من أن السيرة راحت تتشابه ومأثورات الناس وتستدعى فى العديد من المواقف التى تشهدها شئون الحياة؛ فإن مكانة المؤدين الذين أبدعوا شعراً وألحاناً راحت تحاط بسياج من التحفظات والمحاذير. فالشائع - عن شعراء السيرة (وخاصة الشعراء التقليديون) - إنهم فئة من المغنين ينتمون إلى جماعات العجر المصرية، وأولئك يتكونون من أسر وعوائل تعتمد - فى كسب عيشها - على التنقل والترحال من مكان إلى مكان بين أقاليم مصر وبعضها البعض.

وللعجر أساليب متنوعة فى كسب عيشهم تنحصر جميعاً فى أنواع بعينها من المهن والحرف أشتهروا بها، ومنها الغناء، والرقص وكى الحمير واصطياد الثعابين وجمع الزجاج والمعادن وتصليح الأقفال والكوالين والاستجداء. كما أنهم يتاجرون فى الخردة وفى العطاره وما شابه.

والعجر وإن كانوا - خلال العقود القليلة الماضية - قد تداخلوا مع المجتمع فى كثير من النواحي، وتقبلتهم الكثير من المجتمعات التى عاشوا على أرضها عيشة مستقرة، متمثلين لقدر من ثقافتها، ويعترف بهم على المستوى الرسمى ويقرر

لأفرادهم حقوقاً متساوية؛ فإن هذه المجتمعات ظلت على نحو عام - تنكر على الغجر هذه الحقوق والميزات، ومن ثم ظل الغجر - جماعات تعيش في المجتمع في وضع هامشي، وباتت العلاقة بينهم وبين الأهالي مزيجاً من العلاقات الضعيفة والعلاقات العدائية.

هذه العلاقة، ولاسيما في جوانبها المهمة، كانت تصاغ دائماً وفق الفكرة السائدة عن الغجر والتي أثرت - وماتزال - على مجالات كثيرة من مجالات تعاملهم وتداخلهم مع المجتمع، وهى الفكرة التى كانت تؤدى دائماً إلى تعميق الإحساس بالفارق والاختلاف بينهم وبين عامة الناس، والغجر أنفسهم ساهموا فى تسيد ما شاع عنهم من أفكار لدى العامة وساهموا فى نشر المفاهيم النمطية التى تراكمت فى حقهم، وحتى إن كانت هذه المفاهيم والتصورات مختلفة عن صورتهم الحقيقية فإنهم (أى الغجر) - ولأنهم يبدون متميزين فى جوانب معينة - فقد ساعدوا على تأويل هذا التمايز.

لقد عرف عن الغجر، أنهم «يؤتون أفعالاً غريبة لا يمكن تفسيرها إلا فى ضوء مفاهيم الانحراف التى شاعت عنهم». فالغجر معروفون بين الناس بأنهم لصوص وسحرة ملعونون، وأنهم لا يستقرون على حالة، وأنهم قوم منعزلون لا يتصلون بالناس إلا إذا كانت لديهم حاجة أو نفع عندهم فيستجدونهم أو يتحاليون على نيلها بوسائل عديدة.

ونساء الغجر يتصفون بالجمال، ومن ثم فإنهم مصدر للإثارة. ومن منهن يمتهن الرقص وصف بالانحطاط وفساد الأخلاق^(١). هذه الأفكار النمطية، السائدة عن الغجر، انعكست على سائر مجالات التعامل بينهم وبين عامة الناس فى مجتمع الثقافة الشعبية، لكننا - وحتى لا نبتعد عن سياق الموسيقيين المحترفين - نركز على المجال الذى يخص الشاعر ويبرز وضعه فى الحياة الفنية. فالشاعر لم يستطع التأى بوظيفته عما لحق بأهله وذويه من صفات. وهو - ولأنه واع بطبيعة وضعه كغجرى

(١) هذه المعلومات (الواردة عن حياة الغجر الاجتماعية) أقتطعت من صفحات متفرقة من دراستي:
* نبيل صبحى حنا: «البناء الاجتماعى والثقافى فى مجتمع الغجر» (دراسة أنثروبولوجية لتأثير البناء والثقافة والشخصية على التكامل الاجتماعى)، دار المعارف، مصر ١٩٨٣ م.
* جوفانى كانوفا: «الغجر وسيرة الزير سالم، المأثورات الشعبية» (دورية)، العدد ١٧ السنة الخامسة. مركز التراث الشعبى بدول الخليج العربية، الدوحة/ قطر ١٩٩٠ م.

- فإنه يتخذ من عالم السيرة ومن أدائها ملازماً، لا ليقيصيه عن مواطن الاحتقار التي يتعرض لها فحسب، وإنما ليعلوه فوق عامة الناس. فمن الشعراء نفر يظهرون تعفّفهم تجاه مهنة الزراعة، ويصفونها بأنها مهنة عامة الناس التي لا تليق بالشعراء، في الوقت الذي يعلنون فيه من شأن حرفتهم ومن ميزة اقترانهم بالسيرة وبمجالات أدائها. ويدعى بعضهم أن السيرة بفعل قوتها الكامنة اجتذبت الكثير من الفلاحين وحملتهم على ترك الزراعة وامتلاك الأراضى وحولتهم إلى شعراء عظام انقطعوا لأداء السيرة ولأشعارها. ومن الشعراء فريق يدعى الانتساب إلى عرب بنى هلال، ويذكر بعضهم أنهم ضربوا بالعصا - فى طفولتهم - لكى يجودوا أشعار السيرة بوصفها تاريخ العرب المعرض للخطر، وأنهم - إذا كانوا قد حفظوا السيرة وتعلموا قواعد أدائها - فإنهم قد حافظوا بذلك على تواصل السلسلة لثراث العائلة الشعرى.

وبجانب ذلك، هناك العديد من الشعراء يعمدون - فى أحاديثهم - إلى إظهار مدى علاقتهم بهذا التاريخ القبلى بدرجات مختلفة، وكيف أنهم يفخرون ويعتزون بانتسابهم إلى قبيلة بنى هلال، وهم بذلك إنما يرمون إلى إزاحة الشكوك والحيطة والرفض الدائم الذى يتخذه المجتمع حيالهم. وليس من المستغرب - فى هذا السياق - أن يخرج نفر من هؤلاء الشعراء مدعياً النسب إلى أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو إلى واحد من أنصاره رضى الله عنهم إنطلاقاً من المبدأ نفسه المتعلق بأصلهم الغجرى والذى تنطلق منه نظرتهم إلى أنفسهم ونظرة الآخرين إليهم.

٢ - المداحون:

لم تنكر الحياة الشعبية على الغجر حقيقة أن عالمهم الاجتماعى المغلق يحتشد بالعديد من المزايا التى أثرت الحياة الفنية الشعبية، فمنهم خرج شعراء السيرة وخرج «الأدبائية»، والقردياتية، وخرجت الرقصات والبهلوانية والحواة وأصحاب الألعاب النارية وغيرهم.

من هذا الثراء الفنى - الذى شهدته تقاليد حياة الغجر - ظهرت فئة من المغنين تخصصت فى أداء شكل مميز من الغناء القصصى الطويل انتشر فى مصر وراج فى أقاليمها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، أولئك هم المداحون. والمداحون ليسوا جميعاً رجالاً، فمن بينهم عدد كبير من النساء راح يبرز خلال العقود الماضية ويتصدر مجال الأداء عند هذه الفئة من المغنين، بينما راح عدد

المداحين الرجال يتناقص في الحياة الفنية الشعبية، وبات من المعروف اليوم أن حرفة «المديح» إنما تنسب للنساء على نحو خاص.

والمداحون، أو بالأحرى المداحات، مغنيات متجولات تجبن الحوارى وينشدن على النواصي وعلى أبواب الدور طلباً للعطايا. وعلى الرغم من أن قصص المدايح - عند أولئك المؤديات - يقوم على الأداء الفردي والتوقيع على الدف في آن؛ فإن المداحة غالباً ما تصطحب معها نفرأ من الرجال أو النساء للضرب على الدف ولترديد أجزاء من المقاطع المغناة. وقد يتناوب المصاحبون (مع المداحة) الغناء، أو يتبادلون الأداء فيما بينهم.

أما عن قصص المدايح، فقد شاعت منه طائفة كبيرة، نذكر منها: قصة أيوب وقصة فاطمة بنت برى وقصة سارة والخليل وقصة كيد النساء، وقصة سعد اليتيم، وقصة عالية بنت العقيلي جابر، وقصة الختام، وقصة مامونة، وقصة قميص النبي (صلى الله عليه وسلم) وغيرها.

وثمة علاقة بين المداحات والشعراء، لا تقوم فقط على صلة الانتساب العرقى وإنما تقوم على صلات فنية، فإذا ما استثنينا حالات التدهور التي آل إليها المأثور الغنائي الذي عرفناه عند المغنين الشعبيين التقليديين، والتي اختلطت فيها الأشكال وتداخلت مع بعضها البعض، وإذا ما استثنينا أيضاً ما تشهده الحياة الفنية المعاصرة من تحرر واضح من تقاليد التخصص القديمة - إذا ما استثنينا هذا وذاك -؛ فإن ثمة صلات فنية ربطت بين المداحين والشعراء، منها أن الأداء الموسيقي - عند بعض الشعراء يقوم على مساندة من أحد ضاربي الدف، وهذا الضارب غالباً ما يكون مداحاً (رجلاً كان أو امرأة) وتتضح هذه الصفة بجلاء عندما يسمح مجال الأداء بتفرد هذا الضارب بأداء بعض مما يحفظ من غناء، حينئذ نجده لا ينشد إلا في قصص المدايح غالباً.

في هذا الإطار الفني - الذي يضم المغنين الجوالين - يتشرب المؤدون فنون بعضهم البعض، وعلى الرغم من أن الوقوف على إطار من التخصص الغنائي ظل مرهوناً بالإمكانات الفنية الفردية ويمدى ما يتحصل عليه هذا الفرد أو ذاك من محفوظ غنائي من ناحية، ويمدى ما يظهر من براعات ونجاحات في الصنف الغنائي الذي راح يجربه ويؤديه أمام الناس، من ناحية ثانية؛ فإن ثمة تداخل «قديم»

بين تخصصات الغناء عند المؤيدين الجوالين راح يظهر فيما ينشده المداحون والشعراء من موضوعات بعينها . فبالإضافة إلى تشابه المقدمات واللزمات الشعرية التي يستهل بها الشاعر والمداح غناءهما، هناك موضوعات غنائية مشتركة تدخل في اختصاص كل من الشاعر والمداح وتأتي في إنشادهم، فالكثير من الشعراء ينشدون من قصص المداحين قصة أيوب، وقصة مامونة، وقصة قميص النبي (صلى الله عليه وسلم) وغيرها. كما ينشد المداحون بعضاً من أحداث سيرة بنى هلال، وأكثر أحداث السيرة رواجاً في غناء المداحين الأحداث التي تعرض لقصة أبا زيد الهلالي وعالية العقيلية .

وبجانب ذلك هناك وحدة في النظم الإيقاعية التي يقوم عليها الأداء في السيرة وفي المدائح، لاسيما وأن هناك طائفة من مؤدى السيرة لا يستخدمون لغنائهم سوى آلة الدف، بكل ما يدور في نطاقها من استخدامات إيقاعية مشتركة بينهم وبين المداحين من حيث الشكل وطريقة وأسلوب التوقيع، نذكر منها على سبيل المثال التوقيع بالتصفيق بالأكف مع استخدام الدف، وهو التوقيع المعروف باسم «الفرد والجوز» .

ومع تعدد الخصائص الفنية التي ربطت مغنى المدائح بالشعراء وبأدائهم برزت صفات مشتركة في «الشكل، عند كل من الفئتين، وخاصة في الحالات التي يلجأ فيها المداحون والشعراء إلى الاعتماد على عناصر فنية بعينها، وهو الغناء الذي يتخلله بعض السرد والتعبير بالحركة الجسدية وبالإشارات والإيماءات وما شابه .

يبقى أن هذا التداخل الواضح - بين المداحين والشعراء - سواء من الناحية الموسيقية الفنية أو من ناحية الطريقة التي روجوا بها قصصهم؛ أحاطتهم بالمفاهيم نفسها التي لحقت بذويهم وأبناء عموماتهم الشعراء الجوالين، ولم يشفع لهم انقطاعهم لأداء المدائح وقصص الرسل والأنبياء من الاندراج تحت طائلة التصور النمطي الشائع الذي وسم به العجر - بكل فئاتهم وتخصصاتهم - عند عامة الناس إلا ما ندر.

(٤)

شاعر السيرة وآلة الربابة^(١):

من المبادئ الأولية التى ينطوى عليها الغناء بمصاحبة آلة موسيقية منغمة أن يكون هناك علاقة صوتية بين صوت المغنى والصوت الصادر عن الآلة. وثمة قاعدة مهمة تنظم هذه المبادئ الأولية تتمثل فى: مراعاة نغمة الأساس Tonique والتقييد بدرجتها، فهذه النغمة - وإن كانت اختيارية^(٢) - فإنها (ومتى تمت تسوية الأوتار) تصبح النغمة الزساسية الثابتة التى يتعين على المغنى الالتزام بها طوال فترة الأداء. وهى النغمة الأساس التى يقاس عليها أية انتقالات من نغمة إلى نغمة أخرى، وهى أيضاً النغمة المسيطرة (المؤثرة) الجاذبة التى يستقر عليها اللحن عند إحداث النهايات أو القفلات. ولهذا المستوى من الأداء خصائص ظاهرة يمكن اعتبارها أسباباً أولية اقتضت وضعه وضعاً متفرداً ومستقلاً فى قائمة مستويات الأداء التى تشملها مدرسة شعراء الوجه البحرى. وأهم هذه الأسباب:

(١) الربابة كما عرفها الأقدمون: اسم لآلة موسيقية وترية، يستخرج نغمها بقسمة الأوتار التى تشد بها. وربما شد بها وتران متساويان فى الغلط أو متفاضلان (أبى نصر محمد بن فرحان الفارابى/ المتوفى سنة ٣٣٩/ الموسيقى الكبير/ تحقيق غطاس عبد الملك خشبة ومحمود أحمد الحفنى/ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر/ القاهرة سنة ١٩٦٧ ص ٨٠). والربابة كما تعرف اليوم: آلة موسيقية شعبية تنتمى إلى فصيلة الآلات الموسيقية الوترية، وتتكون من مساعد أسطوانى ينتهى بمصوت مجهز من ثمرة جوز الهند: ويشد على الربابة وتران من الشعر متساويان فى الغلط (سبيب) يجر على الواحد منهما (ويحسب الحاجة) بقوس من الخيزران شد طرفاه إلى بعضهما البعض بحزمة من شعيرات الخيل، ويجرى إصدار النغم من الربابة بتقسيم الوتر عن طريق العفق بأصابع كف اليد اليسرى. وهذه الربابة كانت منذ ما يزيد عن قرنين من الزمان تعرف باسم الكمنجة العجوز، أى الكمنجة القديم، والكمنجة الفرخ، أى الكمنجة الصغير (النصف) -فيوتو/ وصف مصر/ ج ٩ ترجمة زهير الشايب/ نشر مكتبة مدبولى ١٩٨٦ ص ١٤٩، ١٧١، أما ما كان يعرف فى السابق باسم الرباب القدح أو رباب الشاعر، فهى تلك الآلة التى يتخذ مصوتها شكل (المعين) ويشد عليها وتر واحد، ولا تستخدم إلا لدى الشعراء عند إنشادهم الروايات المغناة والمنظومة شعراً. ويوجد من هذه الآلة ما يشد عليها وتران، ولكنها فى هذه الحالة لم تكن تصاحب غناء الشعراء، وإنما كانت تصاحب فنون الغناء الأخرى، ولذا سميت بربابة المغنى فيوتو/ وصف مصر/ ج ٩ مرجع سابق ص ١٨٤. وادوار وليم لين/ المصريون المحدثون ترجمة عدلى طاهر نور ط ٢ -دار النشر للجامعات المصرية سنة ١٩٧٥ -ص ٣١٥).

(٢) تختار هذه النغمة وفق طبقة صوت المغنى.

- إن الشعراء المغنين فى هذا المستوى من الأداء لا يستعينون بأية آلة أو أداة موسيقية لمساندة صوت الرابطة التى تستخدم فردية دائماً.

- إن الرابطة - فى مدرسة شعراء الوجه البحرى - قلما تستخدم فى مصاحبة أى نمط غنائى آخر يكون مستقلاً عن السيرة أو يكون خارجاً عن الإطار الفنى الذى تدور فيه السيرة ويخدم عليها أو يكون خارجاً عن المحفوظ الغنائى الذى اختص به الشاعر.

- فى هذا المستوى من الأداء يوجد تشابه ملحوظ فى السمات الفنية والاجتماعية العامة يربط بين المؤدين وبعضهم، وهناك صلات قرنى وصفات شخصية مشتركة تجمع بين هؤلاء الرواة وبعضهم البعض مما يشير إلى أن هناك إطار فنى وثقافى خاص يحكم هذا المستوى من الأداء وينظم عملياته الموسيقية.

ومن البديهي - عند تجاوز هذه الأسباب الأولية الظاهرة إلى درس طرق الأداء درساً مدققاً - أن تستبين بقية الأسباب وتتعدد المبررات التى عملت على تفرد هذا المستوى من الأداء بكل ما اختص به من أساليب وتقاليد، ومما لا شك فيه أن محور هذه الأسباب وتلك المبررات هو «الرابطة»، حيث يبرز لها دور فنى رئيسى مهم. فبالإضافة إلى أن صوتها يعد عنصراً من عناصر الأداء فإنها تعد - فى الوقت نفسه - ركيزة أساسية تنظم بها وعليها العناصر الفنية الأخرى التى يتشكل منها الأداء^(١). ويأتى انتظام هذه العناصر دائماً على النحو الذى يبرز - فى هذا المستوى - وحدة الشكل واستقلاليته، ويبرز أيضاً خصوصية الأسلوب الذى تنطوى عليه العمليات الفنية الداخلية التى يتشكل بها الجرس الصوتى بنغماته وإيقاعاته.

والرابطة (التي يستخدمها الرواة المعاصرون) - ماتزال - الآلة الموسيقية الشعبية، الوحيدة لدى رواة السيرة فى الوجه البحرى، توارثوها عن السلف، ومايزال استخدامها حتى الآن يمثل عاملاً أساسياً فى تشكيل هذا المستوى من الأداء وتحديد معالمه على النحو الذى يمكن وصفه بأنه: الشكل التقليدى (النموذج) لطريقة أداء السيرة على الرابطة، وليس من قبيل المصادفة - عند دراسة عناصر وأساليب هذا المستوى من الأداء - أن تتوافر الشواهد التى تبرهن على انتماء بعض هذه العناصر

(١) لا يمكن للمرء أن يميز هذا الأداء من الناحية المبدئية إلا بواسطة صوت آلة الرابطة الذى يدخل عنصراً واضحاً فى تكوين المحصلة الصوتية لعملية الأداء (الجرس الصوتي).

والأساليب إلى أصول قديمة عرفها هذا الفن الغنائى فى مراحل تاريخية سابقة، فهناك ثمة تشابه يمكن ملاحظته بوضوح بين الكيفية التى يتشكل بها الأداء فى هذا المستوى، والكيفية التى كان يتشكل بها نمط آخر مماثل قديم لأداء السيرة كان ذائع الصيت فى مدينة القاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر^(١).

على أن الآلة الموسيقية التى كان يحملها شعراء القرن الثامن عشر كانت ذات وتر واحد وذات مصوت من الخشب المكسو بقرق من الجلد (ربابة الشاعر/ أو القدح) أما الآلة الموسيقية التى تخص الشعراء المعاصرين (الذين يمثلون هذا المستوى من الأداء) فهى تلك التى يشد عليها وتران، وذات مصوت مجهز من ثمرة جوز الهند، وهى التى كانت تعرف باسم «الكمنجة».

ومع أن آلة الربابة القدح لم ترج فى مدرسة الوجه البحرى فى مصاحبة غناء السيرة^(٢) وشاعت بدلاً منها الربابة الجديدة «الكمنجة»، فإن الكثير من تقاليد الأداء المعاصرة التى اعتمدت عليها هذه المصاحبة الآلية المفردة لم تختلف كثيراً عما كان متبعاً فى التقاليد النظرية التى عرفها الشعراء الذين كانوا يستخدمون الربابة القدح^(٣)، خاصة وأن أساليب العزف وكذلك النظم الفنية التى يتعين مراعاتها عند الأداء على هاتين الآلتين لم تظهر جميعها أى اختلاف فنى جوهري من شأنه أن يؤثر فى محصلة الأداء أو فيما يمكن تسميته بالقواعد

(١) الإشارة هنا إلى الكتابات المتخصصة التى تصدرت لشعراء السيرة منذ أواخر القرن الثامن عشر بوصف فنههم وشرح أساليبهم التى كانوا يلجأون إليها أثناء العزف والغناء، من هذه الكتابات ما ورد فى مؤلفات علماء الحملة الفرنسية على مصر (فيوتو/ وصف مصر/ ج٨/ ط١/ ترجمة زهير الشايب/ نشر مكتبة الخانجي سنة ١٩٨٦ ص ١٤٧، ١٧١ والجزء ٩/ ترجمة زهير الشايب/ مرجع سابق/ ص ١٨٠، ١٩٠ وكذلك إدوار وليم لين/ المصريون المحدثون/ ط٢/ ص ٣٣٧ وما بعدها.

(٢) ليس هناك أدلة على أن شعراء السيرة فى الوجه البحرى كانوا يستخدمون الربابة القدح.

(٣) يذكر عبد الحميد يونس فى تحول الشاعر من الربابة القدح إلى الربابة الكمنجة: أن هذه المغايرة لا تدل على خطأ هنا أو خطأ هناك وإنما تدل على أن شيئاً من التجديد قد دخل فى صناعة المنشد جعله يتحول من القدح إلى الكمنجة القديمة، وظل هذا الاصطلاح فى الحاليتين واحد هو الربابة لدلالته على أمثال هذه السيرة الشعبية، ولعلها أقوى دلالة على سيرة بني هلال لأن أبا زيد يرسم كثيراً فى صورة المنشد، ولم يشمل هذا التجديد موضوع السيرة ولا أسلوب الإنشاد، كما أنه لم يزل من التقاليد التى أمكن لها التكرار فى الاستهلال والختام شعراً وموسيقاً وفيما طرأ على النثر من عبارات يتضح فيها توجيه الخطاب إلى مستمعيه. (الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى/ ص ١٥٥).

الأساسية التي يقوم عليها استخدام هذه الآلة بتنوعاتها في مصاحبة هذا النمط الغنائى. على أنه ليس هناك من أسباب يمكن أن تكون وراء هذا التشابه الذى يربط بين طرق الأداء القديمة والمعاصرة (من حيث الشكل وآلية الأداء وتقاليده) سوى تلك الأسباب التى يمكن استخلاصها بالرجوع إلى ما يمكن اعتباره: المبدأ الفنى الذى قام ويقوم عليه أداء السيرة بمصاحبة تلك الآلة الموسيقية (الريابة)، خاصة وأن الأمثلة الحية المتبقية (والتي ماتزال تمثل هذا المستوى من الأداء) تنحو بصورة عامة تجاه قواعد موسيقية قديمة، وهو الأمر الذى استوجب تتبع هذا المبدأ الفنى ومناقشة الأسباب التى انبثقت عنها:

أولاً:

١ - الريابة وشعراء السيرة:

ليس هناك أدلة قاطعة أو معلومات وافية تيسر للباحث تكوين رأى قاطع حول الأسباب (التاريخية والفنية) التى ربطت بين الآلة المسماة: «ريابة»، وهذا النمط من الغناء. ولكن إذا أمكن للجهود العلمية المعاصرة وللممارسات الفنية المتبقية أن نخبر بشيء فى هذا الصدد، فإن ثمة معلومات وشواهد لها منطقها المقبول يمكن أن تساعد على توضيح بعض الأسباب التى أحاطت بهذه العلاقة. وإذا جاز لنا الأخذ بما توفر لدينا من معلومات وشواهد أمكن التسلسل فى تتبع تلك العلاقة وأسبابها المحتملة على النحو التالى:

لم تعرف مصر القديمة آلة الريابة، وليس هناك من أدلة تشير إلى أن المصريين القدماء كانوا يوقعون بالقوس على أية آلة موسيقية وترية^(١). وفى مقابل ذلك تتوافر الأدلة التى تحفظ للعرب دورهم المؤكد فى دخول هذه الآلة إلى مصر. والريابة - (بوصفها آلة موسيقية وترية ذات قوس) - ليست اختراعاً عربياً صمياً فقد عرفت الهند - منذ أكثر من خمسة آلاف عام (ق. م) آلة وترية ذات

(١) لم يعرف المصريون القدماء من الآلات الموسيقية الوترية سوى الكنتارة (السمسمية) والطنبور فى الأسرة الثامنة عشرة والصنج (الهارب) فى الأسرة العشرين، والعود ذو الرقبة الطويلة فى الأسرة الحديثة وكلها آلات تنبّر أوتارها إما بأصابع اليد أو بواسطة ريشة من الخشب. (محمود أحمد الحفني/ علم الآلات الموسيقية/ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧ / ص: ٧٣، ١٩٨، ٢٠١، ٢٢٤، ٢٢٨).

قوس كانت تعرف باسم: (راقانا سترون)، لكنها لم تبق كثيراً فانزوت من الحياة الموسيقية الهندية^(١).

على أن الدور الذي لعبه العرب في هذا الخصوص (والذي بدأ منذ القرون الأولى من الميلاد) كان منصباً، في المقام الأول، على إحياء الآلات الموسيقية القديمة منها الآلات الوترية ذات القوس^(٢)، وبفضلهم في هذا المجال انتشرت آلة الربابة، بل وتنوعت أشكالها عبر السنين فعرف منها في مصر والمشرق العربي «ربابة الشاعر» وصندوقها على شكل مربع مقوس جانبيه إلى الداخل شيئاً ما. وربابة أخرى تسمى «كمنجة» صندوقها نصف جوزة هند، ثم ربابة شمال أفريقيا المستعملة في بلاد المغرب، ثم الربابة التركية، وقد انتشر استعمالها في بلاد البلقان، وصندوقها المصنوع يكون مع ملاويه (المفاتيح) شكل أرنب ولذلك سميت هذه الآلة باسم «الأرنب أو الأرنب»^(٣).

على أن تنوع الآلة (من حيث الشكل أو من حيث عدد الأوتار) كما جاء في الوصف السابق لا يعنى في حقيقة الأمر أنها آلة واحدة هي: «الربابة في أشكال متباينة»، فإذا كان الاستخدام المعاصر للفظ «ربابة» جمع بين هذه الأشكال المتباينة لمجرد أنها تندرج جميعاً تحت مبدأ فني واحد (هو الذي يصنع طرق الاستخدام)، فإن تنوع آلات القوس (من حيث الشكل) لا يأتي دون أسباب مهمة. وأياً كانت هذه الأسباب فإنها سوف تؤكد أن الاختلاف في الشكل يعنى اختلافاً من حيث الإمكانيات ومن حيث الاختصاص. وسوف تؤكد أيضاً أن التغيير الذي يلحق بشكل آلة معينة لا يأتي من قبيل المصادفة ولا من قبيل التغيير لذاته، وإنما هي عملية مرهونة بمقتضيات ذات خصوصية فنية وثقافية وتخضع في الوقت

(١)، (٢) المرجع السابق ص ٦٥.

(٣) انتشرت آلة الربابة في جميع أنحاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً وانتقلت مع العرب إلى الأندلس وصقلية، وعرفت في أوروبا منذ القرن الحادي عشر. ومنذ ذلك الحين فقط بدأت فكرة صنع الآلات الوترية ذات القوس تظهر في أوروبا، وخاصة في البلاد المتاخمة للأندلس وصقلية. فصنع الفرنسيون آلة تماثل الربابة العربية وأسموها Rubeca، Rubella، Rubebe، كما صنع الإيطاليون الآلة نفسها وأسموها Rubeca، Rebec. وظاهر من كل هذه الأسماء اشتقاقها من كلمة ربابة العربية (محمود أحمد حنفي/ علم الآلات الموسيقية/ مرجع سابق/ ص ٦٥، ٦٦).

نفسه للإمكانات المادية التى تنتمى إليها هذه الآلة أو تلك، وهى عملية لا بد أن تخضع أيضاً للاختبار والتجريب وتقليب النظر المستمر إلى أن تستقر على الصورة التى يتحقق معها الغرض المنشود.

وعلى ذلك فإن الربابة الكمنجة ليست هى الربابة القدح وإنما هى آلة مستقلة (من حيث الشكل والإمكانات الصوتية) وإذا كان يطلق عليها الآن اسم «ربابة» فإنها لم تكن - منذ قرن مضى، تعرف بهذا الاسم، ولم تستخدم للقيام بالدور نفسه، الذى كانت تستخدم فيه الربابة القدح ذات المصوت الخشبي. فقد كان استخدام الكمنجة محصوراً فى نطاق فرق الآلاتية، الذين كان فهم يدور فى دائرة قواعد وتقاليد الموسيقى الشرق عربية، فضلاً عن مصاحبة هؤلاء الآلاتية للعوالم والراقصات^(١). ويبدو أن دخول الربابة الكمنجة إلى مجال فنون أداء السيرة واكتسابها اسمها الحالى (ربابة) كان يقابله انحسار تدريجي للربابة القدح قبل أن تختفى الأخيرة تماماً من حياة الشعراء المصريين^(٢).

أما الربابة القدح فقد ظل استخدامها - فى مصر - قاصراً على مصاحبة الشعراء ولم ترقط تستخدم فى مصاحبة أى نوع من الآلات الموسيقية الأخرى التى اعتاد الآلاتية على استخدامها^(٣).

أما الإطار الفنى الثقافى الذى انبثقت عنه الربابة القدح (بشكلها وإمكاناتها الصوتية) فهناك أدلة تشير إلى انتماء هذا الشكل من الآلات إلى «البدو» وتستند هذه الأدلة إلى الشواهد الحية المعاصرة، فالربابة القدح مازال حتى اليوم تستخدم لدى بعض بدو الصحراء رغم اختفاؤها من المدن والعواصم الكبرى، كما أن كثيراً من النماذج العينية «الحية» التى مازال تستخدم قام بتصنيعها أفراد بدويون، أو أفراد

(١) فيوتو/ وصف مصر/ ج٩/ مرجع سابق/ ص ١٨٢ - وإدوار وليم لين/ المصريون المحدثون/ مرجع سابق/ ص ٣١٥ وما بعدها.

(٢) ليس هناك من خطأ إذا نظر إلى هذا الإحلال على أنه تحول منطقي، خاصة وأن الربابة الكمنجة تتوافر فيها إمكانات صوتية أكبر، كما أنها من الناحية التكوينية تحقق إمكانات أكثر فى الأداء، ولذلك من الطبيعى أن يتغاضي الشعراء مع مزور الوقت عن استخدام القدح مقابل هذه الإمكانيات الجديدة. وهو المبدأ نفسه الذى حمل بعض شعراء الوجه البحري على التغاضي عن استخدام الربابة الكمنجة واللجوء إلى آلة الفيولين.

(٣) فيوتو/ وصف مصر/ ج٩/ مرجع سابق/ ص ١٨٢.

ينتمون إلى الثقافة البدوية^(١). وعلى الرغم من أنهم راعوا في تصنيعها نواحي التعديل والتهديب، فإن الآلة مازالت تحاكي - بشكل أجزائها وبساطة تركيبها - الربابة القدح التقليدية التي كانت - حتى وقت قريب - تجهز من عيدان وقوائم الشجيرات، ويكسى مصوتها برق من جلد الماعز.

ومن الملاحظات التي يجدر التنويه إليها بخصوص هذا النسب، أن هناك العديد من المعلومات تؤكد أن العرب عرفوا هذه الآلة (القدح) منذ زمن بعيد، لكن هذه المعلومات لم توضح في أي إطار فني كانت تستخدم ومن الذي كان يستخدمها وأين، وبالإضافة إلى ذلك لم يرد في تاريخ الموسيقى العربية ما يفيد أن الربابة كانت آلة معتمدة في بلاط السلاطين أو في قصور الأمراء في أي عصر من عصور الخلافة الإسلامية على غرار بقية الآلات الموسيقية الأخرى المعتمدة كالعود والقانون والناى والدف. وهذا يعنى أن الربابة القدح لم تكن منتشرة - من الناحية الفنية - إلى تقاليد الثقافة الموسيقية الرسمية، وهو الأمر الذي يرجح صحة الأدلة التي تنسب هذه الآلة إلى البدو^(٢).

أما الكيفية التي دخلت بها الربابة القدح إلى مصر، ومن ثم إلى مجال فنون أداء السيرة، فإن الجدل حول هذا الأمر ما يزال قائماً حتى الآن. ففي الوقت الذي يمكن فيه تقبل فكرة أن الربابة القدح دخلت مصر مع العرب (إبان الفتح الإسلامي)

(١) يحتفظ مركز دراسات الفنون الشعبية بنسخة من الربابة القدح اقتناها باحثوه من بدو جنوب سيناء خلال بعثة عمل ميداني إلى هذه المنطقة في أواخر الستينيات. وبالإضافة إلى ذلك فقد شهد مهرجان الربابة (الذي أقامته الهيئة العامة لقصور الثقافة عام ١٩٩٣ بمدينة أسيوط) عازفين علي الربابة القدح أحدهما من الأردن والآخر من دولة الإمارات وكان كل من العازفين يعزف وينشد الأشعار. ولوحظ أن كلتا الآلتين تتسمان بجودة الخامة. ودون ذلك فإن الآلتين متطابقتان من حيث الشكل والإمكانات الصوتية مع آلة الربابة القدح المحفوظة بمتحف مركز دراسات الفنون الشعبية بالقاهرة ومتطابقتان أيضاً مع المثال الذي ورد (لهذه الآلة) في كتابات المستشرقين في أواخر القرن الثامن عشر.

(٢) إن ربابة الشاعر هي نفسها الربابة البدوية العربية - محدودة الاستعمال - ولم يرد لها بعد مشاهد في الآثار الإسلامية لأنها لم تكن آلة البلاط والقصر، بل كانت آلة الصحراء كما هي عليه الآن في الوقت الحاضر. والواقع أن شكلها المستطيل ذو الجانبين المقوسين يعود إلى عصور ما قبل الإسلام. ولم يكن العزف عليها يتم بواسطة القوس وإنما كان بواسطة مضرب صغير أو بالأصابع (صبيحي أنور رشيد/ الآلات الموسيقية في العصور الإسلامية/ نشر دار الحرية للطباعة/ بغداد/ الجمهورية العراقية/ وزارة الإعلام ١٩٧٥ / ص ٧١).

ضمن ما حملوه معهم من عادات وتقاليد وأدوات^(١)، فإن ثمة أفكار أخرى ترمى إلى أن الرابطة القدح دخلت مصر عن طريق «الغجر» الذين هاجروا من الجزيرة العربية مع بنى هلال في وقت التغريبة، ومن أجدادهم أبو زيد الهلالي نفسه الذي كان أول شاعر رابطة^(٢)، وأن الرابطة آلة موسيقية غجرية، وأن هؤلاء القوم احترفوا إنشاد السير العربية بعد أن اعتبروا أنفسهم الحاملين الحقيقيين لهذا التراث القصصى والمحافظين عليه بعد أن أخذوا مادته التاريخية القديمة المتناقلة أيام العرب وحولوها إلى روايات تاريخية فروسية مكونة من أجزاء شعرية وأجزاء نثرية لها شعبية كبيرة عند العامة^(٣).

وعلى الرغم من أن هذه الفكرة تفتقد - من الناحية التاريخية - الأدلة القاطعة التي تثبت حقيقة العلاقة بين بنى هلال والسير، وبينهم وآلة الرابطة، وبين آلة الرابطة وفنون إداء السيرة، فإن ثمة جانب في هذه الفكرة لا ينبغي تجاوزه أو المرور عليه دون محاككته بالواقع المعاصر لرواة السيرة. ولا يقصد بذلك أن الباحث يميل - في هذا المقام - إلى معالجة الموضوع من تلك الزاوية العرقية^(٤)، أو أنه ينوى التسليم بهذا السياق التاريخي المبهم، وإنما يقصد بذلك التنبيه إلى الإطار الفني والثقافي الذي يحيط بعالم السيرة ورواتها المعاصرين الذين يبدعونها شعراً وموسيقاً. أما فيما يتعلق بالواقع المعاصر لرواة السيرة فإن الشواهد الميدانية الحية تؤكد أن رواة

(١) تتسق هذه الفكرة مع ظاهرة الانتشار: أي انتقال العناصر الثقافية من مجتمع إلى مجتمع آخر وتأقلمها مع واقع ثقافي مغاير/ ورد تفسير لهذا المصطلح عند: إيكه هولتكرانس: قاموس مصطلحات الأنثولوجيا والفولكلور ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي/ ط٢ نشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣ من ص ٤٣ وما بعدها).

(٢) قام أبو زيد الهلالي ورفقاؤه الثلاثة (أثناء التغريبة) بالتكر في زي شعراء يعزفون علي الرابطة. والمرجح أن هذه الصورة أدخلها الرواة علي متن السيرة ضمن ما أدخلوه من تعديلات وإبداعات (عبد الحميد يونس/ الهلالية في الأدب والتاريخ/ مرجع سابق ص ١٥٢).

(٣) جوفاني كانوفا/ الغجر وسيرة الزير سالم/ دراسة منشورة بمجلة المأثورات الشعبية/ العدد ١٧ السنة الخامسة/ نشر مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية/ الدوحة - قطر/ سنة ١٩٩٠ ص ١٧).

(٤) لا توجد أدلة تاريخية موثقة حول الرابطة التي جمعت بين السيرة والغجر تكفي لمعالجة الموضوع من هذه الزاوية العرقية.

السيرة المعاصرين ينتمون جميعاً إلى فئة الغجر^(١) وأن من النادر أن يوجد من بين هؤلاء الرواة المحترفين من لا ينتمي إلى هذه الفئة^(٢).

على أن كل ما تقدم من أقوال وتفسيرات لم يوضح بعد بصورة وافية كيف ارتبطت آلة الربابة بالأداء الموسيقي المصاحب لرواية السيرة. ولم يوضح من كان له التأثير الأكبر في بلورة أداء السيرة موسيقياً: الربابة التي يخلق وجودها مجالاً مؤكداً للأداء الموسيقي أم طبيعة ذلك الشعر الروائي (الذي يحكى سيرة بني هلال) والذي يقتضى - شأنه شأن الأشعار التي تحكى تراث الشعوب والقبائل - التوسل بالأداء

(١) تظهر بعض الدراسات أن احتراف أداء السيرة - في مصر - ارتبط بجماعات الغجر. من هذه الدراسات:

- عبد الرحمن الأبودي/ سيرة بني هلال بين الشاعر والراوي/ أعمال الندوة العالمية الأولى حول سيرة بني هلال/ ص ٤٢.

- عبد الرحمن الأبودي/ السيرة الهلالية/ الكتاب الأول/ خضرة الشريفة، وما جري لها من أهوال في قبائل بني هلال/ ص ١٨.

- جوفاني كانوفا/ الغجر وسيرة الزير سالم/ مرجع سابق/ ص ١٧. و:

Susan Slyomovics/ The Merchant of art.. pp. 14, 23, 264. -

- Heroic Poets, Poetic heroes: The Ethnography of Performance D. F. Reynolds. pp. 49, 50.

وبجانب ذلك يمكن إضافة ملاحظات أخرى حول هذه الصلة التي تربط بين السيرة والغجر وذلك من خلال ما يمكن استخلاصه من الأعمال الميدانية، وخاصة الأعمال التي شارك فيها الباحث. فعند التعرف على الأشكال الموسيقية التي كان الغجر يصطلعون بتقديمها، كانت أجزاء من السيرة تأتي دائماً على رأس قائمة المحفوظ الغنائي الذي يؤديه الغجر، حيث كان يوجد من بين أفراد كل جماعة من جماعات الغجر نفر يتوفرون على بعض من هذا المحفوظ/ تسجيلات عبد الحميد حوأس وعبد الملك الخميسي مع غجر الفيوم عام ١٩٧٤ - تسجيل رقم (٥٤١) أرشيف المركز. وتسجيلات عبد الحميد حوأس ومحمد عمران وعبد الملك الخميسي مع غجر الفيوم عام ١٩٧٥ - تسجيل رقم (٧٥٠) أرشيف المركز وتسجيلات عبد الحميد حوأس ومحمد عمران وعبد العزيز شقير مع غجر رشيد (م البحيرة) ١٩٧٩، تسجيل رقم (٩٧٢) أرشيف المركز. وتسجيلات الباحث. مع غجر أسيوط عام ١٩٩٤ - (مجموعة تسجيلات - خاصة).

(٢) يذكر الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي: إن الغالبية العظمى من شعراء السيرة المحترفين لروايتها من الغجر. وحينما يوجد راوي لا ينتمي من الناحية العرقية إلى هذه الفئة فإنه يتغجر، أي ينحدر بسلوكه الفني وربما أيضاً بسلوكه الشخصي إلى الخصائص الفنية والشخصية التي يتميز بها الغجر (لقاء بين الباحث والدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي/ القاهرة ١٩٩٤).

الموسيقى^(١) كمبدأ أساسى لنشر هذا التراث وإظهار أهميته لدى الأفراد؟
لا شك أن الكيفية التي ارتبطت بها آلة الرابابة بطرق أداء السيرة تعد - رغم صعوبة التحقق منها تاريخياً - من الأمور بالغة الأهمية بسبب ما يمكن أن تقدمه من تفسيرات فنية وثقافية لعالم السيرة المعاصر. أما وأن هذه «الكيفية» مازال تفقد الأدلة القاطعة، فإن ثمة معالجة لتلك الرابطة يمكن أن توجد سياقاً مقبولاً لواحد من الأسباب المؤكدة التي تقف وراء اختيار آلة الرابابة لمصاحبة هذا النوع من الغناء، ويقصد بذلك توجيه النظر إلى الأسس الفنية التي تنظم عملية المصاحبة الآلية، أى التركيز على الآلة نفسها من حيث إمكاناتها الصوتية ومن حيث وظائفها التكوينية.
والمعروف أن هناك مبدأً فنياً عاماً وراء استخدام الآلات الموسيقية المصاحبة للصوت البشرى يتمثل فى «مساندة الصوت وإطالته» وعلى هذا المبدأ تتدرج كل العمليات الموسيقية المستخدمة فى المصاحبة الآلية وفق الإمكانيات الصوتية لكل آلة ووفق طبيعة التقاليد الفنية التي تنتمى إليها^(٢) ولأن الرابابة آلة موسيقية تمتعت بأهلية

(١) عرفت كل شعوب العالم تقريباً وسيلة أكيدة لا تخيب ينشرون عن طريقها تراثهم دون أي عوائق تتهدده ويشكل يجعل هذا التراث غير قابل للتحوير...، فالقدماء لم يكونوا يستخدمون سوي الشعر لتأكيد المعارف ولتنبيهها...، ولقد جاء وقت كان الناس فيه يدخلون أو يلحقون كل تاريخ وكل علم فلسفي، بل وكل مثل بسيط، وباختصار كل ما يحتاج لأن يبين بفعل نغمة صوتية أكثر وقاراً بالشعر والموسيقى...، ويذكر أن بعض الشعوب التي كانت تجهل فن الكتابة كالية كانت تثبت معارفها عن طريق أغنيات يرددونها بأصواتهم...، وكانت هناك شعوب أخرى تعتمد في رواية تاريخها على أغنيات شعراء الملاحم عندهم...، ويذكر أيضاً أن المعارف لم تكن تدون لدى بعض الشعوب إلا في شكل أبيات من الشعر ليسهل غناؤها وليصعب محوها من الذاكرة بعد ذلك. (فيوتو/ وصف مصر/ ج ٧ ترجمة زهير الشايب/ ط ١، ص ٤٦، ٤٨).

ولا يختلف هذا الحال -- من ناحية المبدأ - عما عمد إليه عرب بني هلال حينما لجأوا إلى الشعر لصياغة تاريخ قبيلتهم والحفاظ على تراثها...، ومع أن هذا التراث كان يخضع لأهواء أفراد القبيلة في انتخاب حوادث وإسقاط حوادث غيرها، وتجسيم وقائع وتهوين أخرى، كما لم يكن هناك اهتمام بترتيب هذا التراث في سياق زمني متتابع، فإنه مع ذلك كان تراثاً شعرياً يحتفل به من حيث اتصاله بحياة أولئك الأفراد ومن حيث أهميته في وجوده ومن حيث إبراز فضائلهم التي ترفعهم في المحيط القبلي العام. (عبد الحميد يونس/ الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي/ مرجع سابق/ ص ١٥٩ وما بعدها).

(٢) تناول: ج. هـ. كوابينا نكينا، هذا المبدأ بالتفصيل في موضوع التفاعل من خلال الموسيقى/ ديناميكيات العمل الموسيقي في المجتمعات الأفريقية/ مقال/ المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية/ العدد ٥٣ السنة الرابعة عشرة/ نشر مركز مطبوعات اليونسكو، أكتوبر/ ديسمبر ١٩٨٣/ ص ٥٣ وما بعدها.

مكنتها من مصاحبة الغناء، فإن إمكاناتها الصوتية وتقاليد الاستخدام أبرزها فيها صفات وخصائص فنية مميزة لا تختلف اختلافاً بيناً في الرابطة المعاصرة (الكمنجة) ذات الوترين عنها في رابطة الشاعر القديمة (القدح) ذات الوتر الواحد، وهو أمر ينبغى الوقوف عنده بعض الشيء خاصة وأن الصفات والخصائص الفنية التي سوف تدرج تباعاً لا تقوم ولا تنسق إلا على فهم هذا الأمر وتوضيحه. فالمعروف أن إضافة وتر إلى الآلة يمثل حلقة مهمة من حلقات تطور هذه الآلة، وهو في الوقت نفسه يعد إضافة إلى إمكاناتها الصوتية وإضافة إلى وظيفتها الفنية^(١). وعلى الرغم من ذلك فإن الاستفادة «المحدودة» التي درج عليها عازفوا الرابطة (الشعراء المعاصرون) فيما يتعلق «بالوتر الثاني»، باعدت بين الرابطة وبين ما كان يرجي من وراء إضافة هذا الوتر. إذ تحول نتيجة استخدامه استخداماً محدوداً - إلى «وتر ردا» يستعار منه نغمة واحدة فقط لاستكمال سلسلة النغمات التي تلوه، ويتم استعارة هذه النغمة على النحو الذي تستعار به نغمة «الحساس» رغم أن تسوية هذا الوتر الرداد ليست هي نفسها تسوية نغمة الحساس. ولذلك فإن معالجة الرابطة ذات الوترين (الكمنجة) من حيث الإمكانيات الصوتية ومن حيث وظائفها التكوينية، وتقاليد الاستخدام لا تختلف عن المعالجة نفسها التي تعالج بها الرابطة القديمة ذات الوتر الواحد (القدح) كما سيتبين فيما يلي:

١ - يعمل استخدام الرابطة - في مصاحبة الغناء - على إبراز النغمة الأساس Tonique التي تظل مسيطرة طوال فترة الأداء فتحدد بذلك الإطار النغمي للمغنى. والنغمة «الأساس» هي النغمة التي يعتبرها المغنى «أساساً» لتحديد التكوين «المقامي» وأساساً لتحديد القفلات، ولا يشترط أن تكون هذه النغمة أغلظ درجة تصدرها الرابطة.

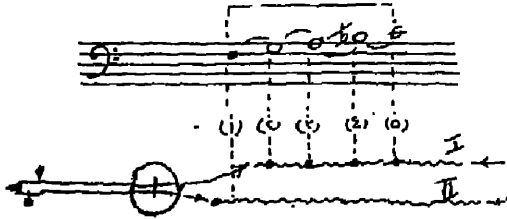
أما الإطار النغمي فيقصد به: حدود وعدد النغمات التي يصدرها المغنى بصوته ويتحدد نوع هذا الإطار النغمي وفق طبيعة الفواصل الواقعة بين النغمات وبعضها

(١) المعروف أن تطوير الآلات الموسيقية سواء في تغيير شكلها أو تعديل أجزائها أو إضافة وتر أو فتح ثقب... إلخ صاحبه تعديل في النظم الموسيقية وتعديل في المفاهيم الفنية أيضاً، وهي عملية استغرقت قروناً عديدة من عمر الشعوب/ وقد عالج الدكتور محمود أحمد الحفني هذه الناحية بالتفصيل في كتابه: علم الآلات الموسيقية/ ص ٢٣.

البعض، وهناك قواعد (سيجرى بيانها بالتفصيل فى حينها) تحدد المساحة الصوتية وعدد النغمات التى يتعين على «الشاعر» ألا يتجاوزها، وهى تتفق وطبيعة الحال مع عدد ومساحة النغمات التى تصدر بصورة واضحة وسليمة من آلة الربابة سواء كانت بوتر واحد أو بوترين.

تدوين رقم (١)

المساحة الصوتية للربابة وللغناء



I - وتر القوال/ يستخدم بالعق

II - وتر الرداد/ يستخدم مطلقاً

وتستخدم نغمته للمجاوبة أو

توظف كما توظف نغمة الحساس

٢ - نعمل الإمكانيات الصوتية للربابة - وفقاً لطبيعة تكوينها - على تيسير استخدامها استخداماً ذا خاصية نوعية. ويتمثل هذا الاستخدام فى سهولة إيجاد علاقات «تفاعلية» متألّفة بين صوت الآلة وصوت المغنى، وذلك من خلال إيجاد مسافات زمنية ثابتة يستطيع أن يجد فيها المغنى نقطة دخول الغناء بالنسبة لنقطة دخول صوت الآلة، مستفيداً فى ذلك من طبيعة صوت الربابة الذى يقترب فى طبقته وفى لونه من طبقة ولون الصوت البشرى الرجالى إلى حد كبير. كما يستفاد من هذه الخاصية فى الحصول على دور الاستجابة أو دور الرد.

تدوين رقم (٢)

مثال ذلك:



تدوین رقم (۳)

(۴)

— — — — — ع ج ا — — — — — ع ا د — — — — — ف — — — — — ل — — — — — ا — — — — — ا — — — — — ا

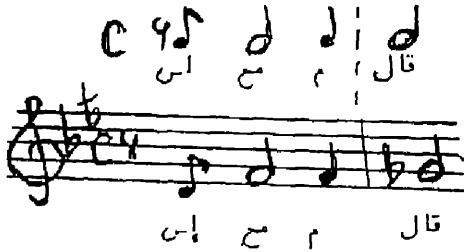
(ب)

150 دراسات في الميثاقا الشعبية المصرية

٤ - تستخدم الربابة فى تحديد الحركة اللحنية الإيقاعية وفى تحديد الاتجاه النغمى للحركة اللحنية التى تَمد نظيراتها فى الشعر الذى يصوره اللحن. مثال ذلك:

تدوين رقم (٤)

«اسمع ما قاله حسن الهلالي...»



الحركة الإيقاعية:

الاتجاه النغمى

للحركة الإيقاعية

(مد المقاطع جاء وفق مثال غنائى راقعى)

٥ - تستخدم الربابة فى تغيير مستوى القدرة الصوتية (شدة الصوت وضعفه) التى يستخدمها الشاعر أحياناً لإضفاء شعور خاص على مقطع معين من الشعر.

٦ - تستخدم الربابة لأداء أصوات متتالية دائمة التدفق، وذلك عن طريق أداء أصوات ذات شكل ثابت يكررها المغنى فى بعض أجزاء الأداء، خاصة وأن الربابة تجمع - من هذه الناحية - بين خاصيتين، الأولى: إمكان الحصول على الصوت فى أقصر مدى زمنى له عن طريق نبر الوتر بأصبع اليد «pizzicato» (ل) أو عن طريق حكّه حكاً سريعاً بأحد طرفى القوس (ل). أما الخاصية الثانية: فهى إطالة زمن الصوت عن طريق جر القوس جرّاً بطيئاً على الوتر حسب المدى الزمنى الذى يريده المغنى.

٧ - تستخدم الربابة لتوليد أشكال لحينة منظمة للخط الإيقاعى ومؤكدة سرعته مثال ذلك حين يستخدم القوس بطريقة «البيركاتوه» (pizzicato) لتقسيم زمن النغمة إلى وحدات زمنية صغيرة تتساوى - فى زمن أدائها - مع زمن النغمة الأصلية هكذا(١):

(١) للشعراء وسائل مختلفة لتقسيم زمن النغمة إلى وحدات زمنية صغيرة من هذه الوسائل نقر الوتر بظهر القوس. وهذه الوسيلة الأخيرة كان يعرفها أيضاً شعراء القرن الثامن عشر. (انظر: فيوتو/ وصف مصر/ ج٩/ مرجع سابق/ ص ١٨١).



وبالإضافة إلى ما سبق هناك خصائص تكوينية انفردت بها الربابة دون سائر الآلات الموسيقية الوترية الأخرى التي تصاحب الصوت البشرى، وهذه الخصائص هي:

١ - إن الربابة مكونة من أجزاء بسيطة يسهل للعازف الحصول عليها وتركيبها بنفسه .

٢ - إن الربابة خفيفة الوزن سهلة الحَمْل ويمكن الأداء عليها أثناء السير .

٣ - إن الربابة لا تحتاج لإعداد خاص قبيل الأداء عليها (كما هو الحال في بعض الآلات الموسيقية الأخرى التي يتعين على العازفين تسوية أوتارها المتعددة ومراجعة مواضع أجزائها قبل الأداء مما يستغرق وقتاً طويلاً نسبياً) .

٤ - إن إصدار اللحن من الربابة يعتمد أساساً على الوتر الأول (القول) مما يعنى أن تكوينها متوافق مع القاعدة الموسيقية التي تحصر الأداء في الفاصلة الصوتية التي ينتظم بها غناء الشعر الروائى .

٥ - إن وتر الربابة (الشَّعْر) يسوى عادة في المنطقة الصوتية التي تدور في دائرة الطبقة الصوتية «التينور» (Ténor)، وهي أكثر المناطق تميزاً وملاءمة مع منطقة الصوت الذي يصدر عن الرجال. وهو أحد الأسباب التي جعلت بعض الباحثين يصفون صوت الربابة بأنه قريب بدرجة كبيرة من الصوت البشرى^(١). وقد تعرض «فيوتو» لهذه الخاصية الملفتة للانتباه فعزى وجودها إلى أسباب تكوينية، فوتر الربابة يتألف من شعيرات عدة قد تصل إلى سبعين شعيرة من شعر الخيل، وعند شد هذه الحزمة من الشعيرات فإنها لا تتساوى جميعها معاً في قوة شد واحدة، وعند اهتزاز هذا الوتر (بواسطة القوس) فإن شعيراته لا تردد جميعها درجة نغمية موحدة فيأتى الصوت مضطرباً أجشاً، وهو الصوت الذي كان دائماً متلائماً مع صوت المغنى الذي عادة ما يعانى من انحرافات متفاوتة. القدر^(٢).

(١) عبد الحميد يونس/ الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي/ مرجع سابق/ ص ١٥٢ .

(٢) فيوتو/ وصف مصر/ ج ٩/ مرجع سابق/ ص ١٦٣ .

تسوية أوتار الربابة وطريقة إصدار الصوت:

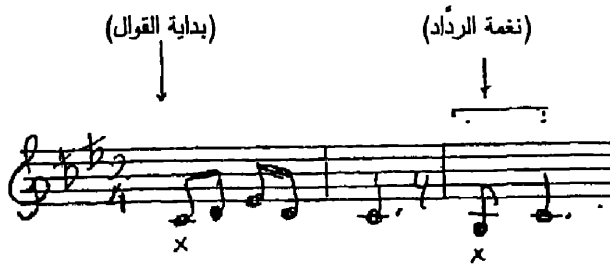
يسوى الشاعر وترى الربابة إلى بعضهما البعض بحيث لا تتعدى المسافة الصوتية المحصورة بينهما فاصلة «الثانية الكبيرة»، وعلى الرغم من أن إمكانات الربابة تسمح بإصدار نغمات تعادل في عددها عدد أجزاء العفق الواقعة على امتداد الوتر، فإن الأداء (وفق التقاليد التي يعمل بها الشعراء في هذا المستوى) لا يتجاوز فاصلة «الخامسة» المشار إليها سلفاً.

ويعتمد الشعراء في إصدار النغمات المختلفة على الوتر الأول «القول»، (الواقع جهة يسار العازف) اعتماداً رئيسياً بتقسيمه عن طريق العفق بأصابع اليد اليسرى في مواقع معينة.

أما الوتر الثاني «الرداء» فإن الشعراء يبقون عليه حراً دون تقسيم، ومن ثم فإنه لا يصدر سوى نغمة واحدة فقط تساوى نغمة تردد مطلق هذا الوتر ووفق التسوية التي خصصت له. وتستخدم هذه النغمة من قبيل التجاوب مع بقية النغمات التي تصدر عن تقسيم الوتر الأول، وكثيراً ما يجرى استخدام هذه النغمة على غرار الطريقة التي تستخدم بها نغمة الحساس، رغم أنها لا تؤدي الوظيفة المقامية التي خصصت لنغمة الحساس.

مثال ذلك ما يأتي في الحركة النغمية التالية:

تدوين رقم (٥)



أما طريقة إصدار النغمات فإنها تجرى على النحو التالي:

النغمة الأولى: تصدر عن مطلق الوتر الثانى (الرّذاد) بجر القوس على الوتر.

النغمة الثانية: تصدر عن مطلق الوتر الأول (القول) بجر القوس على الوتر.

النغمة الثالثة: تصدر عن أول موضع يتم فيه تقسيم وتر (القول) وذلك عن طريق عقق الوتر بسبابة كف اليد اليسرى، وجر القوس على الوتر.

النغمة الرابعة: تصدر عن ثانى موضع يتم فيه تقسيم وتر (القول)، وذلك عن طريق عقق الوتر بوسطى كف اليد اليسرى، وجر القوس على الوتر.

النغمة الخامسة: تصدر عن ثالث موضع يتم فيه تقسيم وتر (القول)، وذلك عن طريق عقق الوتر بينصر كف اليد اليسرى، وجر القوس على الوتر.

وثمة صور شائعة للهيئة التى يكون عليها الشاعر أثناء الأداء^(١)، وأهم هذه الصور هى تلك التى يظهر فيها الشاعر متربعاً فوق دكة أو جالساً على كرسي فى مواجهة مستمعيه^(٢).

يمسك الشاعر بالريابة من أعلى ساعدها بقبضة يسراه، وتكون الريابة فى وضع رأسى مرتكزة - بسفودها - على فخذ الشاعر بينما يمسك القوس من طرفه بأصابع يمينه.

ثانياً:

التكوين اللحنى:

لا يستقيم فهم طبيعة التكوين اللحنى (لشاعر الريابة) قبل التعرف بداية على عدد النغمات (الدرجات الصوتية) ومساحة الصوت التى يصدرها وينتقل خلالها صوت المغنى عند إنشاد شعر السيرة. وفى هذا الحال تشير الأمثلة الموسيقية الحية إلى أن المغنين المعاصرين يتخذون من فاصلة الخامسة الصوتية حيزاً نغمياً لا

(١) من الصور الشائعة التى عرف بها الشعراء: التجوال بالغناء فى الشوارع أو الوقوف بأحد النواصي، وفى هذه الحالة تعلق الريابة فى كتف الشاعر بواسطة خيط حتى يتمكن من العزف.

(٢) قد يصطحب الشاعر معه عازفاً آخر على الريابة يسانده فى أداء المقدمات والزمزيمات اللحنية ولا تنحصر هذه المصاحبة فى مجرد المساندة الآلية، فقد يقوم هذا العازف بأداء بعض أشعار السيرة، أو قد يشد موالاً بينما يحصل الشاعر الرئيسى على بعض الراحة من الغناء. وقد يكون هذا المساعد حديث العهد بالمهنة فيتخذ من هذه الصيغة مجالاً للحفظ والتعلم.

يتجاوزونه إلا في حالات قليلة^(١). وهذه الفاصلة لا تعنى هنا سوى الحدود التي تمثل أقصى مساحة صوتية يمكن أن ينتقل خلالها صوت المغنى.

وفي إطار هذه الفاصلة تبرز خصائص في الأداء تساهم -بدرجة كبيرة- في تشكيل المسار اللحني، وأهم هذه الخصائص: التعلق بنغمة أو بنغمتين على الأكثر من النغمات المحصورة بين حدى الفاصلة الصوتية الخامسة، ويترتب على ذلك أن المسار اللحني يخلو من كثرة التنقل بالنغمات إلا في حالات قليلة. وأن أى تشكيل لهذا المسار (في إطار هذه الخاصية) سوف يتحدد بحسب ما يدخل على تلك النغمات القليلة من صفات تظهر الشدة واللين، أو تغير الشكل الإيقاعي للنغمة، كأن تمتد، أو تقصر، أو توصل بما قبلها، أو بما بعدها، أو تتغير درجتها فتعلو أو تنخفض بمقدار طفيف. وتمد هذه الصفات جميعها من صوت المغنى إلى صوت الآلة والعكس^(٢).

تلك الخاصية، وهذه الصفات كان يعرفها شعراء القرن الثامن عشر (وهو أقدم تاريخ للمعلومات الموسيقية التي توفرت عن شعراء السيرة المصريين) مما يعنى أن وجودهما -في إطار السيرة- لا بد وأنه أتى من وجود المبدأ الموسيقى نفسه الذى رسم لهذا الغناء مساره وحدد له تقاليده.

لقد توقف «فيوتو» عند خصائص التشكيل اللحني لدى شعراء السيرة فى عصره مفسراً أسبابه وفق معارفه الموسيقية، فذكر فى كتاباته نقلاً عن «دينيس داليكارناس» أو «هاليكاناس»^(٣) أن الأقدمين كانت لديهم قواعد تصف وتحدد عدد ومساحات النغمات التى لا بد أن يمر بها الصوت البشرى عند إنشاد الملاحم الشعرية وأول وأهم هذه القواعد، هى أنه لا ينبغى للصوت البشرى أن يعلو فوق الخامسة (فاصلة الخامسة

(١) الأصل في هذه الفاصلة أنها رباعية، وجعلت خماسية بسبب وجود نغمة أخرى في الاتجاه الهابط تأتى كحساس، أو نغمة في الاتجاه الحاد تأتى كحلية، ولذلك فإن هاتين النغمتين خارجتان عن نطاق الفاصلة الخامسة، ولا سيما أن الغناء والعزف - يدوران عادة في نطاق الفاصلة الرباعية ولا يتجاوزانها إلى الدرجتين المذكورتين إلا للأسباب الموضحة.

(٢) هناك أمثلة أخرى للأداء على الرماية في مدرسة الوجه البحري (سوف يعرض لها المؤلف في حينها) لا تنقيد بهذه الخصائص القديمة.

(٣) «داليكارناس»، و«هاليكاناس»، وردت هكذا.. (فيوتو/ وصف مصر/ مرجع سابق/ ص ١٨٩، ١٩٢ حاشية (٤).

النغمية)....، بمعنى أنه لا يحق له أن يعلو إلى ما وراء ثلاث مقامات ونصف المقام باتجاه الحاد، ولا ينبغي له أن ينخفض إلى ما دون هذه الفاصلة^(١).

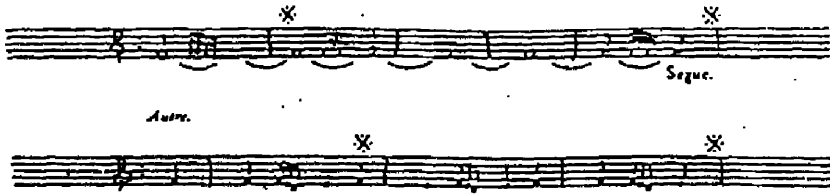
ويضيف «فيوتو» إن الفاصلة «الخماسية» لا تمثل لدى شعراء السيرة سوى حدود الصوت الذي لا ينبغي على الشاعر تجاوزه صعوداً أو هبوطاً لكن «فيوتو» لم يذكر - مع ذلك - أى مثال يدل على أن أولئك الشعراء كانوا يحركون النغمة عبر هذه الفاصلة «الخماسية» على النحو الذي يمكن أن يؤدي إلى تكوين أفكار لحنية مميزة Motif (الجملة اللحنية المبنية)^(٢) بل أنه أورد بدلاً من ذلك مثلاً مدوناً يظهر فيه خلو الأداء من هذه الخاصية اللحنية، ويبين في الوقت نفسه بروز خاصية المدّ النغمي الذي يسيطر على الأداء طيلة الوقت.

مثال ذلك:

(١) المرجع السابق ص ١٨٩ (والمعروف أن الغناء لدي غير المحترفين يدور في إطار الفاصلة الرابعة ويضاف إليها بصورة عارضة نغمة أخرى في الاتجاه الهابط أو في الاتجاه الحاد. وهناك فارق مهم في الأسباب التي أدت إلي وجود هذه الفاصلة في الغناء لدي كل من عامة الناس والشاعر علي حد سواء. فالشاعر مغن محترف ولديه قدرات موسيقية خاصة ويستطيع أن يتغني في كل درجات السلم السباعية. علي أن التزامه - مع ذلك - بالغناء في الفاصلة الصوتية الرابعة أو الخامسة ما هو إلا دليل علي مراعاته للموروث من التقاليد والقواعد التي ارتبطت بطرق رواية السيرة. أما احتواء الغناء (لدي غير المحترفين) علي الفاصلة الرباعية، فإنه يأتي من أنها أكمل النغمات وأتمها بعد الفاصلة الثمانية. واستخدام هذه الفاصلة في الغناء يحقق للمؤدين قدراً كاف من المزاج الموسيقي الذي اعتاد عليه العامة ويحتاجونه. وليس هناك ما يؤكد أو ينفي وجود مبدأ فني للأداء الموسيقي (لدي غير المحترفين) يحدد المساحة الصوتية في الفاصلة الرابعة سوى أن تجاوز هذه الفاصلة إلي درجات السلم السباعية يقتضي توفر قدرات موسيقية خاصة أو دقة في الأداء، وهو الأمر الذي لا يتوفر بالضرورة لدي عامة الناس.

(٢) يستند التكوين البنائي للجملة اللحنية علي قواعد يجب مراعاتها عند إنشاء اللحن وأهم هذه القواعد تلك التي يراعي فيها: علاقة كل مفردة صوتية (جزء) ببقية المفردات من الناحية المقامية وكذلك من حيث نوع ومقدار الفاصلة أو البعد الصوتي الواقع بين المفردة وبقية المفردات، ومن حيث زمن المفردة بالقياس إلي زمن بقية المفردات التي يتكون منها التكوين الكلي، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: مراعاة علاقة كل مفردة (جزء) بالتكوين الكلي، أي إدراك الأثر الذي ينجم عن وجود أو عدم وجود المفردة في موقع بعينه في التكوين وخاصة من حيث نوع ومقدار الفاصلة الصوتية التي تشكلها هذه المفردة، ومن حيث الزمن الذي تستغرقه المفردة في التكوين الكلي. ومن ناحية ثالثة: يشترط في تكوين الجملة اللحنية أن تأتي في عبارتين موسيقيتين متساويتين بقدر الإمكان، الأولى تأتي في صيغة سؤال أي ذات نهاية معلقة (غير مرتكزة علي الدرجة الأولى في المقام) بينما تأتي الثانية في صيغة جواب أي تنتهي بالدرجة الأولى من المقام.

تدوين رقم (٦) (١)



تدوين رقم (٧) (٢)



(١) فيوتو/ وصف مصر/ ج٨/ مرجع سابق/ ص٢١٤.

(٢) مقطع للمد النغمي من محافظة الشرقية (مجموعة التسجيلات الخاصة بالباحث).

وفى أوائل القرن التاسع عشر قدم إدوار ولیم لین مثلاً مدوناً يتضمن شكلاً للعزف والغناء عند شعراء السيرة فى عصره، وفيه يوضح الحدود الصوتية التى تتحرك خلالها النغمات، وهى لا تتجاوز فاصلة الرابعة الصوتية:

تدوين رقم (٨) (١)

مقالات خضرة عندما قد تفكرت لما قد جرى ما بين نجع هلال



وهى الفاصلة الصوتية نفسها التى يدور فيها الغناء المعاصر وإن كانت تزيد فى بعض الأحيان بمقدار بعد طنينى كامل (تون) مثال ذلك

تدوين رقم (٩) (٢)



وإذا كانت طرق الأداء المعاصرة (فى المستوى الأول) تنحو بتقاليدها تجاه مبادئ فنية قديمة، فإن المعين الموسيقى للشعراء لا يخلوا تماماً من الألحان ومن التراكيب الموسيقية ذات الطابع اللحنى المميز (Motif) ولهذا المعين الموسيقى

(١) إدوار ولیم لین/ المصريون المحدثون/ مرجع سابق/ ص ٣٣٩.

(٢) مقطع من التدوين رقم (٢٦).

مصدرين، أولهما: ذلك المأثور الموسيقى الفولكلورى الذى شكله الرواة القدامى عبر الأجيال المتعاقبة ووصل إلى الرواة المحدثين. أما المصدر الثانى فيتمثل فى الإبداعات الموسيقية الفردية التى برزت فى أوساط الشعراء المحدثين، حيث عرفت ألحان بعينها مرتبطة بشعراء بعينهم، بل أن هذه الألحان كانت تسمى أحياناً بـ: الطريقة، فيقال على سبيل المثال: «الطريقة الحواسى» أى الغناء بالألحان التى ينسب إبداعها إلى الحاج سيد حواس أو الألحان التى اعتاد أن ينشد بها أشعاره. وهكذا شاعت جمل لحنية عديدة فى أوساط الشعراء المغنين، وفق هذين المصدرين، منها ما ظل مرتبطاً بمبدعيه، ومنها ما تنقل إلى سائر الشعراء.

على أن هذه التكوينات اللحنية المميزة لم تستخدم (لدى شعراء الراباة) استخداماً موسيقياً متنامياً، لأن الشعراء درجوا على وضعها موضع الاستخدام الموسيقى «المغلق»^(١) وأنها - حينما تتخلل الخط اللحنى - تأتى وكأنها نفث نغمية مستقلة لا يربطها بالسياق اللحنى سوى نغمات «وسيطه»^(٢) أى أن حضور هذه التكوينات أو ترديدها فى السياق اللحنى لا يأتى عادة وفق مبرر موسيقى بنائى^(٣)

(١) الجملة المغلقة أو التكوين اللحنى المغلق: هو جملة لحنية واضحة وقائمة بذاتها تتخلل الخط اللحنى لدى شعراء السيرة (فى هذا المستوي من الأداء) ويسهل تذكرها حينما تتردد من وقت لآخر وهي مغلقة لأنها نادراً ما تتعرض لما يمكن تسميته بالتنمية الموسيقية أو التطوير الصريح، ولا يربطها - بما قبلها وبما بعدها من لحن - أية صلة بنائية. ولا يرجع ذلك إلى أسباب تتعلق بتكوين الجملة ذاتها، وإنما يرجع لأسباب تتعلق بطبيعة التقاليد الموسيقية التى تحكم الأداء وتحدد مستواه من ناحية النمو والثبات. وقد شاعت هذه التكوينات اللحنية (الجملة المغلقة) لدى الشعراء (فى مستويات الأداء الأخرى التى تضمها مدرسة الوجه البحري) فجري تنميتها وتطويرها حتى أصبحت تمثل لديهم الأساس اللحنى الذى يتكون عليه الإطار الموسيقى المصاحب لرواية السيرة.

(٢) النغمات الوسيطة: هي النغمات التى لا تؤدي - فى الحالة المذكورة - وظيفة بنائية للجملة اللحنية، بقدر ما أنها تقوم بدور «المعبر» أو «القطرة» التى توصل بين فكرة لحنية وفكرة لحنية أخرى، أو بينها والخط اللحنى العام. فضلاً عن أنها تنقل هذا الخط اللحنى من شكل إلى شكل آخر، أو من تكوين مقامي إلى تكوين مقامي آخر.

(٣) يتوقف وجود أو عدم وجود المبرر البنائى على نوع وطبيعة العمليات الموسيقية التى يجري بها تكوين الخط اللحنى (شكلاً نغمياً وإيقاعياً ومقامياً)، فهذه العمليات هي التى تستوجب إعادة أو عدم إعادة لحن معين، وبها يتعين متى يأتى لحن معين فى لحظة معينة، كما أنها تحكم مقدار ونوع التغير الذى يطرأ على لحن بعينه أو على سياق لحنى كامل.

(بما يقتضيه هذا المبرر من تنمية لحنية أو تمهيد... إلخ).

وعلى الرغم من وضوح هذه الخاصية اللحنية (لدى شعراء الربابة) فإنه ليس هناك أسباب فنية محددة يمكن أن تكشف عن طبيعة التفكير الموسيقي، أو الخطة الذهنية التي يجرى بها ترديد تلك التكوينات سوى تلك الأسباب التي يمكن استخلاصها من المتابعة الدقيقة لأداء الشعراء. ومن النظام نفسه الذي تتردد به تلك الألحان، ومن الدور الذي تلعبه في مسار الأداء.

- إن هذه الألحان أو التكوينات اللحنية المميزة ليست دائمة التردد في الخط اللحني العام، فقد يمضي وقت طويل من الأداء يقطعه صوت الشاعر في التنقل بنغمات قليلة محدودة قبل أن يتردد لحن من هذه الألحان المميزة.

- إن ترديد أي لحن من هذه الألحان المميزة يحدث تأثيراً موسيقياً جديداً ومميزاً على الخط اللحني العام، وكأن الشاعر يريد بذلك التركيز على مقطع شعري بعينه (في السيرة) أو التنبيه إلى موقف أو حدث آني أو آت.

- حينما يتردد واحد من تلك الألحان المميزة فإنه يؤدي إلى انتقال الخط اللحني من شكل إلى شكل آخر مختلف من الناحية الإيقاعية ومختلف في سرعته وقد يختلف أيضاً من الناحية المقامية.

- إن ترديد تلك الألحان المميزة يأتي عادة مصاحباً لمقطع من المقاطع الشعرية الشائعة (في السيرة) والتي ارتبطت - في ذهن كل من الشاعر والمستمع - بهذا اللحن المميز أو ذاك.

إن الدور الذي تلعبه هذه الألحان التقليدية المميزة حينما تتردد في الأداء من حين لآخر، لم يبتعد كثيراً - كما هو واضح - عن ملء الفراغ اللحني الذي يتسم به الأداء الموسيقي في مساره العام، وكأنه يأتي لينشط الشعور الموسيقي في إطار هذا الأداء المحدود النغمات، وهو دور يبدو متسقاً تماماً مع هذا المستوى من الأداء، إذ لا يجب أن ينظر لذلك الحضور المتقطع الذي تأتي به الجملة اللحنية المميزة إلا بوصفه نتاج فني متوقع لطبيعة الأداء الموسيقي المصاحب لرواية السيرة التي يستغرق أداؤها وقتاً طويلاً، فالشعراء لا يعرفون قاعدة موسيقية منظمة يجرى بها تنمية اللحن المميز Motif. وحتى إذا توفر لديهم مثل هذه القاعدة فليس هناك - في المقابل - ألحان مميزة تستوعب طول الرواية واتساعها.

على أن الشعراء - منع ذلك - لم يتركوا العنان لأنفسهم يسترسلون بين نغمات قليلة محدودة، أو يقطعون شوطاً طويلاً في مسار موسيقى رتيب دون ضبط ودون مراعاة لأهمية إصفاء الطابع الموسيقي الغنائي المميز على هذا الأداء الطويل الممتد، ولو من حين إلى حين آخر، وإلا فسد الأداء وسقط.

لقد أكدت المتابعة الدقيقة لأداء هؤلاء الشعراء، وكذلك النتائج المستخلصة من رواياتهم المختلفة والمتفقة حول تقاليد العمل الموسيقي في السيرة. إن غياب ترديد اللحن المميز لفترات طوال عن المسار اللحني العام (الرتيب) لا يعنى أن هذا اللحن قد سقط من ذاكرة الشاعر، فهو واع بالمساحة الزمنية التي تفصل بين ترديد اللحن في موقع معين من الأداء، وإعادة ترديد هذا اللحن في موقع آخر. كما أن ترديد أى لحن من هذه الألحان المميزة والتغنى به من حين لآخر لا يتم لمجرد أن هناك موقع في الأداء يتسع لترديد هذا اللحن أو ذاك. فاللحن لا يتردد إلا إذا تخلق له دور في سياق الأداء، والشاعر المغنى واع بقيمة هذا الدور، فهو الذى يحدده ويقدر نتائجه، سواء على مستوى المسار اللحني، أو على مستوى احتياجات المستمع كما يقدرها المغنى.

هناك إذن قاعدة فنية بعينها حاضرة بصورة دائمة في ذهن الشاعر المغنى، لكنها ليست قاعدة بالمفهوم الموسيقي القياسى الذى يلزم المغنى بترديد الجملة اللحنية أو إعادة ترديدها في لحظات بعينها دون تأخير أو تقديم، وإنما هى قاعدة تتسع لكل التقديرات التى تقتضيها طرق الأداء الموسيقي الفولكلورى التى ارتبطت برواية السيرة لدى شعراء الرابة.

ثالثاً:

الشكل الإيقاعى:

لا يعتمد الأداء (لدى شعراء الرابة) على استخدام آلات أو أدوات إيقاعية لضبط وتنظيم الإيقاع، ومع ذلك ليس من الصحيح القول إن الأداء فى هذا المستوى يعتمد اعتماداً كلياً على خاصية التحرر من الوزن الإيقاعى القياسى بخصائصه

المعروفة^(١). فهذه الخاصية ليست ممثلة في هذا المستوى من الأداء إلا في مواقع معينة في الخط اللحني تقتضى طبيعة تكوينها اللحني والغروضى التحرر من خاصية الوزن المنتظم، والتحرر من سيطرة النبرات الإيقاعية الشديدة. وهذه المواقع اللحنية تأتي - في الخط اللحني - إما كاستهلال أو كمواقع مرورية تربط الأجزاء اللحنية - ذات الإيقاع الموزون ببعضها البعض. وهى الأجزاء التى تسيطر - بطول متنها الشعري وشكلها اللحني - على عموم الأداء. وهذا يعنى أن هناك اتجاهًا نحو وزن الإيقاع ووعى بالعلاقة بين النبرة الشديدة والنبرة الضعيفة اللتين ينتظم بهما الوزن. ولا شك أن عدم التقيد بالوزن القياسى (فى أجزاء معينة من الأداء) يعنى - فى الوقت نفسه - التقيد بإيقاع آخر غير الإيقاع الموزون، ومن ثم تبقى مشكلات الإيقاع وتمثل الوزن وكل ما يتصل بهما من مفاهيم لدى الرواة فى هذا المستوى من الأداء - تبقى - من الملاحظات التى لا يستقيم فهمها فهماً صحيحاً إن هى عزلت عن التشكيل الإيقاعى العام الذى تدور حوله كل صور الإيقاع بما فيها من انتظام واختلال واختلاف فى السرعة أيضاً.

ومن الملاحظات المهمة التى تبرز فى إطار التشكيل الإيقاعى الموزون وزناً قياسياً (ولأنه لا يستخدم لوزنه أية أداة إيقاعية ضابطة ومنظمة كالدف أو الدريكة أو ما شابههما)، أنه يفتقد - فى بعض أجزائه - المحافظة على تدفق النبرة الإيقاعية الشديدة بتوال دائم ومنظم، ومن ثم يبدو الوزن منكسراً فى تلك الأجزاء التى تأتي عادة فى شكل مواقع مرورية ينتقل بها الأداء من شكل لحني إلى شكل لحني آخر، أو من سرعة إلى سرعة أخرى مختلفة. كما قد يحدث هذا الكسر الوزني لأسباب أخرى أهمها: عدم تطابق إيقاع اللحن بإيقاع الشعر (التفعيلة) وهى الحالة التى يصعب

(١) المعروف أن خاصية التحرر من الوزن الإيقاعى القياسى تنحو تجاه قواعد الارتجال الموسيقى (أي التداعي الحر للخواطر الموسيقية وفق التقاليد الموسيقية الشائعة) وهذا الاتجاه فى الأداء يبيح استخدام كافة العناصر والمفردات الموسيقية المتاحة. وبذلك تتسع دائرة الاختيارات التى يستفاد منها بهذه العناصر وتطويرها لخدمة الأداء. والأداء المرتجل لا يعتمد بطبيعته على الإعداد أو التفكير المسبق الذى يحدد سلفاً النظام الذى ينشأ عليه بناء موسيقى بعينه (من حيث ثبات الشكل والتكوين المقامي)، إذ يكفي فى هذا الأداء المرتجل بتمثل المؤدى للعمليات الموسيقية التى تجري عادة فى هذا الإطار... ومن ثم فإن هذه العمليات وكذلك ما ينتج عنها من تشكيل موسيقى لا تأتي متطابقة فى حالة ما إذا تكرر الأداء...، على أن خاصية التحرر من انتظام الوزن ليست ممثلة بهذا المفهوم لدى شعراء الرابابة، إلا فى نطاق ضيق ومحدود.

معالجتها في إطار الوزن اللحني المنتظم.

على أن تكرر الكسر الوزني لا يقع عادة - وبصورة متكررة - إلا في المواقع المروية دون حدوث رد فعل لحظي أو مؤجل من قبل المغني أو المستمعين من النوع الذي يربك الأداء أو يؤثر سلباً في سياقه. وليس هناك من تفسير لهذا السلوك الإيقاعي يكون أقرب إلى الصواب سوى أن اعتياد الرواة على معالجة الوزن على هذا النحو قد شكّل حساً إيقاعياً خاصاً لدى المغني وجمهوره. وهو المعنى الذي يفسر بدوره اللامبالاة التي كان يبديها المغني وجمهوره تجاه ما يبدو - بالمعيار الإيقاعي القياسي - أنه خطأ إيقاعي أصبح شيوعه لدى الرواة يمثل خاصية مهمة تضاف إلى رصيد المفهوم (أو التمثل) الإيقاعي لدى الرواة الشعراء في هذا المستوى من الأداء.

أما خصائص الإيقاع فأهمها وأكثرها وضوحاً: إن الإيقاع لا يبدأ بالضرورة بإظهار نوع النبر، شديده من خفيفه، ولا يعتمد - في بداية الأداء، وفي أجزاء أخرى داخل الأداء - على مبدأ المحافظة على المسافات الزمنية التي تفصل بين النبرتين، فالشاعر لا يولي أهمية كبيرة لهذه الناحية، على أن تميز الشكل الإيقاعي وتحديد نوع ميزانه وزمنه لا يحدث عادة إلا بعد انقضاء وقت من الأداء يكفي لإدراك التوقيع في حالة مستقرة وزناً وسرعة حتى يمكن تحديد شكل العلاقة الزمنية التي تفصل بين النبرة والأخرى وفهم طبيعة الدور الذي تضطلع به النبرة الشديدة في تشكيل هذا الإيقاع، ومن ثم يمكن تحديد نوع الوزن وتقدير القيمة الزمنية للإيقاع.

أما حركة الإيقاع - وهي الناحية التي تظهر مدى تمثّل الشاعر لثبات أو تباين السرعة أثناء الأداء Tempo فيمكن توضيحها (وفق الأمثلة الغنائية التي تناولها الكتاب)، وكلها تظهر أن سرعة إيقاع الأداء غير ثابتة. ويبدو أن عدم ثبات السرعة على درجة محددة (تتوافق مع ثبات سرعة بندول الساعة أو مع انتظام مقياس السرعة M. M) (١) - يبدو أنها - سمة من سمات هذا الأداء الموسيقي الموزون الذي يستغرق وقتاً طويلاً والذي لا يستخدم له أدوات إيقاعية تظهر التوقيع وتنظم سرعته بقدر معلوم، ولا شك أن المرونة وعدم الصرامة التي يبديها المغني تجاه عدم ثبات سرعة الإيقاع تعني أنها ضرورة تستوجبها تقاليد أداء السيرة خاصة في حالات

(١) M. M = رمز يدل على الجهاز الذي يستخدم لضبط وتحديد سرعة حركة اللحن: ميترونوم

. Metronome

الأداء التي يعتريها الوقف على حرف أو مدّ حرف أو التمهّل عند مقطع والإسراع عند مقطع آخر... إلخ، ومع ذلك يمكن القول إن هناك «واحدة» إيقاعية^(١) منظّمة للوزن يمكن إدراكها في أداء أولئك الشعراء، وإن كانت هذه «الواحدة» تغيب أحياناً في بعض مواقع الأداء أو تأتي بتتابع بطيء أو سريع أحياناً أخرى.

أما موازين الألحان التي يجرى عليها الغناء (لدى شعراء الرابابة) فإنها لا تخرج عن الميزان الثنائي البسيط والميزان الرباعي. وقد يجرى تشكيل الخط اللحني في واحد من هذين الميزانين لفترة من الأداء، قد تطول أو تقصر، ثم يتغير النبر الإيقاعي ليتحول الأداء إلى الميزان الآخر.

وقد يتشكل الخط اللحني على نحو لا تنتظم فيه النبرة الشديدة في موقعها قياساً بمواقع النبرة الخفيفة، فينشأ عن ذلك إحساس بأن كلاً من الميزانين يمران في موقع لحني قصير الزمن نسبياً وكأنهما متداخلان في هذا الموقع القصير، والمعتاد ألا ينتج عن هذا التجاور الإيقاعي «الميزانين» أى خلل أو إرباك للأداء لأن كلاً من الميزانين ينتميان إلى أصل إيقاعي واحد، ويظل الفارق بينهما محدوداً بمواقع النبر. وهو أمر لا يلتزم به المؤدى عادة فضلاً عن أن الالتزام به يختلف في درجته من مؤد إلى مؤدٍ آخر، وخاصة في غياب الأدوات الإيقاعية الضابطة التي حتى وإن وجدت؛ فإنها لا تلزم المؤدى بالمواقع المقررة للنبرات مهما حدث من تبديل لهذه المواقع نتيجة الزخرفة مثلاً أو نتيجة عملية التجويد في الأداء التي تؤدي أحياناً - وبصورة متعمدة - إلى تأخير أو تقديم مواقع النبر.

من هذه الخصائص جميعاً يمكن رؤية الإطار الفني الذي يتحرك داخله مؤدو السيرة على آلة الرابابة، كما يمكن أيضاً إدراك المدى الذي يوصل بين ما بدأ، إنه تقاليد قديمة في طرق أداء السيرة والأساليب التي اقتضتها الحاجة الفنية المتغيرة. وفضلاً عن هذا وذلك فإن ثمة أهمية أخرى تنطوي عليها هذه الخصائص حينما تظهر طبيعة المرونة التي اتسم بها الأداء الموسيقي، وهى المرونة التي جعلت شعراء الرابابة غير معزولين تماماً عما كان وما يزال يدور حولهم من فنون غنائية أخرى، فالموسيقية عند شاعر الرابابة الجوّال لم تتكون من فراغ ولم تتغير أو تتنوع من فراغ أيضاً، فكثير من شواهد الواقع الموسيقي في دلتا مصر تؤكد أن هذا الواقع أتاح لفنونه

(١) «الواحدة» قيمة زمنية يقاس بها وعليها وحدة ونوع الزمن المعمول به في الأداء الموسيقي.

المتعددة أن تأخذ مما حولها من تقاليد موسيقية وتعطى، وفق آلية كل نمط فنى وبحسب ما تقتضيه الحاجة إلى ذلك. وليست طرق أداء السيرة - نغماً وإيقاعاً وأساليباً وشعراً - فى معزل عن تفاعل هذا الواقع الفنى^(١). فالتراوح بين وزن الإيقاع وتحرره من هذا الوزن (لدى شاعر الرابة) إنما هو خاصية فنية عامة من خصائص الأداء الموسيقى الفولكلورى لكنها تتواجد بدرجات متفاوتة يحددها نوع الشكل الغنائى وتقاليد الأداء^(٢) ويمتد تأثير هذه الخصائص الفنية العامة إلى الألحان وإلى الكيفية التى تتشكل بها، بل وتمتد إلى الشعر فى صوره وتراكيبه وإلى أساليب معالجة المواقف القصصية التى يحكى عنها الشعر.

لا شك إذن أن تشكيل هذا الإطار الفنى يعزى إلى دور رئيسى لعبه الرواة أنفسهم ولا شك أيضاً أن تفاوت القدرات الفنية عند هؤلاء الرواة وتباين طموحاتهم الشخصية انعكس على مكونات هذا الإطار ولا سيما شكل الألحان وأساليب الأداء بما اعتراها من تنوع أو تجديد أو تواضع. فهذا المستوى من أداء شعراء الرابة - وإن كان يوصف بأنه يمثل وحدة فنية متماسكة، فإنه مع ذلك - يتضمن مناح فى الأداء تحمل خصائص التنوع لكنه التنوع الداخلى، الذى يصلح بدوره لترتيب هذه المناحى فى مستويات داخلية يمكن توضيحها فى أمثلة دالة بعينها أولها: المؤدون الذين يلتزمون الأداء فى عدد محدد من الجمل اللحنية ولا يغيرون ولا ينوعون إلا فى دائرتها. والصورة العامة لهؤلاء المؤدين تنم عادة عن تواضع فى القدرات الفنية - صوتاً وأداءً - كما تنم عما يبدو أنه افتقار لميزات شخصية كالوعى باحتياجات الذوق الفنى العام المتغير أو الفطنة لما ينبغى عمله أو إضافته إلى الأداء لاجتذاب المستمع، وعلى الرغم من أن هناك أسباب عديدة تنبئ - منذ فترة مضت - بتدهور حال الرواية والرواة فى دائرة النشاط الموسيقى الشعبى، فإن الصورة التى يمثلها الحال الفنى لهذا المثال تحتل أن تكون

(١) من الأمثلة الواضحة على ذلك دخول فن أداء الموال والبحراوى، إلى مجال الأداء الموسيقى للسيرة، وشيوع ألحان بعينها لدى كل من شاعر السيرة والمشد الدينى الصييت. وفضلاً عن ذلك فإن كلاً من الشاعر والمشد جعلوا الأداء بطريقة «السرد» قسماً فنياً رئيسياً فى الأداء.

(٢) من الفنون الغنائية التى تتمم بهذا الطابع الإيقاعى الإنشاد الدينى (عند الصييت) وخاصة غناء القصص الدينى القديم، وكذلك الموال القصصى (عند المغنى البلدى) الذى يتجه بطول مقته الشعرى واللحنى ناحية هذه الخاصية الإيقاعية.

واحدة من نتائج هذا التدهور كما تحدث أيضاً أن تكون واحدة من أسبابه .
تتدرج هذه القدرات الفنية إلى مثال آخر لكنه يتميز بتعدد الجمل اللحنية كما يتمتع فيه الرواة بحركة أكثر في دائرة التغنى بشعر السيرة، بسبب تميزهم بقدرات خاصة سواء في الصوت أو في الأداء ذاته، فضلاً عن تميزهم بالقدرة على التغيير والتنوع في ألحانهم وأساليبهم لمجاراة المستمع في ذوقه أو فيما يظن المؤدى أنه مطلوب في لحظة دون سواها .

ويتوسط هذين المثالين مثال ثالث لا تتعدد لديه الجمل اللحنية أو الأساليب، كما أنه لا يتسم بفقر الناحية الموسيقية إلى الدرجة المحدودة المشار إليها في المثال الأول، وإنما يقع بين هذا وذاك ويمكن وصفه بأنه مثال يعتمد على أفكار لحنية قليلة .

وفي دائرة الأداء على الرابطة المفردة هناك حالات فردية لها تميزها الخاص وهي - وإن كانت لا تمثل ظاهرة فنية عامة تقتضي وضعها في مستوى أداء (شكل) قائم بذاته، أو إدراجها بصورة مباشرة إلى قائمة الشعراء الجوالين في هذا المستوى من الأداء - فإنها لعبت دوراً مهماً بموقعها الفني الخاص الذي كان بمثابة الركيزة المحورية الموصلة بين الأداء على الرابطة المفردة وبين مستويات الأداء الأخرى التي نوعت في الآلات وفي الأساليب . من هذه الحالات الفردية يبرز السيد فرج السيد بتغييراته الفنية الواضحة التي أضافها لأداء السيرة على الرابطة . إذ راح يجمع بين أساليب شعراء الرابطة الجوالين وأساليب المغنين الشعبيين الآخرين كالمنشدين ومغني الموال، كما راح ينشط في مجال تنوع الآلات الموسيقية فأدخل السلمية والدريكة لمصاحبة رابته المفردة . وقد انسحب هذا الاجتهاد، ليس فقط على مكانته الفنية، وإنما على مكانته الاجتماعية أيضاً فراح يكتسب الشهرة ويحظى بتقدير الناس . فهو، وإن كان لا ينتمي إلى المغنين من فصيل المنشدين أو مغني الموال، فإنه استطاع مع ذلك التحرر بدرجة كبيرة من الصفات الفنية والاجتماعية التي وسم بها شعراء الرابطة الجوالين . وعلى الرغم من اعتلائه هذه المكانة الوسط فإنه حظي بكثير من الامتيازات التي كان يحظى بها المنشدون ومغنو الموال، إذ كان لا ينشد السيرة في مناسبة ما إلا باتفاق مسبق مع أصحاب الحفل يحدد فيه شروط الأجر والموعود والمكان كما كان يطبع له تذكراً لدخول الجمهور السرايا التي كانت تقام له خصيصاً في ساحات الموالد وفي مناسبات الأعياد، وهي الميزات التي

لم يتمتع بها قط شاعر الرماية الجوال في المستويات الثلاثة الفرعية سالفة الذكر^(١).

جمهور السيرة ومناسبات الأداء:

لم يعد الشعراء - شعراء الرماية - يحظون بمكانة فنية على غرار ما كانت عليه تلك المكانة في الزمن السابق. وعلى الرغم من أن للسيرة (في مدرسة الوجه البحرى) جمهور مايزال يقبل على روايتها، فإن هذا الجمهور - وعلى نحو عام - لا يفضل الاستماع إليها بطريقة هؤلاء الشعراء الجوالين^(٢).

لقد خلت المناسبات الاحتفالية الخاصة من هؤلاء الشعراء، كما قل تواجدهم في الموالد والأسواق، إلا من بعض معزوفاتهم وأشعارهم التي يتغنون بها أحياناً في موضوعات أخرى غير السيرة. وربما كان لقلة محفوظهم الشعري من السيرة، ولطريقة أدائهم الرتيبة والمستوى الفني المتواضع الذي آل إليه حالهم، ربما كل هذا كان سبباً في تأكيد وضعهم المهمل، ولاسيما أن الأنظار - في مقابل ذلك - راحت منذ عقود ثلاثة مضت تتجه صوب الجنوب البعيد حيث الشعراء في القرى والنجوع تعيد إليهم الثقة فيما يحملونه من تراث ليس فقط بين جمهورهم التقليدى في موطنهم الأصلي، وإنما بين جمهور العاصمة أيضاً الذى راح يتجمع حولهم بعدما اجتذبتهم القاهرة ومثقفوها. بينما تغاضت هذه الأنظار عن شعراء الرماية - في مدرسة الوجه البحرى - فراحوا ينطوون على تراثهم، أو على ما تبقى منه فصار حبيس صدورهم يتكسر ويتداعى في الذاكرة ولا يخرج إلى الأسماع إلا بدعوة زائر دارس يبحث عن السيرة قاصداً هؤلاء الرواة حيث يقطنون عوائل صغيرة في أركان القرى، عندئذ قد يتحول هذا العمل العلمى إلى سامر يتجمع له الرجال والشباب ما بين محب ومتعجب وفضولى.

(١) استطاع السيد فرج السيد في زمانه أن يلفت الأنظار إليه ويحوز إعجاب الكثيرين بسبب تميزه الفني النادر في الأداء الموسيقي السليم والتفرد بأسلوب في الأداء كان في ذلك الوقت، وحتى الآن يحسب له. والسيد فرج السيد شاعر رماية كان، بدوياً، يعيش في ميت الخولي مؤمن محافظة الدقهلية معروف بشعر أبوزيد الهلالي، وكان أفضل من ينشد قصة مامونة علي الرماية (حديث للشيخ أحمد إبراهيم خميس/ منشد ديني متقاعد عمره ٧١ سنة من قرية الرحامنة مركز المحلة كان ينشد القصص الديني القديم علي الرق قبل أن يتحول إلي الإنشاد علي الفيولين المفردة، وكان مقرباً للحاج سيد حواس).

(٢) هناك رأي بعينه يكاد يجمع عليه عدد كبير من الأفراد متفاوتون في درجة تعليمهم، وهو في الوقت نفسه أحد الأسباب التي جعلت الناس يعرضون عن الاستماع إلي السيرة من هؤلاء الشعراء. وهذا الرأي مفاده: أن لهم طريقة في الأداء تبعث علي الملل وأن أغلبهم لا يتمتع بصوت جميل يجذب إليهم السامع.

ترتيب أجزاء الأداء:

تتسع سيرة بنى هلال لتتضمن ثلاث حلقات كبرى، تحتوى كل حلقة منها على أحداث ووقائع عديدة وتعرف الحلقة الأولى باسم «المواليد»^(١)، وتعرف الحلقة الثانية باسم «الريادة» أو «تغريبة بنى هلال»^(٢)، بينما تعرف الحلقة الثالثة باسم «ديوان الأيتام»^(٣). ومع اتساع السيرة وكثرة أحداثها كان الأداء - فيما مضى - يمتد ليستغرق عدة شهور قبل أن يصل المغنى بالسيرة إلى نهاية أحداثها^(٤).

على أن السيرة - فى الأداء الموسيقى المعاصر - لم تعد تعرف بهذا الاتساع فقد مات من رواتها عدد كبير، وما تبقى من الرواة تحول بعضه إلى مزاولة أعمال أخرى غير السيرة، أما البعض الآخر - وعددهم لم يعد يتجاوز عدد أصابع اليدين - فإنهم لا يتمكنون إلا من بعض أجزاء السيرة.

وعلى الرغم من قلة عدد المؤدين وضآلة محفوظهم، فإن ما لديهم من هذا المحفوظ ما يزال يستوجب منهم - عند الغناء - اتباع الطرق التقليدية (القديمة). من ذلك أن فقرة الأداء الواحدة ما تزال تستغرق وقتاً ليس بقليل، كما أنها تستوعب خصائص من الأداء التقليدى يشمل الموسيقى والسرد ويقاها من أساليب التعبير بالحركة وبالإيماءات... إلخ.

(١) «المواليد» هو الجزء الأول من سيرة بنى هلال، وهو مدخل السيرة كلها، ولا يرتبط بسيرة بنى هلال فقط، وإنما ببنية السيرة الشعبية عموماً، مروية ومدونة، (أحمد شمس الدين الحجاجي/ مواليد البطل فى السيرة الشعبية/ كتاب الهلال - العدد ٤٤ - القاهرة ١٩٩١ ص ١٦).

(٢) «التغريبة» هى رحيل بنى هلال إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتى خليفة، ويسبقها الريادة. فقد استقر رأى بنى هلال على ترشيح أبو زيد وأولاد أخوته الثلاثة (يونس ويحيى ومرعى) لارتداد الغرب واستطلاع الأحوال.

(٣) «ديوان الأيتام» هو الحلقة الأخيرة من سيرة بنى هلال، وفيها يبرز دور الجيل التالى من أبناء الهلالية، وسمى الأيتام إشارة إلى ما فعله الخصم دياب بن غانم بآباء هؤلاء الأبناء.

وجانب هذه التقسيمات الكبرى يعرف الرواة العديد من العناوين والأسماء الفرعية التى يمثل كل منها كياناً قصصياً متكاملأ، من هذه العناوين: قصة الناعسة أو ديوان الناعسة، وقصة أبو زيد وعالية العقلية، وقصة أبو زيد وزيد العجاج، وقصة حلم سعدى وقصة عزيزة ويونس، وقصة الخفاجى عامر، وقصة شنقة مخيمر، وقصة حنظل، وغيرها (مجموع التسجيلات الخاصة بالمؤلف).

(٤) كان الشعراء - إلى عهد قريب - ينتقلون بين المقاهى فى مختلف الأحياء، ويستطيع الواحد منهم أن يؤدي سيرة بنى هلال كلها وهي تستغرق أكثر من ستة أشهر... (د. عبد الحميد يونس/ الهلالية فى الأدب والتاريخ/ مرجع سابق/ ص ١٩٧).

وثمة صورة قديمة لشاعر الرابة كانت شائعة خلال الأربعينيات ما تزال عالقة في أذهان عدد من الذين عاصروا ذلك الزمن، والوصف التالي يمثل واحدة من تلك الصورة التي كان عليها الشعراء وجمهورهم في الوجه البحرى، وخاصة في ليالى شهر رمضان . كان الشاعر يعتلى دكة في ركن المقهى، والناس من حوله ومن أمامه جلوس على الديك والكراسى، بينما يتراض بعض الناس خارج المقهى وأمام الباب يفترشون أكوام القش . كان صوت الناس يتعالى ما بين راغب فى الاستماع إلى قصة عزيزة ويونس، وقصة الزناتى خليفة، أو قصة بنات الأشراف وغيرها . لكن عندما يبدأ الشاعر فى الغناء ويجز بالقوس على وتر الرابة كان الجمع ينصت ولا يتردد إلا صوت الشاعر يملأ جنبات المقهى: «قال الراوى يا سادة يا كرام، اللهم صلى على البدر التمام، كان فى قديم الزمان عرب يقال لهم بنى هلال، فى بلاد الحجاز، بلاد مشرف العربان، حاكم عليهم سرحان، قاضيهما فايد أبو بدير، فارسهم وقائدهم رزق الجعفرى ولد نایل ... إلخ» .

كان الشاعر يلون فى صوته ويغير فى طبقته، لا يعيده إلى طبيعته إلا بعدما يصل إلى قوله: «والراوى يقول: صلوا على أكرم رسول، عندئذ يتهيا الصوت إلى طبقة الغناء (١) . وهكذا كان الشاعر يقطع مع جمهوره الليالى المتوالية فى رواية السيرة ما بين الغناء الصريح، الموزون منه والحر، وبين السرد بلهجاته المختلفة وتعبيراته المثيرة .

أما الصورة المعاصرة. فإنها لم تعد تحمل من أصلها القديم سوى تلك الظلال الطفيفة التى تفتقد حماسة الأداء كما تفتقد إلى المستمع الذى يثيرها أو يقدرها . وعلى هذا النحو فالشاعر المعاصر يستهل الأداء بإصدار بضغ نغمات فى تكوين لحنى بسيط ينتهى عادة بالنغمة «الأساس» التى تأتى ممدودة ومتكررة مرات عديدة قبل أن يستقر الشاعر على موضع - من زمن الأداء - يكون مناسباً لدخوله بالشعر منعماً .

ويستهل الشاعر غناؤه - عادة - بمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد يستطرد فى المديح فينشد مقطعاً شعرياً مستقلاً يوجز واحدة من معجزات الرسول

(١) هذا الوصف قدمه: الشيخ أنور عز الدين صقر - منشد ديني متقاعد، عمره ٧٣ سنة يقيم حالياً في مدينة بورسعيد عاش فترة صباه وشبابه بين قرينتي أشمون الرمان ومنية النصر مركز دكرنس محافظة الدقهلية تعلم في الكتاب ثم التحق بالمدرسة الابتدائية الأزهرية وحفظ القرآن وعمل مقرناً ومنشداً محترفاً. والده كان شيخاً للطريقة الرفاعية عن مركز دكرنس (مجموعة التسجيلات الخاصة بالمؤلف/ بورسعيد مارس ١٩٩٥) .

الشائعة في القصص الشعبي الغنائي . وعقب الانتهاء من أداء هذا المقطع يغير الشاعر من مساره اللحني إلى المسار الخاص بالسيرة حيث يعزف واحداً من الألحان المميزة أو يعزف بعض النغمات التي تدور في دائرة اللحن الأساسي المميز . وبنهاية العزف ينتقل إلى سرد وقائع من أحداث السيرة يمهّد بها للأحداث القصصية التي سوف ينشدها تباعاً . ومن السرد ينتقل إلى أداء موال يليه غناء موزون في شعر السيرة . وبهذا الترتيب فإن المغنى يلتزم بتوالي «وحدة الأداء، المكونة من أقسام ثلاثة: السرد، والغناء غير المقيد بوزن، ثم الغناء الموزون . ومن توالى الوحدة بهذه الأقسام الثلاثة تتكون الوصلة الغنائية .

التغير وآلياته

مع بداية العقود القليلة الماضية كانت الموسيقى الشعبية قد بدأت تتأثر تأثراً واضحاً بما طرأ على المجتمع من تغير في البنيان الاقتصادي والاجتماعي وفي القيم التي كانت تمارس الموسيقا في نطاقها، وشيئاً فشيئاً راحت تحدث الكثير من التغييرات المهمة في هذه الموسيقا، سواء الموسيقا التي اقترنت بمجالات العمل التقليدي أو التي اقترنت بالمناسبات والأحداث الاجتماعية المختلفة.

لقد اختفى وانحسر العديد من الأشكال والممارسات الموسيقية (التي كان يضطلع بها عامة الناس) وهذا لا يعزى برمته إلى الناحية الفنية أو إلى التطوع إلى البدائل المعاصرة التي توفرت على الساحة الفنية؛ وإنما يعزى إلى التغير الذي أصاب آلية الانتاج الموسيقي الشعبي وقلل من أهمية الدور والوظائف التي كانت تؤديه هذه الموسيقا في الحياة الشعبية التقليدية. ففي مجال العمل الزراعي راحت التقنيات الجديدة تحسر استخدام الأدوات الزراعية التقليدية (كالسواقي والشواذيف وما نحوها) فتغيرت بذلك آلية العمل التقليدي وأساليبه فانحسرت مجالات الغناء وانعدمت وظائفه التي كانت مرتبطة بهذه الأساليب القديمة. وانسحبت هذه الحالة على أنماط عديدة من العمل التقليدي وأغانيه (كصيد الأسماك وأعمال الجر والسحب والدق وما شابهها).

مع تغير أساليب العمل ظهرت البدائل الفنية التي توافقت مع أساليب العمل الجديدة ومع إيقاعه وواكبت - في الوقت نفسه - النزوع إلى الترويج والتسرية أثناء أداء الأعمال، وقد ساعد على ذلك - في بداية الأمر - توفر أجهزة الكاسيت التي راح استخدامها شيئاً فشيئاً ينتشر في الحياة الشعبية ويوسع من دائرة استهلاك أصناف مختلفة من الغناء توازت مع متطلبات الذائقة الفنية التي كانت قد بدأت بدورها تتغير وتتغير، ففي العرس بات من المقبول اليوم - في كثير من قرى مصر - أن يستعين الناس بالأغاني الإذاعية المسجلة على شرائط كاسيت، فانتشرت، لهذه المناسبات، أشرطة بعينها تحمل عنوان «أغاني الأفراح لمشاهير المطربين» مثل محمد فوزي وشادية وعبد المطلب وأحلام ومحمد رشدي وغيرهم. بل أصبح من المؤلف

اليوم أيضاً - وفي قرى مصر - أن يستعين الناس بالشباب الذين يذيعون الأغاني المسجلة على الأقراص المضغوطة (C. D) من خلال أجهزة الكمبيوتر المزودة بمكبرات الصوت الضخمة وهي الخاصية التي باتت تعرف اليوم بـ: «D. J» .

وفي سبوع المولد، وفي الطهور أيضاً، اختزلت المراحل الطقوسية، وبات الاحتفال بهاتين المناسبتين - في كثير من أقاليم مصر - يقتصر على بعض الإجراءات الرمزية مع ترديد المقاطع الغنائية غير المكتملة والتي غالباً ما تتداخل مع النصوص والألحان الإذاعية المعروفة .

أما الموسيقى التي اضطلعت بها طوائف المتخصصين والمحترفين ومن في منزلتهم فقد شهدت بدورها انحساراً، بل واختفاء كاملاً للعديد من أشكالها وموضوعاتها وخاصة الأشكال التي كانت تصاحب عروض الفرجة (كالأراجوز والقردياتية والراقصات وخيال الظل ومن لف لفهم) أما الأشكال التي راجت بمعرفة الشعراء والمداحين فقد انحسرت (في تقاليد أداؤها القديمة) في جيوب محدودة في بعض أقاليم مصر بعد أن فقد الأداء التقليدي خصائصه الطقوسية أمام البدائل الفنية الجديدة ومن استطاع من الشعراء والمداحين الصمود بحرفته في مواجهة المتغيرات؛ راح يغير بدوره في تقاليد الأداء ويعدل في الأساليب وفي شكل الرواية وفق مقتضيات الحال الجديد .

على أن أثر المتغيرات الجديدة لم يكن لها أن تنعكس بالحال ذاته على وضع المغنى البلدى (مغنى الموال) إذ ما يزال الموال - وكما سبق بيانه - يحظى، عند الجمهور في الثقافة الشعبية وخارجها برصيد كبير من الإعجاب والقبول مما أدى إلى استمرار وجود المغنى البلدى إلى اليوم . صحيح أن هذا المغنى راح يغير في طرق الأداء وفي الأدوات والآلات وفي الموضوعات وأفاد كثيراً من معطيات الموسيقى الشرق عربية، وتأثر أيضاً بالأشكال الموسيقية الأخرى كالطقطوقة والأغنيات القصيرة الموزونة وزناً قياسياً، لكن مع ذلك - ولأسباب فنية تتعلق ببنية الموال شعراً ونظماً - ظل الموال شكلاً غنائياً رائجاً في الثقافة الشعبية وخارجها مما ساعد المغنى البلدى على الحفاظ على تميزه في الساحة الفنية الشعبية إذ ما يزال له جمهور يستمع إليه ويقدره .

أما الإنشاد الدينى «إنشاد الصييت» فكما سبق بيانه، اتسعت مساحته بفضل جهود

المنشدين من جهة وبفضل الإقبال المستمر على الاستماع لهذا الصنف من الغناء من جهة ثانية. أما فضل المنشدين فقد تمثل في مراعاتهم المستمرة لاحتياجات الذوق الفنى الجديد، وعلى الرغم من الأهمية المتميزة لهذا الصنف من الغناء التقليدى لدى جمهور الثقافة الشعبية؛ فإن المنشدين راحوا مع ذلك يرتادوا مجال التجديد والتنوع فى موسيقا الإنشاد وفى موضوعاته وفى طرق الأداء، فهم أول من أدخلوا آلة العود والكمان إلى مجال الإنشاد بل إلى الموسيقا الشعبية وعلى الإطلاق، وهم أول من أقام الجسور بصورة صريحة بين الموسيقا الشعبية والموسيقا الشرق عربية فأخذوا منها المقامات وطرق الأداء، وفى إطار هذا المبدأ نوع المنشد الصيبت فى تقنياته وزاد فى أدواته فاستخدم السلمية والعود والقانون والأورج أيضاً فى مراحل متأخرة وتعامل مع أجهزة الصوت الحديثة، وصارت له أساليب فى الأداء متجددة دوماً، ليس فقط على مستوى التطريب والشجن الذى تميز به أداء الصيبتية المعاصرين؛ وإنما على مستوى العرض المثير الذى يستخدم له المنشد أساليب فى التعبير وفى تصوير المواقف والأحداث التى تحتشد بها موضوعاته الغنائية.

هذا العرض الموجز لا شك أنه بحاجة إلى معالجة مستفيضة تغطى وعلى نحو مفصل الجوانب الأخرى التى انعكست على هذه الموضوعات من ناحية وتغطى على نحو مماثل كافة الأشكال والموضوعات الموسيقية الشعبية من ناحية أخرى، وهو الأمر الذى لا يتسع له المقام فى هذا الكتاب. وما أردنا بيانه من خلال هذا الإيجاز هو التنبيه إلى آلية التغير ومقوماته فى انعكاساتها على الأمثلة التى بينها من انحسار واختفاء وهو الأمر الذى من شأنه دفع الباحثين إلى العناية أكثر بعمليات الجمع الميدانى فى سائر أنحاء البلاد واللاحق بما تبقى من ماثور تقليدى، وتسجيل البدائل المستحدثة.

أما الإسهاب بعض الشيء فى معالجة هذه الآلية ومقوماتها فيمكن تقديمها فى معالجة واحد من هذه الأمثلة التى يمكن تقديمها فى هذا الخصوص - على نحو قد يفى بهذا الغرض، وهو المثال المتعلق بوضعية الآلات والأدوات الموسيقية الشعبية فى مصر^(١)، وسوف نركز فى هذه المعالجة على معطيات الواقع الميدانى كشاهد على

(١) هذه المعالجة مأخوذة عن مقال تم نشره بمجلة الفنون الشعبية بعنوان «آلات وأدوات الموسيقا الشعبية» - العدد ٥٦ - ٥٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ - من ص ١٢٩ .

فعالية هذه الآلية التى تتسلح بها مقومات التغير. ولكى نبين فعالية هذا القانون ومداه لابد وأن نأخذ فى الحسبان طبيعة الإطار الثقافى الذى يضم الآلات والأدوات الموسيقية الشعبية فى مصر صناعة واستخداماً مع الإشارة إلى الدلالات الرمزية التى اقترنت بهذه الآلات سواء من حيث الوظيفة أو من حيث المفاهيم والاعتبارات الثقافية التى أحاطت بها.

منذ ما يزيد عن قرنين من الزمان - وإلى اليوم - لم تتوافر الشواهد التى تشير إلى أن ثمة تغير جوهري لحق بالآلات الموسيقية الشعبية فى مصر سواء فيما يتصل بشكل التكوين الثلاثى الذى تتألف منه هذه الآلات (آلات النقر والتوقيع/ آلات النفخ فى الأنابيب/ آلات النبر والجرب بالقوس على الأوتار) أو فيما يتصل بالتكوين الفيزيائى الأساسى الذى ظهرت به هذه الآلات منذ المراحل التاريخية السابقة، أو فيما يتصل بالنظام السلمى الموسيقى ولون الصوت ومساحته التى عرفت بهم هذه الآلات والأدوات.

يتوازى مع هذا أن كلاً من المصادر التاريخية والدراسات الميدانية المعاصرة تؤكدان أن صناعة الآلات والأدوات الموسيقية الشعبية كانت - وما تزال - تجرى بغرض محدد يدل، من ناحية، على أن هذه الآلات (بخصائصها التكوينية) تعد أدوات لعمليات اجتماعية ذات ميزات ثقافية خاصة وعلى الرغم من أن أغلب هذه العمليات تقوم على مبادئ وقواعد فنية (بالمفهوم الموسيقى)؛ فإن الصلة التى تربط بين آلات الموسيقى الشعبية وتلك العمليات تتراوح بين عمليات صوتية مصاحبة للحركة وللصوت البشريين وعمليات بنائية تتحول عندها الآلة - بهياتها أو بصوتها أو كليهما معاً - إلى عنصر من العناصر الأساسية التى تقوم عليها أحداث اجتماعية بعينها يمكن الإشارة إليها من خلال أمثلة للروابط الشائعة فى الثقافة الشعبية: فالسلامية لإنشاد الدراويش وتجاوز الأرغول فى ارتباطه بالتقاسيم وبأساليب أداء الموال. والمزمار للتحطيب ولدورات المواكب والزفات والطنبورة للزار (زار الطنبورة) ولأغاني النوبيين، والربابة لغناء الشعراء والصاجات النحاسية الصغيرة لرقص الغوازي. والبالازا للتسحير فى شهر رمضان يضاف إليها بعض وظائف الطبول والدفوف التى عرفت بها لضبط وتوحيد الحركة وللإعلان عن الأحداث الاجتماعية المهمة. يضاف إلى ذلك روابط أخرى تقوم على المفاهيم ذاتها، مثل تلك التى تعيب

استخدام أو حيازة آلات موسيقية بعينها في المنزل، لمجرد أن هذه الآلات تخص فئة بعينها من الناس لا يصح التمثل بسلوكهم وأفعالهم؛ بينما يباح استخدام آلات موسيقية أخرى والاحتفاظ بها في المنزل، لأن مجال استخدامها يبرر حيازتها وينأى بمستخدميها عن الشبهات.

هذه التأكيدات - المتعارف عليها - لا تجعلنا ننظر إلى الآلات الموسيقية الشعبية (صناعة وهيئة ودلالة .. إلخ) إلا بوصفها ظاهرة ثقافية نشأت واتخذت أشكالاً مختلفة وفق معطيات بيئة وثقافة بعينهما. فالبينة فرضت نوع الخامات والمواد المستخدمة في تجهيز وتكوين هذه الآلات بينما وضعت الثقافة إطاراً لإمكانات التصنيع وأساليبه وصاغت تقاليد التدريب والأداء وحددت ماهية الاستخدام ودواحيه. أما البيئة التي تنتمي إليها الغالبية العظمى من الآلات والأدوات الموسيقية المصرية، فهي منطقة الوادي والدلتا، والثقافة الغالبة والممثلة لهذه البيئة هي ثقافة الفلاحين. وتستند الدراسات الفولكلورية - في تأكيدها انتماء هذه الآلات إلى ثقافة الفلاحين - إلى النتائج المستخلصة من تحليل النصوص الشعرية التي يقوم عليها الغناء الذي ارتبط بمصاحبة هذه الآلات. يضاف إلى ذلك تأكيدات النتائج المستخلصة من الدراسات التي أجريت للعادات والمعتقدات التي يقوم عليها النشاط الموسيقي في الريف، كما يضاف إلى ذلك أيضاً الكثير من الشواهد الميدانية التي يبرزها هذا النشاط الفني الحي، والتي تؤكد - في الوقت ذاته - أن هذه الآلات وأدواتها المختلفة، كانت - وما تزال - تصنع وتستخدم في إطار معطيات ثقافة الريف، سواء في بعدها الفني أو في بعدها الاقتصادي. فالمؤدون على هذه الآلات لا يشترونها من الأسواق، لأن انتشار هذه الآلات ودوام وجودها - في مجتمع الريف - قاما على أن هذه الآلات تصنع وتجهز حسب الحاجة أي أنها: آلات تفصيل، وأن الذين يقومون بصناعتها أو تجهيزها هم غالباً الأفراد الذين اعتادوا الأداء على هذه الآلات وهم - لذلك - أكثر الأفراد دراية وخبرة بمستلزمات التجهيز وأساليبه.

وإذا كانت هناك تجهيزات تحتاج إلى تقنيات أو أدوات خاصة لا تتوافر لدى العازف (مثل أعمال الخرط) فإنها لا تتم عادة إلا بإشراف العازف نفسه ووفق المواصفات الفنية وسائر الشروط التي يحددها العازف. وخارج هذه القاعدة هناك مجالات ضيقة ومحدودة يجرى فيها تصنيع وتجهيز بعض الآلات الموسيقية

لأغراض تجارية، على أن الصانع - فى المجال التجارى - لا يلتزم عادة بالموصفات والمقاييس الفنية الدقيقة التى تتطلبها الآلة الموسيقية ولا يولى أهمية كبيرة لإضافة الرموز والدلالات الثقافية المتعارف عليها فى المجال الذى تستخدم فيه هذه الآلة أو تلك إلا إذا كانت هناك توصية بذلك من قبل العازف. وللعازفين طلبات وشروط خاصة تختلف من عازف لآخر ومن منطقة إلى منطقة، كما تختلف باختلاف نوع الآلة ودواعى الاستخدام وبحسب المفاهيم الدائرة حولها.

على أن اضطلاع الأفراد - فى المجتمع الريفى - بمهمة تصنيع وإعداد آلاتهم الموسيقية بأنفسهم، لا يكشف عن التقاليد الفنية والمفاهيم المتعلقة بالآلات الموسيقية فحسب؛ وإنما يكشف - فى الوقت نفسه - عن مبدأ أساسى تعارف عليه المجتمع الريفى، وهو المبدأ الذى يظهر على وجه الخصوص المواضعات التى تقوم عليها عملية الانتاج والاستهلاك، فلا فارق جوهري يمكن أن يذكر بين المواضعات التى يجرى بمقتضاها تصنيع الآلات والأدوات الموسيقية، وتجهيز الخبز والجبن وسائر احتياجات البيت الريفى، فكلها تقوم على مبدأ واحد: «الناس فى هذا الإطار الثقافى ينتجون بأنفسهم ما يحتاجونه، يساعد على ذلك - كما هو معروف - أن نمط الانتاج الزراعى خلق بناء اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً متكاملاً كان، يوفر للأفراد مقومات الحياة اليومية.

على أن هذا القول لا يعنى - فى الوقت نفسه - أن الآلات والأدوات الموسيقية الشعبية (صناعة واستخداماً) اتخذت حالة ثابتة، فهذا القول يتنافى وطبيعة الثقافة، فالثقافة حية بخصائصها، تتغير وفق مقومات وشروط ثقافية واجتماعية واقتصادية. ومما لا شك فيه أن هذه الآلات تأثرت بما لحق من تغير فى أبنية المجتمع ولاسيما تلك المقومات التى تبدو وثيقة الصلة بالنشاط الموسيقى والنشاط الذى ينظم عملية صناعة استخدام هذه الآلات.

وبصدد آثار التغير التى لحقت بحال الآلات الموسيقية الشعبية وأدواتها نشير إلى الآلات التى اختلفت من الحياة الفنية كالربابة القدح والجمبرة والكبكب الخشبى، ونشير إلى الآلات التى ندر استخدامها فى الحياة الفنية الشعبية كالرجوج (طبل الجمال) والكاسات النحاسية الكبيرة، ومما هو جدير بالذكر أن اختفاء أو ندره استخدام هذه الآلات صاحبه اختفاء مماثل وندرة مماثلة فى الأشكال الفنية التى ارتبطت

بهذه الآلات والأدوات.

هناك صور أخرى مختلفة للتغير يتجلى بيانها فيما لحق بهيئة بعض الآلات الموسيقية، والتغير الذى لحق بهيئة الآلات لا يقف - فى حقيقة الأمر - عند مجرد الاستغناء عن جزء منها أو إضافة جزء إليها، وإنما يمتد إلى النظام الموسيقى نفسه فيتغير فيه بقدر متساو مع هذا الاستغناء أو تلك الإضافة، فالأرغول الكبير (مقاس ٢٤) وهو آلة نفخ موسيقية مجهزة من قصب الغاب، عرف فى هيئة أنبويتين يمتد طول أحدهما ليتجاوز المترين بينما يصل طول قطر كل من الأنبويتين إلى ثلاثة سنتيمترات، وعلى الرغم من أن صوت هذا الأرغول كان عنصراً مهماً ارتبط بمصاحبة أشكال غنائية لها منزلة مهمة عند الجمهور، وذات شهرة واسعة الانتشار، فإن عدد العازفين على هذه الآلة كان - وكما يقول شيوخ العازفين - عدداً قليلاً بالقياس إلى عدد العازفين على الآلات الموسيقية الشعبية الأخرى، ويعزى هذا - كما يقول العازفون أنفسهم - إلى صعوبة العزف على هذه الآلة وبسبب أن طول الأنبويتين واتساع طول قطريهما يتطلبان من العازف أن يدفع فيهما قدراً وفيراً من الهواء لكى يصدر الصوت، وكذلك بسبب تباعد مواقع الثقوب (المرصوة على صدر القصة) عن بعضها البعض، وهو الأمر الذى يتطلب جهداً كبيراً لا يقدر عليه أى عازف.

على أن الأخذ بهذه الأسباب وحدها غير كاف لتبرير التغير الذى لحق بهيئة هذه الآلة التى عرفتها الأجيال لقرون عديدة، إلا إذا أخذ فى الاعتبار أن طبيعة الاحتياجات الفنية الشعبية المعاصرة أتاحت للعازفين على هذه الآلة مجالاً للاختيار من البدائل المتاحة من الآلات الموسيقية الشعبية، خاصة وأن العازفين راحوا شيئاً فشيئاً يقللون من استخدام الأرغول الكبير ويزيدون من الإقبال على استخدام الأحجام الصغيرة منه قبل أن يطوعوا الأرغول الكبير نفسه للمقتضيات الموسيقية الشعبية الجديدة.

لقد ظهر الأرغول الكبير (مقاس ٢٤) دون الوصلة الزائدة المسماة «كم» فتساوى طول الأنبويتين وراح يروج ويستخدم فى هذه الهيئة المعروفة باسم «القرمة» وساعد على هذا الرواج أن الآلة احتفظت بالصوت ذاته الذى كان يصدر عنها مع فقدان الطبقة الصوتية الغليظة التى كانت تصدر عن قصبة «الكم» فراح الموسيقيون يستعيضون عنها بإدخال آلات موسيقية أخرى كالكمبان والعود لا لأداء الألحان

فحسب وإنما لملء المفتقد من الطبقات الصوتية الغليظة (الفرش/ باص الأرضية) التي كانت تملؤها القسبة الزائدة في زنان الأرغول (مقاس ٢٤) والمسماة «كم» وماتزال آلة القرمة تستخدم في صحبة المغنين إلى اليوم وإن كان هذا الاستخدام يتم في نطاق أنشطة موسيقية قليلة الحدوث نسبياً في الحياة الفنية الشعبية.

وبجانب الأرغول تطالعنا آلة «الطنبورة» بصور أخرى للتغير، ليس في الهيئة فحسب؛ وإنما في الأجزاء والمكونات أيضاً، وهي الهيئة المتنوعة لآلة الطنبورة والمعروفة باسم «السسمية»، حيث جاء مصوتها (أو صندوقها الرنان) في أشكال متعددة، منها الدائري والمستطيل والمربع والمعين. وفي السسمية شدد الأوتار من السلك الصلب بأعداد تجاوزت السبعة عشر وترأ بدلاً من الأوتار الخمسة التي كانت تجهز من معى الحيوان أو من النايلون، وعدلت طريقة شد الأوتار لتصبح بالمفاتيح الخشبية المخروطة بدلاً من حلقات القماش.

هذه الأمثلة (وغيرها كثير) تبين أن حال الآلات الموسيقية الشعبية (صناعة واستخداماً.. إلخ) لا تصح معالجته في عزلة عن إطاره الثقافي الذي يضمه، ففي هذا الإطار يمكن الوقوف على الآلية الخاصة التي يتم بها التغير الذي يلحق بالآلات الموسيقية الشعبية، وهذه الآلية (مهما تغيرت في إطار ثقافتها) تظل مرجعاً أساسياً ليس فقط في تفسير صور التغير الذي يلحق بالآلات وإنما - وإلى حد كبير - في تفسير أشكال التغير الذي يلحق بالعديد من العناصر والظواهر الشعبية.

أما التغير الذي يلحق بحال الآلات الموسيقية الشعبية ولا يتفق وهذه الآلية (الشعبية) ولا يتفق مع مقوماتها؛ فإنه يعزى إلى تأثير عوامل أخرى (غير شعبية) وهي العوامل التي لا تستهدف الآلات الموسيقية على وجه الخصوص وإنما قد تستهدف الثقافة الشعبية برمتها.

ثانياً: الدراسات الأجنبية

كانت طبيعة النهج والمنطلق النظرى التى قام عليها علم الموسيقى المقارن (قبل ما يقرب من تسعين عاماً) سبباً رئيسياً فى نشوء العديد من وجهات النظر النقدية التى ساهمت بصور عديدة فى تعديل الأفكار والمفاهيم التى كان ينطلق منها هذا العلم، والتى دامت حتى منتصف القرن العشرين، وخاصة تلك الأفكار التى كانت تدور فى إطار نظرية المناطق الثقافية وما تضمنته من أفكار "الارتقائية". ولا شك أن تعديل أو تغيير هذه الأفكار - وخاصة فيما يتصل بالجانب التطبيقي المقارن - قد سار ناحية تصحيح العديد من المفاهيم التى كانت ترتبط بهذه النظرة مما أدى إلى نشوء علم الأنثوموزيكولوجى الذى سعى به العلماء إلى تقديم الحضارات الموسيقية تقدماً عادلاً بعيداً عن التحيز الذى كانت تتسم به النظرة العرقية المركزية. ومع تطوير العلم فى هذا الاتجاه راح يكتسب العديد من المفاهيم الجديدة التى عدلت النظرة ونوعت من مداخل البحث. وهى الناحية التى نحاول رصدها فيما نعرض له من الدراسات التى أجريت على الموسيقى لدى المجتمعات التقليدية المختلفة. والمعروف أن طبيعة منهج العمل فى مجال الدراسات الموسيقية التقليدية (شأنه فى ذلك شأن طبيعة العمل فى أى مجال علمى آخر) يتحدد دائماً بالنتائج التى يستهدف تحقيقها ومن ثم تعددت مناهج البحث لدى الدارسين كل فيما يهدف إليه، بحيث يمكن القول إنه - خلال العشرين عاماً الماضية - ظهر العديد من الدراسات التى يمكن حصرها فى مجموعتين رئيسيتين:

المجموعة الأولى: الدراسات الوصفية التحليلية والمقارنة.

المجموعة الثانية: الدراسات فى مجال الأرشفة والتصنيف وتقنيات الجمع والتوثيق.

وهذه الدراسات جميعاً تمثلها قائمة مطولة تعد بالآلاف، وهو الأمر الذى يصعب معه التصدى لمجمل هذا العدد فى عرضنا التالى، ولذلك فإن أغلب الدراسات التى وقّع عليها الاختيار والتصدى لها فى هذا العرض (بعد تلخيصها) تمثل - فى الحقيقة - مجمل التيار السائد فى المعالجات المعاصرة التى ظهرت خلال العشرين سنة الماضية، هذا من ناحية، وتمثل - فى الوقت نفسه - أهمية خاصة من ناحية المنطلق النظرى ونوع الموضوعات التى تطرحها هذه الدراسات - والتى تمس احتياجاتنا فى حقل الدراسات الموسيقية الشعبية المصرية من ناحية ثانية.

المجموعة الأولى :

الدراسات الوصفية التحليلية والمقارنة :

« على الرغم من تعدد وتباين هذا الصنف من الدراسات - فيما يتصل بالمنطلق النظري الذي تأسست عليه - فإنها تتقارب جميعاً مع بعضها البعض وإلى حد كبير في الكيفية التي راحت تعالج بها موضوعات الموسيقى التقليدية، وتتقارب أيضاً في العديد من المداخل التي استقرت على اختيارها كركيزة منهجية ملائمة في درس هذه الموسيقى، من ذلك ملاحظة أن القاسم المشترك في أغلب هذه الدراسات راح يعطى أولوية للمدخل الاجتماعي كأحد أهم المداخل الرئيسية في دراسة الموسيقى التقليدية (أو الشعبية) . وهى النظرة التي يمكن ردها إلى منتصف الستينات من القرن العشرين والتي تعود إلى كتابات "ألن. ب. ميريام Alan P. Merriam" عن الموسيقى التقليدية الأفريقية^(١)، حيث كان يؤكد أن هناك اتجاه يعلق أهمية كبيرة على الدور الذى يلعبه النشاط الموسيقى فى المجتمع ويعتبره عنصراً متكاملاً ووظيفياً من عناصر ثقافية، وأن هذا الاتجاه يمثل سمة تشترك فيها الموسيقى مع المظاهر الجمالية الأخرى فى الثقافة، ويجرى التشديد عليها فى معظم المجتمعات التى تغلب عليها الأمية أو فى كلها تقريباً، وعلى سبيل المقارنة يذكر "ميريام" أنه فى المجتمعات الأوربية والأمريكية ميلاً إلى تقسيم الفنون إلى دوائر منفصلة وإلى عزلها عن مظاهر الحياة اليومية. وهكذا يلاحظ أن هناك اتجاهاً يرمى إلى التمييز بين الفنون "المجردة" و"الفنون التطبيقية" وبين "الفنان الحق" و"الفنان التجارى" أو "صاحب الحرفة" من حيث الدور والوظيفة. ويذهب المجتمع الغربى إلى مدى أبعد من ذلك فيميز بين "الفنانين" و"جمهور الحاضرين من المتفرجين أو المستمعين" وتكون فئة "الفنانين" فى العادة محدودة العدد إذ لا يشترك فى النشاط الفنى فى المجتمعات الغربية سوى أفراد قليلون نسبياً وأقل منهم فى نظر المجتمع هم أولئك الذين "يجيدون" أداء فنون معينة كالموسيقى والرقص. أما فى المجتمعات التى تغلب عليها الأمية فلا يوجد فى أى منها اتجاه إلى رسم مثل هذه الخطوط الفاصلة المميزة، فالفن فى هذه المجتمعات جزء من الحياة ولا ينفصل عنها، ولا يعنى هذا بالطبع أنه لا توجد مجالات اختصاص، إنما الذى يجب التنبيه إليه هنا هو

(١) ألن. ب. ميريام: "الموسيقى الأفريقية. الثقافة الأفريقية، دراسات في عناصر الاستمرار والتغير. المكتبة المصرية. بيروت. ١٩٦٦.

أن في المجتمعات غير المتعلمة أعداداً كبيرة نسبياً تجيد ممارسة الفنون، وأن ألوان النشاط الجمالي المختلفة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجملة النشاط الوظيفي، فالوظائف العادية التي تؤديها الموسيقى في المجتمعات الغربية من قبل الاستجمام ومصاحبة الرقص والخدمات التي تؤديها في الاحتفالات الدينية؛ هذه الوظائف نجدها كلها في المجتمعات غير المتعلمة. وبالإضافة إلى ذلك تستعمل الموسيقى في ظروف ومناسبات أخرى كثيرة من بينها: أن قبيلة "الهوتو" في رواندا تميز ما لا يقل عن ٢٤ نوعاً من الأغاني الاجتماعية العامة التي لا تدخل في نطاق الأغاني الدينية. وتتناول هذه الأغاني الاجتماعية موضوعات كثيرة منها ما يؤديه موسيقيون محترفون لأغراض الترفيه، ومنها ما يؤدي في مناسبات شرب البيرة أو الحرب أو تقديم الولاء للزعيم أو للصيد أو الحصاد أو الأشغال العامة ومنها أيضاً ما يؤدي للاحتفال بميلاد طفل إلخ.. ولا تختلف هذه الوظائف كثيراً إذا ما ذهبنا لذكر الأمثلة المشابهة عند قبيلة "التوتسي" في رواندا وفي غيرها من القبائل المحيطة.

« ومع مرور السنين اكتسبت هذه النظرة العديد من التأكيدات والتشديد على أهميتها في فهم الموسيقى التقليدية، فبعد مرور ما يقرب من أربعين عاماً على دراسة "مريام" يؤكد ج. هـ. كوابينا نيكيتيا (١) Nketia. J. H على أهمية معالجة الموسيقى كجزء من مجالات مختلفة من الحياة الفردية والاجتماعية المنظمة، ويدلل على ذلك بأمثله عن مجال الأسرة فيذكر أن هذا المجال دائماً ما يوفر الوسائل لإحداث الفعل الموسيقي ويصور ذلك في الأغاني المصاحبة لعمليات الدق والطحن وتهنين الأطفال التي تتفاعل من خلالها الأمهات، ليس فقط مع أطفالهن وإنما مع غيرهن في البيئة من حيث إنها تنعكس بصورة فردية على أزواجهن أو على علاقتهن بالأقارب وغير الأقارب. وبالمثل يشجع النطاق الاجتماعي الخلق (الإبداع) الموسيقي لنشاطات الجماعات المهنية مثل التجار ورعاة الماشية

١ - ج. هـ. كوابينا نيكيتيا Nketia. J. H، مدير معهد الدراسات الأفريقية بجامعة غانا (سابقاً) والآن يعمل أستاذاً للموسيقى بجامعة كاليفورنيا بولس أنجلوس، ومؤلف العديد من الكتب والمقالات عن الموسيقى والثقافة الأفريقية، من بينها الدراسة التي اقتبسنا منها بعض المقاطع والأفكار وهي بعنوان التفاعل من خلال الموسيقى "ديناميكيات العمل الموسيقي في المجتمعات الأفريقية، ترجمة أحمد رضا محمد رضا"، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية - العدد ٥٣ - السنة الرابعة عشرة. نشر: مركز ومطبوعات اليونيسكو. أكتوبر - ديسمبر ١٩٨٣، ص ٤٦.

وصائدى الطيور والحيوانات والأسماك. وعلى هذا الأساس أيضاً تخلق مطالب الحياة الدينية الحاجة إلى الموسيقى الخاصة بالآلهة أو بمختلف نشاطات العبادة وموسيقا الشعائر والجلسات المتصلة بصحة الفرد الروحية والعقلية، ومن ثم تعطى الموسيقى مكانة خاصة فى مجال العلاج، إما بذاتها وإما باعتبارها امتداداً للأعمال الرمزية المعدة لتحقيق الذات، من ذلك مثلاً أن فى بعض مجتمعات زامبيا تستخدم وسيلة لمن يشتبه فى إصابته بمرض عقلى أو أن روحاً قد تسلطت عليه، وذلك بتكليفه بأن يغنى أكبر عدد يستطيعه من الأغاني فى حين ينصت إليه بعض الأخصائيين لمعرفة سرّ علته، فإذا لم يسفر الغناء عن تهدئة العليل تؤدى الشعائر المناسبة، ويزداد النشاط الموسيقى قوة. وتستخدم هذه الطريقة أيضاً - وإلى حد ما - فى ترتيب تسلسل الموسيقيين الملكيين "أنجوما" حين يتبين أن حالة المريض ترجع إلى موسيقى متوفى... ويتابع نيكيتيا رصد النشاط فى أفريقيا فى أمثله المتعددة مؤكداً على أهمية البعد الاجتماعى للتعرف على أمثلة ونماذج هذه الموسيقى، فيؤكد أن قائمة الموضوعات الموسيقية سالفة الذكر وكذلك الأحداث والمناسبات الاجتماعية، يمكن مضاعفتها كثيراً وتطورها بأمثلة نوعية من مختلف المجتمعات دون إضافة أى شىء ذو أهمية للصورة الانتوجرافية العامة للحياة الموسيقية أو الميل لاستخدام الموسيقى لتحقيق الأهداف الاجتماعية أو الوفاء بحاجة الأفراد أو الجماعات المنبثقة عن الموسيقى؛ لأنه يتبين مما سبق أن الموسيقى - ورغم أنها متعة كبيرة لدى المجتمعات الأفريقية - فإنها ليست نشاطاً قاصراً على نظم شغل أوقات الفراغ، فالموسيقا - كما يقول - تدخل كل مجالات العمل الاجتماعى التى يتحتم فيها توثيق العلاقات بين الأفراد وتأكيداها أو إعادة توصيفها، كما تتخلل المناسبات التى تتطلب تشجيع التفاعل التلقائى، ومن ثم فالموسيقا يمكن أن تؤدى فى البيت أو المزار أو الأماكن المتاحة للجمهور كنادية الشارع أو فى الأرض المجاورة للمسكن أو فى السوق أو فى قصر الزعيم أو ساحة عامة للرقص، أو بعبارة أخرى: حينما يجرى تفاعل فى النشاط الاجتماعى بين الأم وطفلها أو بين الأطفال وبعضهم البعض أو سائر الجماعات المتمثلة أو الأقرباء أو أعضاء الجمعيات أو فى المجتمع بأسره.

، وفى سياق متقارب من هذا التحليل يصيغ "ديتر كريستينسين هذا المعنى فى

تصديه لمعالجة وضعية الموسيقى التقليدية في "صحار" بسلطنة عمان^(١). فيؤكد أنه - ومن وجهة نظر تحليلية - يجب أن ينظر إلى الموسيقى كمجموعة من الأفكار والسلوكيات، والتي لا تمثل النماذج الصوتية إلا جانباً منها، والتي تتضمن أيضاً الأخذ في الاعتبار المبادئ الثقافية/الاجتماعية. وفي حالة "صحار" يمكن أن تضم أيضاً الرقص الحركي/اللغة/استعمال الآلات/الأسلحة والأزياء. ففي المفاهيم "الصحارية" لا توجد موسيقاً منفصلة تعتمد على الصوت وحده، ومن ثم تأتي التأكيدات على أهمية تصدير المدخل الاجتماعي، خاصة وأن تحليل المعلومات التي لديه تؤكد وجود واستمرار تقاليد في غاية الثراء في مجال الفنون وممارساتها، والكفاءة عند ممارستها (كما تشير هذه المعلومات) إلى أن هذه الفنون تلعب دوراً بارزاً في التكوين الاجتماعي الثقافي الذي يساهم بفاعلية في تكيف الكيانات العرقية في بيئة صحار المتعددة الثقافات.

، ولعل أحدث تردد ما زال يستجيب لأهمية هذه النظرة "الاجتماعية" في الدراسات الموسيقية الأكثر حداثة هو ما تمثل فيما كتبه "هانز برانديس Hans Brandeis" في معالجه للموسيقا والرقص عند جماعات الأقليات في جزيرة منداناو بالفيليبين^(٢)، فيؤكد - بعد وصفه الدقيق للنواحي التي حددت توجهه الانثوجرافي في دراسة هذه الموسيقا، وبعد ذكر ملاحظاته التفصيلية عن وضع الموسيقا في الاستخدام الصوتي البشري (التصويت بالحنجرة) واستخدام الآلات استخداماً فردياً واستخداماً جماعياً- يؤكد: أن كل ملاحظاته وشواهد العينية للنشاط الموسيقي عند هذه الجماعة لا يمكن فهمها فهماً لائقاً إلا بالنظر إليها على أنها إعادة بناء للماضي. وعلى الجانب الآخر، فإن المفاهيم الموسيقية ما تزال تؤثر على الحياة الحالية الجارية عند هذه

(١) ديتو كرستينسين صناعة الموسيقا في "صحار" الفن والمجتمع في منطقة الباطنة، الوثائق الكاملة للندوة الدولية لموسيقا عمان التقليدية، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٢) هانز برانديس Hans Brandeis درس الانثوموزيكولوجي والانثروبولوجي والسيكولوجي في جامعة برلين الحرة، وهو عضو في الرابطة الفيليبينية ببرلين. وخلال ست رحلات وعلي مدار سنتين أجري عملاً ميدانياً مكثفاً عن جماعات الأقليات في جزيرة منداناو Mindanao (موسيقا ورقص الـ بوكيدنون /منداناو، مقدمة قصيرة: "Music and Dance of the Bukidnon~ S. of Mindanao A. Short Introduction".

منشورات الجمعية الفيليبينية (FAB) ١٩٩٣ - نسخة من الانترنت، قائلة: (University Libraries). Ethnomusicology Folk Music, and World Music

الجماعة، وأن جانباً كبيراً من فهم هذه الجماعة يتوقف على فهم هذه الموسيقى التي تحركهم من ناحية، وأن الكثير من جوانب هذه الموسيقى سوف يظل غامضاً وحتى على الأجيال المستحدثة من أبناء الجزيرة أنفسهم ما لم يعرف هؤلاء تاريخ التقاليد عند السلف والتي ما زالت تؤثر بدرجة ملحوظة على نمط الحياة في هذه الجزيرة رغم ضعف مقاومتها للمستحدثات التي تأتيهم من الخارج وذلك من ناحية ثانية .

، وفي منحى أكثر تحديداً لأهمية النظرة إلى المدخل الاجتماعي في تفسير الظاهرة الموسيقية يكتب "أرين ماركوف" Irene Markoff في مقدمته: "مدخل إلى الموسيقى الصوفية في تركيا"^(١) أنه من الصعب تقديم وفهم العلاقات التنظيمية المتبادلة بين مراحل التدرج في البعد الروحاني (عند الصوفية) وكذلك مراحل العمل الخارجي التي تجري في أشكال الأداء؛ دون فهم عميق للدينامية التي تقوم عليها هذه العلاقة، ومن ثم يجب فهم الهيكل النظامي الذي يشكل سلسلة المعتقدات عند الجماعة الصوفية في تركيا من ناحية، وفهم مظاهر التعبير العاطفي التي يشدد عليها وتجسد في أشكال الأداء كجزء من المراسيم الطقوسية عند هذه الجماعة .

، ويذهب مايكل فوئشكوب Michael F. إلى توسيع النظرة إلى نسق العلاقات التي توجه الجماعة وتحدد أوجه نشاطها الظاهر. ففي دراسته للطرق الصوفية في مصر ١٩٩٩^(٢) يرد نسق العلاقة التي تحكم الجماعة إلى الخلية الأولى المكونة لها وهي "الفرد" وذلك في محاولة تحليلية لاستكشاف العلاقة الجدلية بين الفرد

(١) ١ - أرين ماركوف Irené Markoff من جامعة يورك - Introduction to Sufi Music and Ritual in Turkey. نشرة جمعية الدراسات الشرق أوسطية ديسمبر ١٩٩٥ Middle East Studies Association. (من الانترنت، مصدر السابق).

(٢) مايكل فوئشكوب Michael F. أداء اللغة كطريقة للوصول إلى الهدف، دراسة مقارنة للطرق الصوفية في مصر، - "Language performance as an Adaptive Strategy: A Comparative Study of Sufi Orders in Contemporary Egypt"

أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس سنة ١٩٩٩ ولم يتمكن من الاطلاع على نسخة من هذا البحث لأنه لم ينشر بعد. أما المعلومات الموضحة عن منطلق هذا البحث وفهم المعالجة، فقد تحصلنا عليها من الباحث نفسه في لقاء معه في منزلنا بالعباسية مساء الأربعاء الموافق ١٧ / ٧ / ٢٠٠٢ وذلك أثناء زيارته للقاهرة .

والمجموعة، من ناحية وإثبات الكيفية التي يتمثل فيها كل منهما دور الآخر في مواجهة المواقف المختلفة من ناحية ثانية. وفي ذلك يستند "مايكل" إلى نظرية بيير بوردييه P. Bourdieu التي تركز على تفسير الكيفية التي يتصرف بها الأفراد في المواقف المختلفة حيث إن هذه الكيفية (أو الكيفيات) هي التي تنتج التاريخ في نهاية الأمر. فيقول إن الفرد له دور لكنه ليس حراً حرية مطلقة لأنه حبيس محدودية الاحتمالات الخاصة به، مثال ذلك أنه من المستحيل أن يتواجد الفرد في مكانين في وقت واحد لأن هناك قيود بيولوجية وفيزيائية، وفي المقابل توجد قيود اجتماعية، هذه القيود يمكن أن تأتي بأمر سلطوي، ومع ذلك هناك أيضاً عوامل داخل الفرد (الوجدان) يتشكل فيها التيار الاجتماعي الكلي، وهذه العوامل ليست دائماً مقصودة أو متعمدة، لكنها تأتي فيما يمكن تسميته "بالاستراتيجيات" التي يتسلح بها كل فرد في مواجهة أي موقف. كذلك ليست الأبنية الاجتماعية وحدها هي التي تعمل، تماماً مثلما أن الفرد وحدة لا يملك التأثير، إنما البناء الاجتماعي هو الذي يحكم الفرد، والفرد مع مجموعة الأفراد هم الذين يشكلون الأبنية الاجتماعية. ويتساوى هذا المثال مع النظرة للتفسير التاريخي للمجتمع (كما هو عند ماركس) هذا التفسير ليس وحده المحرك، كذلك مجموعة الاعتبارات النفسية (كما هو عند فرويد) ليست وحدها المحرك، وإنما كل هذا. ويقدر محسوب -ينشئ الأفعال لمواجهة المواقف...، ويتابع "مايكل" تفسيره لهذه العلاقات، فيؤكد - في حديثه عن دور الفرد: أن الفرد - ويسبب أن لديه مجموعة من الكيفيات أو الآليات (بسبب التأثير التراكمي للمجتمع)، ليس مضطراً إلى إبداء تصرف أو رد فعل بعينه وإنما لديه المرونة لكي يغير أو يعدل أو "يلعب" أو يراوغ لاختيار الفعل الذي يراه ملائماً للموقف، وتختلف هذه الاستراتيجيات من مجتمع إلى مجتمع آخر.

لكن ما هي الدوافع التي تكمن وراء هذا كله؟ يقول "مايكل" "أن لدى بيير بوردييه "تفسيراً مكون من فكرتين. الفكرة الأولى: تزويد الفرد بما يسمى (رأس المال Capital). رصيد اجتماعي أو رصيد ثقافي أو فني أو مالي أو رصيد من الوجهة الاجتماعية أو ما نحو ذلك. وكل رصيد من هذه الأرصدة يتحقق وفق شروط بعينها وليس بأية وسيلة مع وجود الحرية التي تتفاوت من فرد إلى فرد آخر. والفكرة الثانية: هي فكرة "المجال field" حيث يتصور "بوردييه" "أن المجتمع تحكمه مجالات

متعددة وأن على الفرد أن يراعى تقاليد كل مجال يدخل إليه، والفرد قد يتصرف بمرونة وبذكاء اجتماعي لا يعرضه للانتقاد، وهو - في الوقت نفسه - قد أعطى للمجال حقه الاجتماعي، وكل هذا ليس في الوعي المقصود وإنما هو في الوجدان التلقائي، بمعنى أنه ليس في كل الأحوال فاعلاً أو لاعباً مزيفاً. ومن هنا تأتي أهمية النظرة إلى الفعل أو رد الفعل معتمدة على الآليات وعلى الرصيد وعلى المجال.

على أساس هذه النظرة انطلق "مايكل" يعالج وضعية الطرق الصوفية في مصر. مركزاً على الذكر، وحاول تحليل مكوناته تحت مسمى "اللغة" لأن اللغة أساس في الحضرة وأنها الرموز الوحيدة أو شبه الوحيدة عند المسلمين (على خلاف الطقوس في الكنيسة التي تعتمد على الشموع والملابس والمباخر والاكسسوارات.. إلخ) كما أن اللغة مركزية في الحضرة (وعاء للأفعال والإجراءات المهمة) ولاحظ "مايكل" أن هناك اختلافات بين الطرق الصوفية وبعضها البعض من ناحية استخدام اللغة / الأداء ولاحظ أيضاً أن هناك اختلافاً في التنظيم الاجتماعي والصوت وسرعة الإيقاع من جميع نواحيه.

ويطرح "مايكل" تساؤلين رئيسيين. الأول: عما إذا كان صحيحاً أن الدوافع ترجع إلى الآليات التي يستخدمها الأفراد (كما يقول بوردييه) وإذا كان الأمر كذلك فكيف إذا تفسر الاختلافات القائمة بين الطرق الصوفية وبعضها البعض؟ (مع ملاحظة أن هناك أشياء متوارثة تتواجد إلى اليوم، ليس بسبب أن لها وظيفة، وإنما يبدو أن وجودها استمر بسبب ما يمكن تسميته "قوة الدفع الأولى"). أما السبب الثاني فيتعلق بسبب تواجد الأفراد في الحضرة، هل هو بسبب الرغبة في زيادة "الرصيد" الديني، أم أن الأبنية الاجتماعية هي التي تفرض هذا التواجد على الأفراد؟

وللبحث عن إجابة لهذين التساؤلين حاول "مايكل" توسيع مفهوم "الآليات والكيفيات" لأنه يرى أن هناك نهج (أو مصلحة مشتركة) لمجموع الأفراد تزود كل واحد منهم بناحية معينة (رصيد) وبذلك يمكن أن نرى المجموعة وكأنها فرد واحد، أي أنه يمكن أن نرى الآليات أو الكيفيات (الموضحة سلفاً عند بوردييه) وكأنها آلية جماعة في فرد واحد، لأن الجماعة - في هذه الحالة - لديها: المجال + الرصيد + الكيفيات أو الآليات (أي الكل X واحد) ويسرى هذا بالطبع على المجموعة الموحدة

وليس على كل أو أى مجموعة أفراد. وبذلك لو نظرنا إلى عمل الطريقة الصوفية فى الذكر، وجدنا أنها تفعل شيئاً منطقياً فى المجتمع أو فى "مجال" العمل الصوفى بغرض تزويد المكانة "الرصيد". ويمكن تفسير هذا على أن الطريقة - ككل - بمثابة فرد واحد. من هنا يفسر "مايكل" كيف عمل فى توسيع نظرية الكيفيات أو الآليات وتطبيقها على الذكر فى الطرق الصوفية فى مصر، مع تأكيده الدائم (فى حديثه المتواصل) على أنه ليس ضرورياً تطبيق هذه النظرية على كل مجموعة وكذلك على كل فرد أو على كل طريقة صوفية.

، وثمة منحى آخر فى الدراسات التحليلية يعنى بالعناصر والتراكيب الصوتية فى الموسيقى تحت تسمية "بضمة الصوت" وهو الاتجاه الذى ظهرت فيه عدة كتابات مهمة للعالم الأمريكى مانتيل هود Mantle Hood، (١) آخرها ما جاء فى الوثائق الكاملة للندوة الدولية لموسيقا عمان التقليدية والمشار إليها فى مواضع متعددة فى هذا العرض. وتدور كتابة Hood فى هذا الموضوع حول تلك الظاهرة التى يمارسها الإنسان كل يوم وبشكل عادى وهى ظاهرة التعرف على أحد الأصوات، وكيف يمكن تطبيقها للتعرف على نوع معين من الموسيقى، فإذا صح التقدير فإن المغزى الواضح له: أن الثانية أو الثانيةين المطلويتين للتعرف على صوت موسيقى مألوف للأذن لا تكفيان لإمكان التعرف على أنماط لحنية وإيقاعية أو هارمونية، ولكن العينة الموجزة كانت كافية لتأسيس الأنماط المميزة "للغلاف الصوتى" الكامل بكل ما يتألف منه من العناصر (الباراميتتر) الأحد عشر أو تزيد، وهى التى يتم تحديدها بعد ذلك خلال الدراسات العملية، ومن أبرزها بطبيعة الحال المجال الجزئى للذبذبات والبدائية والصعود، والزمن والتراجع وغير ذلك مما يتطلب وزناً دقيقاً.

وكلما أمعنت النظر فى إمكانات اكتشافات العرض الرنينى Sonographic المستمر طوال الوقت، كلما زاد الاقتناع بأن المجال الجزئى للأصوات التوفيقية Partial Spectrum هو أخطر جوانب التحليل الموسيقى وأقلها حظاً فى البحث، وحتى قبل أن يتاح النموذج ج لجهاز الميرلوجراف لإجراء الاختبارات، فقد تبينت وجهة

(١) مانتيل هود Mantle Hood: "بضمة صوت الموسيقى التقليدية العمانية" (الوثائق الكاملة للندوة الدولية لموسيقا عمان التقليدية - الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٧٩).

النظر القائلة بأن هذا البعد فى التحليل الأسلوبى يجب أن يكمل الطريقة التقليدية للتحليل الميلودى والهارمونى والإيقاعى، والتي كانت تعتبر أساس البحث الموزيكولوجى فى كل مكان، ولا ضرورة للإشارة إلى أن هذا الاقتناع قد لا يتقبله بعض الباحثين الذين تدربوا بالطرق التقليدية من علماء الموزيكولوجى، والذين ورثوا عن أساتذتهم مناهج مقدسة فى مجال الدراسات التحليلية مستقاة عن أوروبا القرن التاسع عشر.

وفى ذكر المناهج يقرر هود بوضوح أن دراسات الاثنوموزيكولوجى بمناهجها التقليدية ليست كافية بل هى قاصرة، فهى قائمة على موقف ثقافى متحيز يعتمد على مقارنة تاريخية موروثه عن القرن التاسع عشر، وأن كثيراً من الذين يعملون فى هذا الحقل مطلعون بلا شك على أنه كانت هناك تحديات ناجحة للمناهج التقليدية التى استخدمت لكتابة المخطوطات الأصلية، وقد نتج عن ذلك أن أعطى لبعض مؤلفات أحد المؤلفين تاريخ ومصدر أصلى Origin وضعها فى فترة أو مرحلة أسلوبية مختلفة من حياة ذلك المؤلف.

إن اللحن والإيقاع والهارمونية والبناء الموسيقى والطريقة والصيغة وغير ذلك من الاعتبارات التقليدية، هى التى يرجع إليها فى محاولة فهم ذلك السجل الصامت وهو المخطوطات التى سطرها المؤلف قبل اختراع الفونوجراف. ولكن شيئاً مثل علامات مائية على ورق المخطوطة "وهو عنصر غير موسيقى بالمرّة" أمكن أن يفصح قصور الفهم للخصائص المميزة للمراحل السنية أو العمرية فى حياة مؤلف موسيقى.

ومن حسن الحظ أن موضوعات دراسات موسيقى الشعوب (الاثنوموزيكولوجى) - على عكس المخطوطات - مليئة بالحياة، فهى تصدر أصواتاً موسيقية وتقدم بصمات صوتية، مما يضيف بعداً أكمل لدراسات الأسلوب الموسيقى أكثر مما يمكن الحصول عليه من دراسة المخطوطات الموسيقية الخرساء.

ويستعرض هود التجارب التى تمت فى مجال التحليل الصوتى موصفاً أنواع الأجهزة والأدوات التى استخدمت فى التحليل مناقشاً الفروق والأفضليات من واقع النتائج التى استخلصها الباحثون الذين عملوا بهذا المنهج. لكن ما هو التحليل الصوتى على وجه التحديد؟ وما هى التأثيرات المتضمنة

فيه، لأنها قد تؤثر على الأسلوب الموسيقى كما فى مفاهيم مثل بداية العزف Attack وزمن الصعود Rise time، أو الأصوات التوافقية Partials أو التلاشى Decay والتراجع Release وغير ذلك من المقاييس الأحد عشر، وهل من الضرورى على المشتغلين بالتحليل الموسيقى أن يبدؤوا فى إدراج واستخدام هذه الظواهر ضمن عدتهم فى تناولهم للدراسات الأسلوبية؟ يقول هود: نعم هذا هو المطلوب. وهذا هو ما تضمنته مقالة روبرت كوجان Robert Cogan القاطعة ونحن الآن بصدد إجراء وزن وتقييم لهذه الظواهر الموسيقية (وربما لظواهر أخرى إضافية) ولا شك أن بعض تلك الظواهر أكثر تحديداً وتميزاً وربما تفرداً كجوانب للأسلوب الموسيقى عن غيرها أو لى نمضى نحو إرساء معايير الوزن فإنه من الضرورى أن نتبع "وصفة" معينة Prescription أو أكثر فى العينات، وبالإضافة إلى ذلك فإن نقص الموارد اللازمة والملائمة لهذه العينات تظل عقبة. وفى كل الحالات يستطيع جهاز Sempod أن يظهر فى طبعة واحدة Printout الغلاف Envelope والبناء التوافقى Partial Structure (صونوجرام) والذبذبة Frequency وهذا العرض المركب هو الذى كان يشير إليه هود باسم "البصمة الصوتية". لقد اختار "جيورياتى" فى عرضه عن آلات الريشة المزدوجة الذى قدمه فى "فانكوفر" سبعة من المقاييس Parameters الإحدى عشر المذكورة

- ١ - أقصى النطاق (مقدار الكيلو هيرتز KHZ)
 - ٢ - المدى الكلى أو الجزئى للأصوات التوافقية.
 - ٣ - خط الطبقة الصوتية الثابت أو المتذبذب.
 - ٤ - الغلاف المحكم أو الغائر.
 - ٥ - المدى الزمنى للصعود.
 - ٦ - المدى للإنطلاق أو التراجع.
 - ٧ - الطبقة الصوتية الصاعدة أو الهابطة أو المنحنية فى طريقة بدء العزف.
- ولقد تكرر كذلك أن هذه المقاييس وغيرها لا زالت فى دور المزيد من الاختبار. كما أكد "جيورياتى" على ضرورة توسيع العينات، ولكنه انتهى إلى أن كلاً من طريقة العزف وبناء الأصوات التوافقية هما من المقاييس الأساسية، وقد سعى هود إلى الاستمرارية والانتظام فى جلب العينات المختارة من شرائط تسجيل الفيديو التى

قام بها الدكتور يوسف شوقي بتسجيلها بواسطة:

- ١ - انتخاب مقاطع غنائية من المغنيين ملتزمة بنفس النطاق الصوتي.
- ٢ - قصر العينات في حالة عازفي المزمار على نفس المنطقة الصوتية للآلة وفي كل الحالات كان هود يختار مواضع في التسجيلات خالية من الأصوات غير المتصلة بالإطار الأصلي.

وفي الدراسة التالية للبصمات الموسيقية العمانية أجرى هود مقارنة موجزة بين نموذجي عازفي المزمار العمانيين وبين نماذج أخرى من:

١ - المزمار المصري.

٢ - الزورنا التركية.

٣ - آلة الهيشيريكى اليابانية.

٤ - آلة الآبوا الأوربية.

وكانت النتيجة:

- أن البصمة الصوتية لكل عازف متميزة (وذلك في النموذجين العمانيين ١، ٢).
- أن هناك وجه شبه بين المزمار العماني والمصري.
- أن آلة الزورنا التركية والهيشيريكى اليابانية والآبوا الغربية تختلف عن نوعي المزمار ولكنها تنتمي لأسرة الآلات المزدوجة الريشة.

ومن خلال هذه الملاحظات هل يمكن القول إن بصمات المغنيين العمانيين والعازفين فريدة من نوعها وتخص سلطنة عمان، وأنها تختلف عن التراث المشابه في دول الخليج العربية أو أنحاء أخرى من الشرق الأوسط؟

كلا، لكن الذى يؤكد هود أن البصمات الصوتية - كما يدل عليها هذا المصطلح تخص الموسيقيين الأربعة المذكورين، لكن وبخصوص ما إذا كان في الإمكان تحديد ملامح للتراث الموسيقى السائد في أنحاء دول الخليج تتفرد به سلطنة عمان ويميزها عن غيرها؟ هذا سؤال مختلف، لكن بلا شك هناك - وكما يقول هود - آمال أوسع لدراسة الأساليب الموسيقية يعطيها التحليل الصوتي وهي أكثر من مجرد التعرف على موسيقيين معينين، فاحتمالات الدراسات الأسلوبية والتصنيف لا حدود لها إذا ما توافرت لها الإمكانيات.

، وفيما يخص الدراسات المقارنة أتيح لنا الاطلاع على ملخص الدراسة التي

أعدها هامورى فريد Fred Hamori (١) والتي اعتمد فيها بداية على ملاحظات (دى ياكسيونج Du Yaxiong) التى سجلها منذ ٢٥ عام، وتعود إلى فترة دراسته فى المرحلة الثانوية حيث كان يعزف على آلة البيانو بعض المقطوعات لـ: (كودالى) وكان من بين هذه المقطوعات ما يعود إلى مرحلة قديمة فى تاريخ الموسيقى المجرية، فأصابه الاندهاش، إذ بدا له أن ثمة شيء مشترك فى كل من الموسيقى المجرية التى يعزفها والموسيقى الموجودة فى إحدى المقاطعات بالصين. ولما تخرج ياكسيونج من الجامعة وصار يعمل فى مجال الاثنوموزيكولوجى؛ بدأ يفتنه أكثر فأكثر إلى وجود صلة (علاقة) بين الأغاني الشعبية المجرية القديمة والأغاني الشعبية عند الأقلية التركية التى تعيش فى الصين... ويقول هامورى إنه -وطبقاً لأبحاث بارتوك، وكودالى- استطاع التعرف على خصائص الأبعاد الصوتية فى الأغاني المجرية وإنه وجد هذه الخصائص فى الموسيقى عند الأقليات التركية فى الصين، وجاء ذلك قياساً على المعلومات المتاحة التى تفيد بأن ثمة صلة تتعلق بأصول اللغة المجرية واللغة التركية القديمة. وقد تمادى هامورى فى المضى بالبحث فى هذه الوجهة فوجد تعدداً لمظاهر التشابه فى هذه الموسيقى منه على سبيل المثال: أن الإيقاع الأخير القصير والأول الطويل (وهو الأسلوب الشائع فى الأغاني الشعبية المجرية) له مثيل مطابق فى الأغاني الصينية، كما أن الأسلوب الإيقاعى السائد فى كل من الأغاني المجرية وأغاني الأقلية التركية فى الصين يعتمد على تشديد النبر فى لكنة الكلمات فى كل من اللغتين، فضلاً عن التشابه الذى لاحظته فى الخواص المتعلقة بالنغمات ودرجات السلم. ويعتقد هامورى أن هذا التشابه ربما يعود إلى تاريخ الأغاني المجرية التى جاءت مع المجريين الأوائل من المناطق الشرقية التى جاءوا منها (هنغاريا) وفى اعتماده على الدراسات التى قام بها كودالى يذكر: أن فى المنجر ١٣ أغنية شعبية بلغة مارى ١١ أغنية بلغة تشاف وأغنية واحدة بالجير، ويؤكد على خاصتى الرتابة والتكرار بوصفهما عوامل لإثبات التشابه وكنتيجة لبحثه أيضاً. ويذكر أن كودالى لم يفسر أى شيء يتعلق باحتمالية ما إذا كان الـ: تشاف والجير كانوا يتكلمون اللغة التركية رغم أنهم عاشوا تحت تأثير قوى لهذه اللغة منذ

(١) هامورى فريد أصول الموسيقى المجرية The Origin Hungarian Folk Music, 1985، (من الانترنت، مصدر سابق).

١٠٠٠ أو ١٥٠٠ سنة. وهنا يمكن الاعتماد على تأكيدات بارتوك في أن الأغاني الشعبية لمارى تتشابه مع الأغاني الشعبية التركية. ولا تؤكد دراسات كودالى على أي شيء مشترك بين فينو واجريان. أما بارتوك نفسه فقد انشغل بالبحث في الأغاني التركية وأثناء زيارته القصيرة لتركيا سنة ١٩٣٦ جمع ما يقرب من ٨٧ أغنية شعبية، عشرون منها متشابه مع الأغاني المجرية، وهذه النسبة (٤٠٪) مهمة جداً، فقد أشار بارتوك في نتيجة بحثه، أن لهذا الاكتشاف مغزاه، خاصة وأنه يظهر أن للموسيقا المجرية والتركية أصل واحد يعود إلى منطقة آسيا الوسطى والمناطق المحيطة بها.

وطبقاً لتأكيدات دى ياكسيونج فإن التشابه بين اللغتين التركية والمجرية يجعلهما أحد مصادر هذه الأغاني ومن جانب آخر فإن لغة المغول تتشكل هي أيضاً من أحد فروع اللغة التركية (وهو ما يسمى أحد فروع اللغة الطانية بالأورال والتي يعود إليها أصول المجرين). ولأن المغول تركوا شمال الصين من زمن واتجهوا نحو الغرب؛ فإن التأكيد يزداد ليس فقط على وجود سمات مشتركة بين الأغاني الشعبية المجرية والأغاني الصينية، وإنما أيضاً على اعتبار الأغاني المغولية أحد المصادر المهمة للأغاني المجرية.

المجموعة الثانية

الدراسات فى مجال الأرشفة والتصنيف وتقنيات الجمع والتوثيق.

« على الرغم من تطور أساليب التسجيل والتوثيق فى مجال الدراسات الفلكلورية؛ فإن العالم ما يزال يذكر فضل هذا الجهاز العجيب الذى سُمى بـ: الفونوغراف^(١). وعلى الرغم من أن فكرة التسجيل الصوتى والمرئى شهدت بدورها تطوراً يدعو إلى الاندهاش والتفاخر؛ فإن هذه الفكرة ما تزال تصطدم بمشكلة أساسية تواجه العمل العلمى وهى أن وسيلة التسجيل - ومهما كانت درجة جودتها - لا يمكن أن تحل محل الملاحظة الميدانية للباحث.

من هنا تقوم الدراسة التى أعدها أرتور سيمون Artur Simon^(٢) حول أهداف ومشاكل توثيق الموسيقى التقليدية^(*). إن التوثيق جزء من البحث الميدانى باستثناء التسجيلات التى تتم داخل الاستديوهات أو التسجيلات التى تتم خارج السياق الثقافى مع المؤديين. إن أقدم التسجيلات التى قام بها الأرشف الفونوغرافى ببرلين (الآن قسم دراسة موسيقا الشعوب بمتحف دراسة الموسيقى العرقية) ينتمى لهذه الفئة وهذه التسجيلات عبارة عن أسطوانات من الشمع لعروض موسيقية قامت بأدائها فرقة موسيقية اشتهرت فى برلين سنة ١٩٠٠، ويرجع تاريخ واحد من أقدم التسجيلات الميدانية - التى تمت فى أفريقيا - إلى أكتوبر ١٩٠٢، عندما سجل اللغوى الألمانى كارل مينوف Carl Meinhof لاثنتين من الموسيقيين فى تنزانيا كانوا يعزفون على الإكسليفون المزود بأحد عشر مفتاحاً. وللمقارنة هناك تسجيلات حديثة للأداء على الإكسليفون أيضاً قام بها جيرالد كوبك Cerbard Kubik سنة ١٩٦٢ فى موزمبيق. وهذا الإكسليفون له خمسة مفاتيح ويعزف عليه اثنان من الموسيقيين أيضاً، وقد تم تصوير هذين العازفين تصويراً فيلمياً صامتاً من قبيل المساعدة كوسيلة لتحليل حركة

(١) يعود الفضل فى اختراع هذا الجهاز إلى العالم إديسون Thomas Edison سنة ١٨٧٧.

(٢) أرتور سيمون: أهداف وتوثيق الموسيقى التقليدية (الوثائق الكاملة للدورة الدولية لموسيقا عمان التقليدية) الجزء الثانى، مرجع سابق، ص ١٠١.

(*) نظراً لأهمية الأفكار التى وردت فى هذه الدراسة ولتسلسلها المتلاحق؛ عمدنا إلى اقتباس مقاطع مطولة منها حتى لا نخل بالمعاني ووجهات النظر الواردة بها، وبصرف النظر عن رأينا فيما تضمنته هذه الدراسة فى بعض أفكارها.

ذراع العازف. وكنتيجة لهذا التحليل أمكن التوصل إلى ترتيب سلم جديد للبناء الموسيقى، وعليه فإننا اليوم نستطيع أن نميز نوعين من الدراسة الموسيقية العرقية:

- ١ - توثيق الخلق (الإبداع) أو التكوين الموسيقى مجرداً.

- ٢ - توثيق الموسيقى والرقص في مجراهما وسياقهما الثقافي مع التأكيد على أن توثيق الرقص يمثل التغير الوضعي البصري للحركة الموسيقية.

إن النوع الأول يتناول ترتيب العملية الموسيقية بينما يتناول النوع الثاني معانيها، وأن التركيب والمعنى يستخدمان هنا بمفهوم أوسع منه في مجال اللغويات، فتدل كلمة تركيب Syntax على التركيب الموسيقى وكلمة Sematic على التركيب الموسيقى في مجاله الثقافي.

وإذا ما أخذ في الاعتبار الوثائق التي تم نشرها والمواد التي يحتفظ بها الأرشيف؛ فإن غالبية الوثائق تصلح للبحث في التركيبات البنائية بينما يساعد بعضها فقط كمقدمة في البحث الميداني المعنى.

وإذا نظر إلى أفلام الدراسة الموسيقية العرقية التي أعدها المعهد العلمي للفيلم في جوتنجن Cottingen بألمانيا سنجد - وكما يقول أ. سيمون - أن هناك علاقة تقديرية بنسبة ١:٣ بين التركيب والمعنى، وقد توجد نسب متشابهة في مطبوعات الدراسة الموسيقية العرقية، قد تبدو في حالات كثيرة أنها تتناول مشاكل التركيب في حين أنها في الحقيقة مقصورة على مجرد شرح ووصف العناصر الميكانيكية للتركيبات الموسيقية (تكنيك الأداء).

أما التساؤل: لماذا بنيت هذه العناصر بطريقة معينة؟ فإن الإجابة عليه ما زالت مرتبطة بمشاكل التوثيق المستقبلية، وهذا يعني أن الصلة بين التوثيق والمعنى هي إحدى المشاكل الرئيسية اليوم وهي أكثر من الصلة بين المجتمع والموسيقا كما يحبزها نيكيتيا رغم أن هذا الإجراء أهم من التحليل للمعنى.

ولا يمكن لأحد أن ينكر بشكل قاطع أن الظاهرة التي يسميها المشتغلون بالموسيقا هي ظاهرة عالمية - ولأن لهذه الظاهرة معانٍ مختلفة في الأنظمة الثقافية المختلفة - يذهب سيمون إلى تفضيل الحديث عن السلوكيات والأنشطة المختلفة - سواء أكانت منتجة أو باعثة على الإدراك - خاصة وأن لها محتويات مختلفة في المعاني والقيم بالنسبة للثقافات المختلفة وهذه المعاني والقيم جزء مما يسمى النظام

الصوتى وهو تركيب السلوكيات الموسيقية كإجمالى للأنشطة الموسيقية .
والهدف الحالى من دراسة الموسيقى هو البحث فى النظام الصوتى فى جميع
الثقافات ثم المقارنة بين الثقافات المتبادلة من حيث عناصرها وعلاقاتها المتداخلة .
إن البحث فى التباين الثقافى يؤدى تلقائياً إلى مقارنتها ببعضها البعض ، هذا إذا لم
يستطع المرء أن يحدد وجهة نظر نسبية ، وحتى هنا ، حيث لا تعقد مقارنة على
مستوى عالمى ، فإن نظاماً آلياً لمدى نسبى يؤثر تلقائياً على الباحث ورجل الكاميرا
والمصور والآخرين مهما كانت الثقافة التى ينتمى إليها أى منهم .

إن توثيق الموسيقى والرقص من خلال هذا التركيب يجب أن يحقق هدفين :
الأول أن التوثيق ليس مقصوراً على ميدانى التركيب والمعنى للثقافة الموسيقية ،
فإنه فى كثير من الأحيان يعمل الباحث الخارجى لصالح مجموعة من الناس ذات
اهتمام بالموسيقى ولكنها خارج الثقافة ، لكن المسألة هنا هى التوثيق والحفاظ على
التقاليد المنقولة شفويّاً من أجل سلامة هذه الموسيقى .

الثانى : أن أى شخص يشترك فى توثيق الموسيقى التقليدية يجب أن يتنبه إلى
بعض المشاكل الرئيسية ، فعالم الدراسات والثقافة الموسيقية يسجل الأحداث الموسيقية
والأنشطة والتتابع والسلوكيات ، وكل صوت أو تسجيل فيلمى ما هو إلا جزء من هذه
التسجيلات وربما تكون المتتاليات التى يسجلها أكثر أو أقل تنوعاً ، وهناك متتاليات لا
يمكن أن تتكرر بالطريقة نفسها ، ومن المهم معرفة ذلك لأن المادة المسجلة ربما
تستخدم بعد ذلك فى عملية نسخ طبق الأصل تؤدى إلى مشاكل فى التحليل والترجمة .
والمادة المسجلة تحمل خطر التثبيت للنسق المتغير وتحويلها إلى أنماط واحدة من خلق أو
ابتداع الباحث ، وهذا مخالف تماماً لعمل المؤرخ الموسيقى المتمسك بالتقاليد والذى
يدرس المؤلفات المطبوعة ، فإن الحدث الموسيقى - غير المتغير - هو هدفه الأمثل ، أما
نحن فإن حدثنا أو خبرنا اليومى هو التغيرات الكثيرة للشيء نفسه .

ويختلف الأداء الموسيقى اختلافاً يستحق الاهتمام باختلاف الثقافات ، ومن أهم
أسباب ذلك هو الإحساس الأساسى بمختلف الأبعاد الزمانية ، فالزمن عامل رئيسى
للنظام الصوتى وتنسحب أهمية هذا على الأداء والتوثيق ، والتحليل للتقاسيم والموال
والمقام فى الموسيقى العربية والراج والآلاب Alap, Rag فى الموسيقى الهندية ، فعلى
سبيل المثال يمكن لأداء التقاسيم أن يستمر لمدة دقيقة واحدة أو لمدة ساعة أو لمدة

نصف ساعة وفق الظروف، وهناك عوامل مهمة أخرى وهي الآراء المختلفة بالنسبة للمسافة بين النغمات مضافاً إلى ذلك العادات المختلفة للاستماع.

إن التوثيق الفيلمي أو التوثيق بالفيديو لهما مشاكلهما الخاصة وهناك آراء مختلفة فيما بينها حول قيمة هذه الأشكال من الوثائق وأحد هذه الاختلافات أن كلاً منها مبدئياً -بصرف النظر عن أن يكون قصيراً أو ذا نوعية رديئة- ويعتبر بشكل أو بآخر وثيقة قيمة وربما له بعض الأهمية أحياناً لشخص ما، وأن حجة العالم الذي يؤيد هذا الرأي هي أن وجود وثيقة مثل هذه من ثقافة منقرضة تكون ذات قيمة حسية.

ووجهة النظر الأخرى هي أنه لا يوجد فيلم حتى لو كان متيناً وجيد الصنع يستطيع أن يعيد إنتاج الأحداث الحقيقية خاصة في سياق معناه. والمسألة مسألة تفسير لمدى الاعتماد على تلك الوسائل وإلى أى مدى يمكن أن تفقدنا إلى فهم أفضل للثقافات.

إن الوثائق السمعية البصرية مهمة إذا هدفت إلى ما يسمى بالدراسة البشرية للسلوكيات الموسيقية، وهذه التسجيلات تصنف وتحلل الأنشطة الموسيقية وفق: أسبابها/ أغراضها/ سلوكها الاجتماعي، وإذا ما كانت مناسبة للتعبير عن القيم الثقافية والاجتماعية والمراتب الاجتماعية للمؤدين.

ونعود لنتبين الفرق بين ما يسمى بالتحليل الداخلي والتحليل الخارجي وكلاهما يتطلب أنواعاً خاصة من التوثيق، ويستطيع كلاهما أن يستخدم النسخة للحدث الموسيقية كوسيلة توصيفية وهنا يمكن حل مشكلة التحليل الخارجي بواسطة التحليل الداخلي وبيداً بالعملية الداخلية لأداء موسيقى أو لحركة من الراقصين أو حركات المصفيقين بالأيدى. ويحاول المحلل الخارجى أن ينسخ الحدث الفنى ككل أثناء الاستماع إليه من خلال السماعات التى يضعها على أذنيه وبعد ذلك يحاول أن يبحث عن التركيب الداخلى لهذه المتتالية. وعلى النقيض يبدأ المحلل الداخلى بالتركيب الداخلى للأداء الموسيقى بمعنى أن يبدأ بأجزائه المختلفة، وكيف يتم عزف أو أداء العناصر المختلفة، ثم تجمع هذه العناصر بعد ذلك فى صورة متكاملة. وليس من المستغرب أن يتم هذا عن الطريق الفيلمي أو الفيديو.

ويعتبر التسجيل الصوتى المرئى فى بعض الحالات أفضل من الملاحظة المباشرة لأن من الممكن إعادة عرضه وتطبيقه فى قوالب منفردة.

إن معظم الوثائق الخاصة بالمعنى هي تسجيلات بيئية وليس من الضروري أن توفى بحاجة دارس الموسيقى الذى يبحث فى البناء التركيبى للأداء الموسيقى أو أنماطه النغمية. فى هذه الحالة من الممكن إعداد تسجيلين: واحد يتم أثناء العرض الحى، وإذا كان ضرورياً يتم إعداد آخر فى مكان هادئ أو حتى داخل الاستوديو، وهذا يعنى أننا لا نعتقد أن تسجيل المواقف البيئية الحية هو الشكل الوحيد المقبول، ولكننا نعتقد فى الوقت نفسه أنه يأتى فى المرتبة الأولى لأن الموسيقى جزء من الأصوات البيئية لثقافة ما.

إننا وبلا شك نحتاج إلى تسجيلات أكثر تساعدنا على التبصر الجوهري فى جميع أوجه الثقافة الموسيقية التقليدية، وكلا التسجيلات التحليلية والبيئية لها مكانتها فى العلم والتعلم، وإن التوثيق الجيد للموسيقى التقليدية يجب أن يهدف نحو هذين النوعين إذا كنا نريد أن نعد أسساً جيدة للبحث العملى فى مجالى التوثيق والتحليل.

، أما عن أهمية الأرشفة للموسيقى التقليدية فى البحث العلمى فيكتب نيرثوس كريستنسن Nersus L. Christensen (١) مؤكداً على أهمية الوسائل التى ساعدت وتساعد على إتمام أرشفة تصلح كقاعدة أساسية للبحث فى هذه الموسيقى. فيذكر فى ذلك أهمية الإنجاز الذى جاء به إديسون ١٨٧٧، وفضله على الإنجازات التكميلية والتطويرية التى شهدتها أوروبا فيما بعد.

وبعد مرور ما يقرب من مائة عام على ظهور الإنجاز الأول فى مجال تقنية التسجيل الصوتى، أصبح هناك آلاف التسجيلات الموسيقية المجموعة والتى يمكن اعتبارها أرشيف للموسيقى التقليدية.

إن فكرة تسجيل الصوت منذ اختراع إديسون ما تزال حاضرة إلى اليوم وإن زيد عليها العديد من التطويرات إلى أن جاء ابتكار الشريط السينمائى ومن بعده الفيديو ثم الاختراعات الأخرى فى ابتكار نقل المعلومات من مكان لمكان آخر والتى تمثلت فى الإذاعة الصوتية والمرئية وفى الابتكارات الأكبر تحديداً والتى تعتمد على هذه

(١) نيرثوس كريستنسن، أرشيف الموسيقى التقليدية ودوره فى البحث العلمى والتعليم ووسائل الإعلام (الوثائق الكاملة للدوة الدولية لموسيقى عمان التقليدية)، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٩٧.

الخاصية مع تحديد أكثر فيما يتصل بالاختيارات ويقصد بذلك دوائر الكمبيوتر والانترنت وغيرها. لكن نيرثوس يرى في عرضه لبعض المعلومات ذات الصلة بمجال التسجيلات الأولى للموسيقى التقليدية وفي مجال التوثيق والأرشفة في جميع أنحاء العالم أن هذه الأرشيفات هي جزء من كل وأنها توجد جزء من المجتمع في وقت توثيقها.

إن بدايات التسجيلات للموسيقى التقليدية بشكل واسع جاءت مع التسعينات من القرن التاسع عشر وبالتحديد في أمريكا الشمالية بالرغم من أن هذه التسجيلات ظلت في أيدي الأفراد أو داخل المتاحف دون استخدامها أو الوصول إليها. كما بدأ جمع أرشيف لتسجيلات الموسيقى التقليدية بغرض حفظها واستخدامها لأول مرة في فيينا عام ١٨٩٩، ثم في برلين عام ١٩٠٠ واليوم يوجد عدد كبير من المعاهد في كل أنحاء العالم والتي تضم نتائج التطورات العلمية والسياسية والثقافية منذ عام ١٨٩٠، لقد أجرى بيتر وبييرل كيندي Peter and Beryl Kennedy مسحاً للأرشيفات الإقليمية والمعاهد والمنظمات التي تهتم كلياً أو جزئياً بتسجيل ونشر المعلومات عن الموسيقى الفولكلورية المحلية والفنون التقليدية وذلك عام ١٩٧١ لحساب المجلس الدولي للموسيقى الفولكلورية وقد طبع البحث عام ١٩٧٣ وهو يقدم معلومات عن ١٤٥ معهداً ومركزاً في ٤١ دولة من دول العالم ليس فقط على المواقع وتاريخ الإنشاء ومكوناتها ولكنه أيضاً يقدم معلومات عن أهداف هذه المعاهد ومصادر دعمها.

أما عن أهداف الأرشيف فيقول نيرثوس إنه يبدو أن الأرشيف الخاص بالموسيقى التقليدية أنشأ في البداية ليخدم أهداف العلوم الغربية حيث لم يكن هناك وسائل للإعلام للارتباط بها، فمركز الأرشيف الصوتي للأكاديمية النمساوية للعلوم (الذي أنشئ عام ١٨٩٩) كان يهدف إلى تسجيل وجمع الموسيقى جمعاً موثقاً وكان ذلك يجري في مجال الموسيقى وعلم الأجناس والعلوم الطبيعية في كل أنحاء العالم، كما كان من ضمن أهداف هذا المركز تطوير ما يسمى بالصورة الصوتية أي تسجيل أصوات الأشخاص البارزة وحفظها للتاريخ وبالطبع كان أول تسجيل صوتي للإمبراطور فرانز جوزيف Franz Joseph وكان في الثاني من أغسطس عام ١٩٠٣. أما أرشيف برلين للموسيقى فقد بدأ يجمع التسجيلات بواسطة أسطوانات فونوغراف إديسون وكان من بينها تسجيل لفرقة تيلاندية زارت برلين سنة ١٩٠٠ وكان الهدف

من هذا التسجيل هو الحصول على بيانات تجريبية لبحث خاص لمفهوم الطبقات الصوتية، وقد كانت التسجيلات -على هذا النحو- معدة لخدمة البحوث التي تتعلق بالعقل الإنساني، وظل هذا الاتجاه نحو القضايا العلمية في مقابل القضايا الفنية والثقافية والسياسية دون وضع أى ضوابط إقليمية أو وطنية تشكل سياسات أرشيف برلين للموسيقا حتى الآن .

وقد أنشئ العديد من المراكز بعد ذلك وظلت تعمل وفق هذا المبدأ نفسه، وهو الجمع والتسجيل والتوثيق لخدمة الأغراض العلمية كمعهد جوتنجن للأفلام فى ألمانيا الذى تأسس سنة ١٩٤٩ لخدمة البحوث العلمية بتخفيض ثمن الأفلام التى ينتجها. وكل هذه المعاهد تدعها الحكومة بشكل مباشر أو غير مباشر وتعتمد على استمرارية وجودها على مساهمتها العلمية الصرفة، وهو أمر لا يعرف الحدود الإقليمية. ومعظم هذه المعاهد أيضاً قد طور علاقات قوية مع المعاهد العلمية الأخرى وتبادلت معها الأفكار العلمية والبحوث والوثائق.

بجانب ذلك هناك نوع من الأرشيفات تهدف لغايات وطنية كأرشيف الأغاني الفولكلورية فى مكتبة الكونجرس فى واشنطن الذى تأسس عام ١٩٥٤ بغرض حفظ وتصنيف الموسيقى الفولكلورية. وتتفق أهداف هذا الأرشيف مع أرشيف أنقرة فى تركيا حيث لا ذكر لمسألة البحوث أو النشر فى بيان الأهداف التى أنشئ الأرشيف من أجلها على عكس ما نجده فى بيان الأهداف فى بعض الأرشيفات والمراكز الأخرى مثل قسم الفولكلور بالمتحف القومى بكندا الذى تأسس سنة ١٩٥٧ وكما فى قسم الفولكلور فى فنزويلا (١٩٤٦)، وقسم بحوث الموسيقى الفولكلورية فى جامعة جامايكا (١٩٦٦) والذى حدد أهدافه فى أنه يحفظ ويدرس وينشر الموسيقى التقليدية فى جامايكا لاكتشاف أصول هذه الموسيقى وتأثيراتها على موسيقا اليوم.

هناك بالطبع عدد آخر من الأرشيفات فى العالم تتفق أو تختلف مع هذه الأرشيفات وفى العهود الحديثة اكتسبت أرشيفات الموسيقى التقليدية أهمية متزايدة لدى صانعى السياسة القومية وذلك بتطوير الوسائل التكنولوجية فى حقل التسجيلات الصوتية والفيديو والإذاعة، ونظراً للتأثير الهائل الذى اكتسبته الفنون التقليدية بالإضافة إلى وسائل الاتصال كوسيلة لتنمية وإظهار الهوية القومية؛ فقد نالت هذه الأرشيفات أهمية اجتماعية وثقافية متميزة وأبعد مما كان يتصور بارتوك. وذلك

بتجلى الاهتمام الذى ينصب على هذه الأرشيفات فى السياسات الثقافية فى الدول التى نالت استقلالها حديثاً.

أما عن نظم الأرشيفات الخاصة بهذه الموسيقى فيقول نيرثوس إن هذه الإرشيفات يجب ألا توجد لمجرد وجودها فقط، بل يجب أن تكون أدواتها وتنظيماتها متوافقة مع الأهداف التى أنشأت من أجلها؛ هذه الأهداف كما رأينا متعددة ومختلفة، وأكثر من ذلك فإن التكنولوجيا التى تدعم النشاطات الأرشيفية تتطور هى الأخرى بخطى سريعة مما يهدد بالزوال الكثير من النماذج والمعايير، ولذلك يذهب نيرثوس إلى اقتراح يتناول فيه بعض الأوجه المعروفة فى المعاهد ذات الأهداف المتعددة، هذه الأوجه أساسية للوظيفة المركزية للأرشيفات وتتمثل فى حفظ محتوياتها وجعلها فى المتناول لخدمة الأهداف المقامة من أجلها الأرشيف. ويركز نيرثوس على الدوائر التى تمثل نظام الأرشيف ويبدأ بطاقتى الموظفين الذى يمثل أهمية فى كل الحالات. ولمواجهة احتياجات الأرشيف من الموظفين فإنه يتطلب وجود أفراد ذوى معرفة تامة بالموضوع وعلماء موسيقا متدربين على إجراءات الأرشفة وتقنياتها، بالإضافة إلى معدى الكاتالوجات والفهارس وإلى فنىي التسهيل ذوى الخلفية المناسبة، كما أن هناك حاجة إلى سكرتارية وإلى موظفى صيانة، وهناك أيضاً التكنولوجيا التى دخلت عالم الأرشيفات كالمبيوتر لتخزين المعلومات للاستعمال المحلى أو الدولى والتى تحتاج إلى خبرات متخصصة. ومن الصعوبة لأى أرشيف فى العالم أن يجد احتياجاته فى هذا الخصوص بشكل مرضٍ، ويؤدى عدم وجود موظفين مدربين فى المواقع الأساسية إلى فقدان الأرشيف لفائدته على نحو سريع.

هناك أيضاً الأدوات التى تشكل مصدر اهتمام كبير ليس فقط لأسباب ضيق الميزانية التى قد تحد من الخيارات ولكن أيضاً بسبب التطور التكنولوجى السريع الذى يتطلب تحديث الأدوات بشكل مستمر. وبالنسبة للمواد المسجلة هناك مشكلة توافق أنواع الأدوات المستخدمة فى التسجيل.

المراجع

- ١ - أحمد رشدى صالح: فنون الأدب الشعبى - مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ .
- ٢ - آرثور سيمون: أهداف ومشاكل توثيق الموسيقى التقليدية/ الوثائق الكاملة للندوة الدولية لموسيقا عمان التقليدية - الجزء الثانى، مطبوعات مركز عمان للموسيقا التقليدية ١٩٩٤ .
- ٣- أحمد شمس الدين الحجاجى، مواليد البطل فى السيرة الشعبية، كتاب الهلال، العدد ٤٤، دار الهلال، ١٩٩٧ .
- ٤ - أرنست فيشر: ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ .
- ٥ - أنعام عبد اللطيف سابق: أغانى ألعاب الأطفال الفولكلورية المصرية، أطروحة ماجستير مقدمة لقسم علوم الموسيقى بالمعهد العالى للموسيقا العربية/ أكاديمية الفنون ١٩٩١ .
- ٦ - إيمان جودت: دراسة مقارنة بين آلات النفخ الشعبية فى مصر وبعض الدول العربية/ أطروحة دكتوراه مقدمة لقسم علوم الموسيقى/ المعهد العالى للموسيقا (الكنسيرفتوار) أكاديمية الفنون ١٩٩٩ .
- ٧ - بريجيت شيفر: واحة سيوة وموسيقاها، ترجمة جمال عبد الرحيم، مراجعة وتقديم سمحة الخولى - المجلس الأعلى للثقافة - وزارة الثقافة ١٩٩٦ .
- ٨ - ج. هـ. كوابينا نيكيتيا: التفاعل من خلال الموسيقى/ ديناميكيات العمل الموسيقى فى المجتمعات الأفريقية، ترجمة أحمد رضل محمد رضا - المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية - العدد ٥٣ السنة ١٤، مركز مطبوعات اليونسكو - أكتوبر ١٩٨٣ .
- ٩ - جاستون ماسبيرو: الأغانى الشعبية فى صعيد مصر - ترجمة أحمد مرسى، محمود الهندى (مكتبة الأسرة) الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ .

- ١٠ - جوفانى كانوفا: العجروسيرة الزير سالم - المأثورات الشعبية (دورية) السنة الخامسة العدد ١٧، مركز التراث الشعبى بدول الخليج العربية - الدوحة/ قطر ١٩٩٠ .
- ١١ - ديتر كريستينسين: صناعة الموسيقى فى «صحارى» الفن والمجتمع فى منطقة الباطنة/ الوثائق الكاملة للندوة الدولية لموسيقا عمان التقليدية - الجزء الثانى، مطبوعات مركز عمان للموسيقا التقليدية ١٩٩٤ .
- ١٢ - ديتر كريستينسين: عمان، الدراسات الانثوموزيكولوجية وتاريخ الموسيقى - الوثائق الكاملة للندوة الدولية لموسيقا عمان التقليدية . الجزء الأول - مطبوعات مركز عمان للموسيقا التقليدية ١٩٩٤ .
- ١٣ - سمحة الخولى: «فى ذكراها؛ رؤية جديدة لظاهرة فنية فريدة: أم كلثوم»، دراسة منشورة بدورية «آفاق» لجنة الموسيقى والأوبرا والبالية - العدد الثانى - المجلس الأعلى للثقافة/ وزارة الثقافة ٩٨ - ١٩٩٩ م.
- ١٤ - عاطف مصطفى على: دراسة تحليلية لموسيقا الرقص الشعبى فى محافظة قنا - أطروحة دكتوراه مقدمة لقسم علوم الموسيقى - المعهد العالى للموسيقى (الكنسيرفاتور) أكاديمية الفنون ١٩٩٩ .
- ١٥ - عبد الحميد حواس: محاولة فى ترتيب المادة الفولكلورية - مركز دراسات الفنون الشعبية (مخطوط غير منشور) «د. ت» .
- ١٦ - عبد الحميد حواس: محاولة لتصنيف فنوننا الشعبية، مجلة الفنون الشعبية - السنة الأولى العدد الرابع وزارة الثقافة سنة ١٩٦٧ .
- ١٧ - عبد الحميد حواس: النوع الجنسى والنوع الفنى، الموقف من المرأة فى الأغانى الشعبية النسوية (بحث تم إلقاؤه فى ندوة المرأة العربية فى مواجهة العصر المنعقدة فى الفترة من ١٧ - ٢٠ نوفمبر ١٩٩٢ ونشر بدورية نور الخاصة بالندوة فى نوفمبر من العام نفسه .
- ١٨ - عبد الحميد حواس: أوراق فى الثقافة الشعبية، مركز البحوث العربية للدراسات العربية والأفريقية والتوثيق - القاهرة ٢٠٠٣ .
- ١٩ - عبد الحميد يونس: الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى، مطبعة جامعة القاهرة، سنة ١٩٥٦ .

- ٢٠ - على الخاقاني: فنون الأدب الشعبي - الحلقة الأولى. منشورات دار البيان ٢٧ بغداد ١٩٦٢ .
- ٢١ - فاطمة أحمد محمود: الفرق الشعبية في مصر، أطروحة ماجستير مقدمة لقسم علوم الموسيقى بالمعهد العالي للموسيقى العربية/ أكاديمية الفنون ١٩٩٢ .
- ٢٢ - فائزة على أحمد قطب: دور آلة الريابة في الحياة الاجتماعية المصرية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أطروحة ماجستير مقدمة لكلية التربية الموسيقية جامعة حلوان ١٩٧٧ .
- فيوتو: وصف مصر، الأجزاء ٧، ٨، ٩، ترجمة زهير الشايب، مكتبة الخانجي ١٩٨١ .
- ٢٣ - كتاب مؤتمر الموسيقى العربية، المملكة المصرية - وزارة المعارف العمومية سنة ١٩٣٤ .
- ٢٤ - مانويل هود: البصمات الصوتية لموسيقا عمان التقليدية - الوثائق الكاملة للدوة الدولية لموسيقا عمان التقليدية - الجزء الأول - مطبوعات مركز عمان للموسيقى التقليدية ١٩٩٤ .
- ٢٥ - محمد الجوهري، (مشرفا): مصادر دراسة الفولكلور العربي، قائمة بيبليوجرافية مشروحة، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٣ - سلسلة علم الاجتماع المعاصر - الكتاب رقم ١٩ ط ١ سنة ١٩٧٨ .
- ٢٦ - مجمد الجوهري: علم الفولكلور - الجزء الأول - الأسس النظرية والمنهجية - ط ٤ دار المعارف ١٩٨١ .
- ٢٧ - محمد الجوهري وإبراهيم عبد الحافظ ومصطفى جاد: الانتاج الفكري العربي لعلم الفولكلور - قائمة بيبليوجرافية - مركز الدراسات الاجتماعية - كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ٢٠٠٠ .
- ٢٨ - محمد الجوهري (مشرفا): الفولكلور العربي - بحوث ودراسات - المجلد الأول - ط ١ - مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب جامعة القاهرة ٢٠٠٠ .
- ٢٩ - محمد الجوهري وإبراهيم عبد الحافظ ومصطفى جاد: الفولكلور العربي - بحوث ودراسات، المجلد الثاني ط ١ سنة ٢٠٠١ م .
- ٣٠ - محمد أحمد عمران: الدراسة العلمية للموسيقا الشعبية - الجزء السادس من دليل العمل الميداني لجامعي التراث الشعبي - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٩٧ .

- ٣١ - محمد أحمد عمران: موسيقا السيرة الهلالية - المجلس الأعلى للثقافة، وزارة الثقافة ١٩٩٩ .
- ٣٢ - محمد أحمد عمران: قاموس مصطلحات الموسيقى الشعبية - عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٢ .
- ٣٣ - محمد السيد ياقوت شفشق: موسيقا الزار في مصر، دراسة تحليلية لألحانها وإيقاعاتها، أطروحة ماجستير مقدمة لكلية التربية الموسيقية جامعة حلوان ١٩٧٩ م.
- ٣٤ - محمود أحمد الحفنى: الشيخ سلامة حجازى رائد المسرح العربى - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - وزارة الثقافة ١٩٦٨ م.
- ٣٥ - ناهد أحمد حافظ: الغناء فى القرن التاسع عشر - دار المعارف ١٩٨٤ م.
- ٣٦ - نبيل صبحى حنا: البناء الاجتماعى والثقافى فى مجتمع العجر دراسة انثروبولوجية لتأثير البناء والثقافة والشخصية على التكامل الاجتماعى - دار المعارف ١٩٨٣ م.
- ٣٧ - نيرثوس كريستنسين: أرشيف الموسيقى التقليدية ودوره فى البحث العلمى والتعليم ووسائل الإعلام - الوثائق الكاملة للندوة الدولية لموسيقا عمان التقليدية - الجزء الثالث - مطبوعات مركز عمان للموسيقا التقليدية سنة ١٩٩٤ م.
- ٣٨ - وليم إدوار لين: المصريون المحدثون - عاداتهم وشمائلهم، ترجمة عدلى طاهر نور - ط٢ - دار النشر للجامعات المصرية ١٩٧٥ م.
- ٣٩ - يسرى حنفى الحامولى: أغانى المناسبات الاجتماعية «الموال، أطروحة ماجستير مقدمة لكلية التربية الموسيقية/ جامعة حلوان سنة ١٩٧٧ م.

المراجع الأجنبية :

- (1) Dwight fletcher reynolds
Heroic poets, petic heroes: the Ethnography of Performance in
an arabic oral epic tradition, . 1995.
- (2) Fred Hamori:
The Origin Hungarian Folk Music, 1995
(نسخة من الانترنت قائمة): Uni-
versity Libraries
.Ethnomusicology Folk Music, and World Music
- (3) Hans Brandeis:
"Music and Dance of the Bukidnon~ S. of Mindanao A. Short Intro-
duction".(FAB).1993
(نسخة من الانترنت قائمة): Uni-
versity Libraries
.Ethnomusicology Folk Music, and World Music
- (4) Irene Markoff
Introduction to Sufi Music and Ritual in Turkey 1995 .
Middle East Studies Association
(نسخة من الانترنت قائمة): Uni-
versity Libraries
.Ethnomusicology Folk Music, and World Music
- (5) Susan Slyomovies:
The merchant of art: Egyptian Hilali Oral Epic Poet in
Performance. 1988.
- (6) Wiora Walter:
The Four Ages of Music Translated by M. D. Herter Norton
New York. Norton. 1965.

(*) - مايكل فرشكوب Michael F. "أداء اللغة كطريقة للوصول إلى الهدف، دراسة مقارنة للطرق الصوفية في مصر- مصر- Language performance as an Adaptive Strategy: A Comparative Study of Sufi Orders in Contemporary Egypt (أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا في لوس انجلوس سنة ١٩٩٩ ، ولم نتمكن من الاطلاع علي نسخة من هذا البحث لأنه لم ينشر بعد. أما المعلومات التي وردت عن هذا البحث، فقد تحصلنا عليها من الباحث نفسه في لقاء معه في منزلنا بالعباسية مساء الأربعاء الموافق ١٧ / ٧ / ٢٠٠٢ وذلك أثناء زيارته للقاهرة) .

المصادر

- ١ - الأرشيف الصوتي في مركز دراسات الفنون الشعبية/ المعهد العالي للفنون الشعبية - أكاديمية الفنون.
- ٢ - قائمة دراسات من الانترنت:
University Libraries - Ethnomusicology Folk Music and World Music.
- ٣ - محمد أحمد عمران: دراسات منشورة بمجلة: الفنون الشعبية - الأعداد رقم: ٤٢، ٥٣، ٥٦، ٥٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب في السنوات ٩٤، ٩٦، ٩٧م.
- ٤ - محمد أحمد عمران: موسيقا السيرة الهلالية - المجلس الأعلى للثقافة وزارة الثقافة ١٩٩٩م.
- ٥ - الوثائق الكاملة للندوة الدولية لموسيقا عمان التقليدية - الأجزاء: الأول والثاني والثالث. مطبوعات مركز عمان للموسيقا التقليدية ١٩٩٤م.

دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
طبعة خاصة بمكتبة الأسرة

